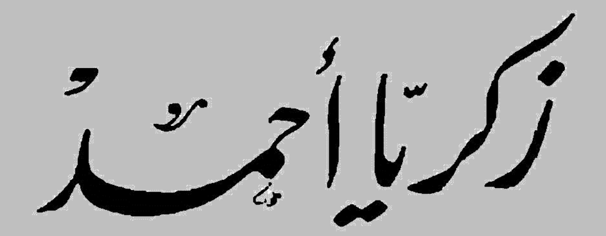
أعلام العرب
١٩



زكريا أحمد

بقلم
صبري أبو المجد

[illegible]
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مقدمة

هذا الذى بين يديك ليس مجرد قصة أو رواية طويلة أو قصيرة، كما أنه ليس مجرد نشر لبعض المذكرات أو الذكريات الفنية ، انه مزيج من كل هؤلاء . فيه القصة وفيه الرواية وفيه التاريخ الحى ، لفننا وفنانينا ، وفيه المذكرات والذكريات والأحداث التى يزاح عنها الستار للمرة الأولى ، خلال الستين عاما الأخيرة .. انه الوعاء الذى يضم حياة فنان خرج من القاع ، ليتربع على القمة .. فنان رأى ما لم يره غيره من صعود الى أعلى ، ومن هبوط الى أسفل . ومن غنى فاحش الى فقر مدقع : الناس تلتف حوله ، والناس تنفض عنه ، يكسب الألوف من الجنيهات ، ثم لا يتبقى فى يده بعدئذ الملاليم ، تسعد ملايين العرب كل ليلة بألحانه الخالدة ، وهو مصاب بالذبحة الصدرية يسكن فى الدور الخامس ، فى عمارة ليس بها « مصعد » ولا يعثر على الأدوية الضرورية الا بشق النفس وهو يستطيع فى هذا الوقت أن ينتقل الى أفخم المستشفيات كما يستطيع أن يسكن أجمل الفيلات ، ويستطيع أن يجرى الذهب بين يديه ، لو أنه تراجع فى كلمة أو لو أنه اختار طريقا ، غير الطريق الذى اختاره . يرفض الألوف من الجنيهات وهو لا يجد الملاليم ، لأنه يرى — وقد يكون ما يراه خطأ — أن فى قبول الألوف اذلالا لكرامته

او امتداد على حقه ، ويرفض أن يغنى فى حفلات « البكوات » و « الباشوات » وكبار الكبراء مهما دفعوا له من مئات الجنيهات والوفها فى الوقت الذى يسعى فيه ومعه بطانته وأهل الهوى من خاصته الى منزل يقع فى عطفة هى جزء من حارة تفرعت من شارع فى جهة نائية من الدرب الأحمر ، ليحيى حتى الصباح حفلة ختان الطفل الأصغر للمعلم عزوز الحلوانى ..

لقد كان أهم ما يحرص عليه كرامته ، وفنه ، وربما كان حرصه على كرامته وكرامة فنه أكثر من حرصه على الفن ذاته .. وكان أصدق الناس فى كل ما يتعلق بحياته .. فى علاقاته بنفسه ، وعلاقاته بغيره : الصفاء والود والحب والاخلاص هى الدعائم الأولى لوجوده وكيانه ..

كان انسانا وكان فنانا .. بل كان مطربا وملحنا ومؤلفا وممثلا .. وكان فى الوقت ذاته فيلسوفا .. وفى ذلك كله كان ملهما ، وكانت شفافة نفسه ، وبياض قلبه تسيره وتسيطر عليه وتفرض على الناس فنه ، وخلقه وانسانيته ..

كان من طراز غريب ، لا تجد له مثيلا الا فى حالات نادرة قلما يجود بها الزمن الضنين بالرجال .. حياته أشبه بأسطورة من أساطير تاريخنا القديم .. وكان فنه ، أكثر ما يكون تعبيرا عن أصالة الشرق ، وسحره ، وجماله ، وكان قلبه أقرب ما يكون الى قطن بلدنا فى بياضه وطول تيلته .. وكانت أحاديثه ، أشبه ما تكون بالحلوى اللذيذة النادرة التى لا يشبع منها الانسان .

لقد استطاع زكريا أحمد بذكائه وعبقريته ، وصفاء نفسه ،

وحلاوة شخصيته ، أن يقيم مملكة واسعة دائمة كل ما فيها من حياة وحلاوة ، وصفاء ، وبياض ليست ملكا لصاحبها وحده بل للوطن الذى كان يقدسه ؛ وللفن الذى كان من أخلص خدامه وللانسانية التى كان هو نفسه من أقوى الأدلة على ما تمتلىء به من حب وصفاء ، ونقاء ، وعزة وكرامة ..

ترتبط مثلا حياته ، بحياة أم كلثوم ، أكثر من عشرين عاما يلازمها فيها منذ أن خطت خطواتها الأولى نحو الشهرة والمجد ، الى أن أصبحت فنانة الشرق الاولى ، ويختلف معها بسبب كلمة، لا تقدم ولا تؤخر ، ولكنه يرى هذه الكلمة — وان كان الأصدقاء المشتركون يرون العكس — ماسة بكرامته ، ويصل الخلاف الى القضاء ، وتتضخم المرافعات والمذكرات ، وتقارير الخبراء ، ويحاول الأصدقاء المشتركون طوال عشر سنوات انهاء هذا الخلاف واعادة المياه الى مجاريها النقية ، فيفشلون ، لأن الشيخ مستبد برأيه صارم فى خلافه ، وبكلمة واحدة من القاضى ، تنهار أسس الخلاف وتنتهى تلال الدوسيهات والتقارير والمرافعات وألوف الجنيهات الى لا شىء ..

ويختلف مع الاذاعة وهى قد تكون مصدر رزقه الوحيد ، ويصل الخلاف الى المحاكم ويدفع الشيخ كل ما يملك بل يستدين ، لينفق على القضية التى بدأت بكلمة من موظف مسئول، ثم ينتهى هذا الخلاف الحاد بكلمة ينطق بها صحفى شاب لا يملك من أمر دنياه شيئا ، وتعرض عليه الاذاعة أن تدفع له أضعاف ما تدفع لغيره وأن تبيح له من الفرص ما لا تتاح لغيره ، ويملى

شروطا عادلة مرة وقاسية مرة أخرى وتستجيب الاذاعة ، لاشتراطات الموسيقار الكبير وترتاح نفوس الأهل والأصدقاء ، لانهاء هذا الخلاف الذى أثر فى صحة الشيخ وعلى لقمة العيش التى يقتاتها — واولاده معه — ويرى الأهل والأصدقاء فى انهاء هذا الخلاف بادرة أمل قد تخفف عن الشيخ ذبحته الصدرية ؛ وقد تيسر له سبيل الانتقال من بيته القديم ذى السلالم المائة وقد يعيد الهناء : الى مملكة الموسيقى الكبير الذى يتكون من أولاده الستة ومن زوجته الكريمة ، الوفية ، الصابرة ؛ ثم يعود الخلاف الى حالته الأولى بل واشد بسبب كلمة .

والشيخ فى كل مرة لا يتجنى ولا يظلم ولا يكره ولا يحقد ولا يريد الا الخير كل الخير لمن اختلف معهم أو اختلف بسببهم ، كل ما يحرص عليه فى كل لحظة من لحظات حياته سواء أكان يملك الوف الجنيهات أم لا يملك حتى آحاد الملاليم ، فنه وكرامة فنه ، وكرامته التى هى من كرامة فنه .

والشيخ فى كل ظروفه ، وتصرفاته وحياته ، فنان بكل ما فى كلمة فنان من معان حلوة جميلة ، فنان اذا لحن ، فنان اذا غنى ، فنان اذا مثل ، بل فنان اذا خاصم أو لجأ الى القضاء . هو دائما فنان من الساعة التى يستيقظ فيها كل صباح الى الساعة التى يتناول فيها بعض الأقراص لينام ، أو ليحاول أن ينام . هو فنان مع أولاده ومع أصدقائه ومع محبيه ، فنان فى بيته وناديه والشارع الذى يقطن فيه . بل والشوارع والأزقة التى يمر بها . فنان مع البواب وسائق الاوتوبيس ، وبائع السجائر ، وتاجر اللب الذى

يشتريه ليتخلص من عادة تدخين السجائر عندما يحلو له أن يقلع عن التدخين .. فناك منذ اليوم الأول الذى توجه فيه ولم يزد عمره على الخامسة الى كتاب الشيخ نكلة بحى الأزهر ، الى اليوم الذى أودع فيه جثمانه التراب فى مقابر الغفير بعد أربعة وستين عاما .

قال مرة : ان الناس يقولون دائما : على الطلاق ، لماذا لم يفكر أحدهم فى أن يقول مرة « على الزواج » .

وينقل صديقه اللواء حسن خالد الى أسوان ليكون مديرا لها حيث الجو حار وحيث البعد عن العاصمة . وحيث الترقية الى منصب أعلى من ذلك الذى كان يشغله فيرسل له الشيخ برقية تهنئة بالمنصب الجديد ، لا تزيد على أربع كلمات : « تستاهل أكثر من كده » ويحار اللواء الصديق هل البرقية تهنئة بالمنصب الجديد، ام هى تشف لنقله الى أسوان فى عز الصيف ..

ويعود الشيخ مرة فى ساعة متأخرة من الليل الى بيته ، ليجد بائعة فجل تجلس فى البرد ومعها طفلها الصغير الذى يكاد يموت من البرد .. ويسألها الشيخ : البضاعة بتاعتك دى بكام ؟

وتقول المرأة فى سخرية ، وبتسأل ليه ياسيدنا الأفندى ؟ وتقول بعد أن تعتقد أن محدثها ليس سوى رجل مخمور ، أحب أن ينالها « بتريقته » : البضاعة دى باتنين جنيه يا حضرة .. وتفاجأ المرأة بأن الأفندى يضع يده فى جيبه ويخرج الجنيهين ويعطيهما للبائعة وهو يقول لها : ياللا ياستى قومى روحى لأولادك : ويحمل على كتفه مشنة الفجل ، ويعود بها الى البيت ، حيث تستيقظ

زوجته ، لتراه وقد ابتلت بدلته بالماء الذي تساقط من الفجل والجرجير والكرات ولا تفاجأ زوجته بما حدث فهي أعرف الناس بطباع زوجها الفنان ، وتقول له بعد أن تعرف القصة : « أما انك تدفع اثنين جنيه لواحدة غلبانة فدي حاجة كويسة ما حدش يقدر يقول فيها حاجة .. بس أقدر أعرف ، ليه جبت المشنة معاك ، وبوظت البدلة بالشكل ده ؟؟ » .

ويقول الشيخ باسما : « أصل أنا لو سبت المشنة للست ، مش حتروح بيتها .. دي حتقعد علشان تبيع لها حزمتين تلاتة فوق البيعة .. وأكون أنا ما عملتش حاجة بالنسبة للأولاد الصغار » .

ويفاجأ جيران الشيخ في الصباح بهدايا من الفجل والجرجير والكرات . وعندما يسأل أحدهم : « جبت منين الهدية دي يا سيدنا الشيخ يقول باسما : من العزبة اللي فوق السطوح .. » ويروي لهم القصة .

وما أزال حتى هذه اللحظة أذكر قصة لقائي الأول بالشيخ زكريا في أواخر عام ١٩٥٣ .. كان الشيخ قد أصيب بذبحته الصدرية للمرة الأولى ، وكانت قضيته مع الاذاعة ومع أم كلثوم قد وصلت الى مرحلة خطيرة من العنف والشدة وكان من أوجب الواجبات على عارفي فضل الشيخ على الموسيقى العربية بذل محاولة جديدة لانقاذ الشيخ من ذبحته ومن قضاياه .. وفي مجلس تحرير المصور اقترحت ان اكتب عن الشيخ .. وأيد الجميع الفكرة ، ما عدا ثلاثة .. وكان الثلاثة المعارضون هم ألصق الناس بالشيخ ، وأكثرهم عرفانا بفضله ، وكانت حجتهم أن الشيخ لن

يتكلم لأنه مريض .. ولأنه لا يريد أن يجعل من مشكلته ، ومن ذبحته مجالا لعطف الرأى العام عليه .. واتفقنا جميعا ، من أيد الاقتراح ومن عارضه ، على أن أحاول « فلعل وعسى .. وبعد جلسة التحرير جلست مع الزملاء الثلاثة ، لنضع خطة لاصطاد بها الشيخ ، لنقتحمه بالكلام .. وأرسل أحد الأصدقاء الثلاثة اليه فى الاسكندرية ليمهد الجو .. وسافر ثانيهم الى الاسكندرية ، ليستغل الجو الممهد وأخذ الثالث يلاحقنى بالوصايا العشر .. ابدأ الموضوع من هنا .. وادخل فى الموضوع من زاوية كذا .. حذار ان تقول له كيت وكيت .. و .. و ..

وفى الاسكندرية طرقت باب منزله وقد طارت من ذهنى الوصايا العشر ، ولم يكن الشيخ هناك ، ولا أستطيع أن أنكر اننى قد ارتحت لذلك فلم أكن رغم ما بذلت من جهد مهيئا للقاء ..

وتركت مع كريمته بطاقة كنت قد أعددتها من قبل فيها سؤال عن الصحة ، وفيها دعاء من الأعماق أن يحفظه الله ويبقيه .. وفيها الأمل فى تحديد موعد آخر بالقاهرة ..

وفى القاهرة تحدثت بالتليفون وكانت مفاجأة .. لقد ألقى على دشا عنيفا : « يا راجل يا طيب انت فاكر نفسك حاتقابل مين يعنى .. ترومان ولا ايزنهاور .. تعال حالا .. » .

وبعد دقائق كنت معه ، فلقد كنت وقتئذ أسكن بجوار منزله .. وأصبحت لأول مرة وجها لوجه أمام زكريا أحمد الفنان ، المريض .. وكان معه صفوة أصدقائه الذين كان يطلق عليهم « أهل الهوى » ..

وقال الشيخ ببساطته : « اسمعوا يا جماعة .. أنا بقالى شهرين ما اتكلمتش : الدكاترة نصحونى بعدم الكلام .. لكن الليلة دى أنا عاوز أتكلم .. » .

وبدأ الحديث فى الثامنة مساء ، ولم ينته منه الا فى الساعة السادسة صباحا .. وأنسانا الشيخ بحديثه الممتع أن وراءنا أعمالا، يجب أن نذهب اليها .. ونسى الشيخ نفسه ، ولم يتذكر انه بحاجة الى النوم . وعدت الى بيتى أحاول أن أستفيد من هذا الكلام الذى انطلق به الشيخ زكريا أثناء مقابلتى له فى عملى الصحفى . ولم أنجح فى محاولتى هذه لقد كان الحديث شيئا آخر لا علاقة له بمرضه أو بقضيته ، وطويت أوراق العمل الصحفى وبدأت أتابع عملا آخر لم يكن يخطر لى يوما على البال ..

وتكرر اللقاء كل يوم ..

وبدأنا نخرج معا عصر كل يوم .. وفى أحيان كثيرة كنا نقطع المسافة من منزله فى الفجالة الى قهوة بميدان المحطة وهى مسافة لا تزيد على بضع مئات من الأمتار ، فى أكثر من ثلاث ساعات ، وأذكر يوما التقى فيه الشيخ وهو فى الشارع بفنان من زملائه ، وطال الحديث أكثر من أربع ساعات ، والشيخ لا يمل الحديث وأنا والزميل الفنان لا نمل الاستماع .. بل لا نفكر حتى فى مجرد الجلوس على المقهى الذى يقع قبالتنا ، لتريح أرجلنا المكدودة المتعبة .

وذات مرة دخلنا محلا لمسح الأحذية فى أول شارع عماد الدين .. وجلسنا نتحدث فى كل شىء ، الا فى الفن ، وتوقفنا

عن الحديث عندما ترامى انى سمعنا حديث خافت بين عاملين من عمال المحل ..

أنت سمعت الست امبارح ؟

+ لا والله أسلى نمت بعد الوصلة الأولى .

— هو فيه حد بينام والست بتغنى ؟

+ انت عاوز الجد ، يا ابراهيم أنا باموت فى الست لما تغنى حاجة للشيخ ..

وكان الحديث خافتا ، وكان العاملان لا يعرفان من يجلس أمامهما .. وأحسست بالسعادة وقد غمرت الرجل المثقل بالهموم والأمراض .. وبعد أن جاوزنا المحل بخطوات قال الشيخ .. تعرف الكلمة دى عندى تساوى ايه ؟ قلت .. لا ؟ قال : أكثر من مليون جنيه ؟!

ولم أجد الشيخ فى يوم ما سعيدا ، مثل سعادته فى ذلك اليوم.

واكتشفت ذات يوم أن الشيخ يدون مذكراته ، وحاولت أن أنشر جزءا منها فرفض قائلا : لن أسمح لأحد بنشرها فى حياتى ، أما بعد مماتى فهى — اذا كان فى عمرك بقية — فى متناول يدك . وحاولت أن أعرف السبب الذى جعل الشيخ زكريا يصر على أن يكتب يومياته مهما اشتد به المرض من عام ١٩١٦ الى يوم وفاته . وسألت زوجته وأولاده وأصدقاءه وعارفى فضله فلم أجد ردا شافيا الى أن ابتدأت فى نشر القصة بالمصور فكتب الى القارىء محمود حسين من الاسكندرية يقول : « لقد تساءلت كما تساءل الكثيرون عن سر تدوين الملحن الكبير المرحوم زكريا أحمد

لمذكراته فى وقت لم يكن فيه شيئا مذكورا ، ولم يكن فى الغالب يتنبأ بأنه سيكون شيئا مذكورا ، وفى جلسة جمعت بعض رجال الفن والأدب بالاسكندرية ، وجهت هذا السؤال الى لفيف من الذين جمعتهم بالفقيد الكريم أوثق صلات الصداقة والمحبة والتقدير فأجمعوا على أن زكريا كان فعلا ومن عهد طويل يدون يوميا مذكراته فى مفكرات صغيرة أما السبب فى ذلك فقد ذكره الأديب الفنان الأستاذ أحمد عوض فقال : « ان زكريا ذكر له انه فى مستهل حياته حدث أن اتهم أحد رجال الوجه القبلى بتهمة قتل فلما استجوبته النيابة — بعد أن كادت التهمة تثبت عليه — أكد المتهم أنه فى اليوم الذى تمت فيه الجريمة لم يكن أصلا فى البلد الذى تمت فيه الجريمة .. وقال ليدلل على صحة أقواله ان فى منزله نوتة صغيرة يدون فيها يومياته وقد أمر المحقق بتفتيش المنزل حيث وجد النوتة ومنها ثبت أن المتهم كان بالقاهرة فى هذا اليوم وأنه تناول غداءه عند صديق له ووجد المحقق فى «النوتة» اسم الصديق والوان الطعام التى تناولها عنده . وقد استدعى المحقق هذا الصديق فاتضح صدق رواية المتهم الذى أخلى سبيله فى الحال ، وكان لهذا الحادث تأثيره على زكريا فبدأ هو الآخر يدون مذكراته أو على الأصح يومياته » ، وعندما وصلنى خطاب الأخ محمود حسين حمدت الله على أن زكريا أحمد لم يشتغل بالسياسة والا لكان قد سبب المآسى لمئات من الناس بسبب يومياته ، وتذكرت فى الحال قصة صديق كان يشتغل بالسياسة وتعود أن يدون يومياته كل يوم بمنتهى الدقة .. وفى قضية سياسية ، كنت

متهما فيها عام ١٩٤٥ وكنت أقيم فى « الجبخانة الكائنة بسجن قسم روض الفرج » وفوجئنا نحن المتهمين فى هذه القضية ، بقسم روض الفرج ينقلب رأسا على عقب ، وتخلى حجرات السجن وبعض حجرات الموظفين لتسع لعشرات من المتهمين الذين قبض عليهم فى الزقازيق ، وقد بلغ عددهم أكثر من خمسين متهما ، ونشرت الصحف فى اليوم التالى العثور على وثيقة هامة سوف تؤدى الى معرفة أسرار القضية ولم تكن الوثيقة سوى « نوتة » يوميات أحد المتهمين فى القضية ، الذى كان يحرص على أن يسجل كل دقائق يومياته وحدث أن دعى الى حفلة زفاف فى الزقازيق وكتب فى يومياته ، أسماء المدعوين الى حفلة الزفاف . فلما وقعت « النوتة » فى يد المسئولين عن الأمن ، أمروا على اعتقال الجميع بوصفهم متهمين فى هذه القضية ووضعوهم فى عربة خاصة ، ألحقت بقطار الصباح ، وشحنوا الى النائب العام فى عدد كبير من عربات اللورى ، واكتشف النائب العام الحقيقة وقال لضابط القلم السياسى الذى رافقهم الى المحافظة : « كان لازم تجيبوا « العروسة » و « العريس .. » .

ثم مات الشيخ .. وأصبحت المذكرات أو اليوميات بين يدى، وسهرت معها ليالى طويلة ، وكانت بعض أيام هذه المذكرات واضحة ، كقلب الشيخ وموسيقاه ، وكان بعضها الآخر أشبه ما يكون بالأحاجى والألغاز وفى حاجة الى مفاتيح ووجدت المفاتيح فى خاصة الشيخ وأخلص أصدقائه ممن كان يطلق عليهم « أهل الهوى » ولم أكتف بقراءة المذكرات بل ذهبت الى كثير من المدن

والقرى التى شهدت الشيخ مقرئا ، ومغنيا ، وملحنا ومستمعا .. كما ذهبت الى الأصدقاء والأحباء والأهل والمعارف لأسمع ، واحقق وادرس ثم اقرأ كل ما كتبه الصحف — أو بعض الصحف — طوال السنوات الثلاثين الأخيرة باحثا عما كتب عن زكريا وفن زكريا وأجد الكثير من المشقة والاجهاد فى هذه العملية ، فالأصدقاء القدامى قد جفت ذاكرتهم .. وبعض الأهل قد اندثرت لديهم أحداث الماضى ويكفى للتدليل على صعوبة العملية انى قضيت ثلاثة أيام متنقلا بين الأصدقاء لأتحقق من مكان ولادة الشيخ ومن تاريخ ميلاده ومن الحى الذى عاش فيه أيام طفولته الأولى .. واننى قرأت كل أعداد الأهرام وكوكب الشرق ، والمسرح ، وروز اليوسف ، وألف صنف فى الفترة ما بين سنة ١٩٢٦ / ١٩٢٩ بحثا وراء الاتهام الذى ألقاه خصوم الشيخ فى وجهه مدعين انه سرق ألحان سيد درويش ..

ومع كل ذلك فقد أصررت على أن أكمل العمل وبالرغم من أننى لم يسبق لى يوما ما أن كتبت عن الفن ، وبالرغم من أننى حتى هذه اللحظة لا أستطيع التفرقة بين العود والقانون والناى ، وبالرغم من أنى لا أستطيع أن أميز بين ألحان سيد درويش ومحمد عبد الوهاب واخوان رحبانى ، وبالرغم من أننى — وقبل لقائى الأول بالشيخ زكريا أحمد — لم أكن أطيق الاستماع ولو لبضع دقائق الى قطعة موسيقية مهما كان ملحنها ومهما كان جمال أدائها. بالرغم من ذلك كله أصررت على أن أنتقل على دنيا الفنون وأن أكتب عن الشيخ « شيخ الملحنين » وعذرى أن هناك ارتباطا وثيقا

كان بينى وبين الانسان زكريا أحمد ، وأن هناك كان شبه اتفاق بنى وبين الشيخ زكريا على أن أكتب حياته ، اذا ما امتد بى الأجل بعده هذا الى جانب وجود معان جميلة ورائعة فى حياة الشيخ طالما سمعت من صميم قلبى أن يقتدى بها فنانونا فى الحاضر والمستقبل ولابد من ابراز هذه المعانى بصورة أو بأخرى .

وما زلت بالرغم من أننى انتهيت من اعداد هذا البحث أشعر انى قد تسرعت فى كتابته واننى أخطأت فى دخول ميدان لست من فرسانه ، غير أن ما يشجعنى على أن أدفع بما كتبت للنشر ، اننى أردت تنفيذ عهد قطعته بينى وبين نفسى ، واننى حاولت الوفاء لانسان أنزلته من نفسى مكانة نفسى ، واننى أردت مخلصا جهد استطاعتى تصوير حياة فنان من الشعب لم يكن له من سلطان سوى سلطان النغم ، ولم يكن له من نفوذ سوى نفوذ الحب الذى فرضه على من عرفه ومن لم يعرفه ، وقد استطاع هذا الفنان الشعبى رغم ظروفه القاسية المريرة بصفاء ذهنه وبياض قلبه ، وسمو انسانيته وعبقريته أن يجمع الملايين حول فنه وشخصه ، وأن يجعل من حب الناس له ولفنه ، ثروة انسانية ضخمة ، لا تقدر بمال .. والله ولى التوفيق .

صبرى ابو المجد

كلمة سريعة في الموسيقى العربية

لو أننى تصورت يوما ما اننى سأكتب عن الموسيقى ولو مرة واحدة ، لضحكت — على قلة ما أضحك — من نفسى على نفسى كثيرا. فلقد كانت علاقتى بالموسيقى منذ الصغر ، لا تتعدى نغمات الناى التى كان يرسلها بين حين وآخر شباب قريتنا ، من قطع الغاب التى كانوا يثقبونها فى كثير من اجزائها ، ونغمات أخرى أو شبه نغمات تعلو فى بعض الحالات وفى كثير من أنحاء القرية من أغطية الحلل وطشوت الغسيل وطبلة الست زهرة أيام جنى القطن وحصاد القمح ، وتوديع رمضان فى لياليه الأخيرة وقبل حلول العيد بساعات .. وحتى ذلك كله كنت أهرب منه . وعندما وفد جهاز الراديو لأول مرة الى قريتنا ، كان لا يهمنى منه الا نشرة الأخبار . وعندما كنت أسمع المذيع ينبىء بحلول مقدمة موسيقية كنت أجرى هاربا الى الجرن القريب من مركز الجمعية التعاونية حيث يوجد راديو القرية . وظللت على هذه الحال حتى بعد أن تركت القرية وجئت الى المدينة ، ولعلها المرة الأولى التى جلست فيها ليلة كاملة أستمع الى الموسيقى والغناء هى ليلة الحضرة — كما كان يسميها الشيخ زكريا أحمد — وهى ليلة الجمعة من كل أسبوع ، حيث يجتمع فى منزل الشيخ أو منزل أحد الأصدقاء من « أهل

الهوى » من خاصة الشيخ وفيهم الكاتب والشاعر ومدير المديرية، والعامل ، والتاجر الكبير والصغير وفى يد كل منهم آلته الموسيقية، حيث يغنون ويعزفون وساعتها لم أنم كعادتى عند سماعى الموسيقى ، ولم أتضجر ، ولست أخجل اليوم من أن أروى هذه القصة وحسبى أن أشير اليها للتدليل على مدى التطور الذى لحقنى خلال السنوات التالى الماضية بفضل زكريا أحمد .. وكثيرا ما كان الشيخ يضحك عندما أروى له بعض هذه القصص وأدلل على عدم تعلقى بالموسيقى بأننى منذ الصغر ، وطنت نفسى على أن أكون رجل سياسة لا رجل فن ، واننى كنت أعتقد أن الاستماع الى الموسيقى والغناء ترف لا يليق بمن يشتغل بالسياسة أن يضيع فيه وقته ، وقد ذكرلى الشيخ ذات مرة بما كان يفعله بعض الشبان الوطنيين ، عندما كانوا ينفرون من دراسة اللغة الانجليزية لأنهم يكرهون الانجليز الذين يحتلون بلادهم ، ومرة ثانية أراد الشيخ مداعبتى ، فروى قصة شيخ كان يعظ الناس فى المسجد وقد تأثر الجمهور بموعظته وانهمرت الدموع من أعينهم عندما ذكرهم بما فى الجنة من نعيم ، وما فى النار من عذاب ، وحدث أن خرج أحدهم ليبحث عن حماره الذى ربطه أمام باب المسجد ، فلما لم يجده عاد الى الواعظ غاضبا وهو يقول له : « ان أولئك الذين يبكون لموعظتك الحسنة قد سرقوا حمارى » فأمره الشيخ بالسكوت الى أن تنتهى الموعظة . وفى أثناء الحديث سأل الواعظ الناس : هل فيكم من لا يستسيغ الموسيقى ؟ .. فوقف شيخ طويل اللحية ، أبيض الشعر ، ليقول للواعظ انه

لا يستسيغها ولم يحدث رغم عمره الطويل أن استمع الى الموسيقى ، وكانت المفاجأة لقد قال الواعظ لصاحب الحمار : « يا سيدى هذا حمارك فخذه » .

والقصة. كما هو معروف ، لم تكن عن الموسيقى ولكنها كانت عن الحب ، وقد غير الشيخ وبدل فيها ، لكى يحرضنى على أن أهتم بالموسيقى ، وفى أكثر من مرة كان الشيخ يتحدث معى عن الموسيقى العربية وتاريخها : فقد كان حجة فى هذا المضمار وكانت معلوماته عن الموسيقى : نظريا ، وتاريخا وعملا من أدق المعلومات وأصدقها وقد أضاءت المعلومات الطريق أمامى عندما أخذت فى كتابة هذا الفصل .

• • •

قديما كان الأغريق يقدسون الفنون العقلية فينسبونها الى معبودات ويسمون كل ما له اتصال بفن بل كل تأديب نفسى وتهذيب روحى ، بموسيقى وكانت هذه المعبودات تسعا ، دعا اليونان كل واحدة منهن بموسا mosa بعد أن اشتقوها من كلمة moonbe التى معناها الاستيحاء أو الاستلهام ومن ثم ترى أن الأصل فى الكلمة moss فأخذوه وزادوا عليه ألفا فصارت موسا ومعناها الملهمة وقد ألحق بهذه الكلمة « يقى » iki للدلالة على النسبة الى الاسم الملحق به كقولهم « منجانيقى » من منجان وما الى ذلك ، فصارت موسيقى . وقد أخذ الشرق الكلمة بلا تحريف وعربها دون أن يمسها فكان أمينا..ولكن لم انفرد فن الغناء والعزف بكلمة موسيقى بأخذ اسم المعبود موسا . ذاتها ؟؟ ذلك لأنه أقدم

الفنون وجودا لنسب الى تلك الروح معنى ولفظا ، ولأنه لسان النفس ولغة الوجدان . فهو أقرب الى الالهام .. ومن ناحية أخرى فالاغريق ما كانوا يفهمون ، ويتصوورون الموسيقى فنا مستقلا عن الشعر والشعر مصدره الشعور وكان الشعراء يستصرخونها اذا استعصى الشعر على أحدهم « ياموسى الهينى » فتلقنهم فتحيى ما فى قلوبهم ، وأما قدمه فلأنه فطرى فحيث وجد الانسان فالغناء . وآياته ذلك الرلعى وبراعته وحادى العيس وحداؤه ، ولقد كان عند العرب مثل المعبود موسا موسى الشعر سموها شيطانا تحرزا وهى مرة أنثى وأخرى ذكرا [١] .

وهناك رأى يردده كثير من الناس وهو أن الموسيقى لا تزال متأخرة عن حضارة الفنون الأخرى بقرنين من الزمان ويبدو لبرنارشاميتيول فى كتابه « تاريخ الموسيقى العربية » : « أنه ليس أخطأ من هذا الرأى ولا أبعد منه عن حدود التصديق فالموسيقى باعتبارها احدى وسائل التعبير الطبيعى فى المجتمع لا يعقل أن تكون متأخرة بنحو مائتى عام عن سائر وسائل التعبير الأخرى فهى مرآة واضحة للتقاليد والأخلاق السائدة فى حياة العصور ومن ثم تكون على اتصال وثيق بغيرها من سائر الفنون ومتمشية معها ، ويمكننا أن نقطع بأن الموسيقى على غرار سائر الفنون التى لها صلة وثيقة بها كالرقص والتمثيل الايمائى والشعر والمسرح تنحدر من أصل دينى » .

---

(١) مجلة الموسيقى العدد الثالث ١٦ يونية سنة ١٩٣٥ .

« ومنذ نصف قرن درست موسيقى الشعوب الذين لم يكن لهم اتصال بالمدنية الأوروبية ، وهم يسمونها تسمية تعسفية الى حد ما بالبدائيين كزنوج افريقية والهنود الحمر بأمريكا والبولنزيين وغيرهم ، ويبدو أن نظريتنا الموسيقية تدين بأصولها الى بعض قواعد فطرية عامة يشترك فيها كافة البشر فنجد الموسيقى عند الأقدمين كما هى الحال عند البدائيين بسيطة فى أصولها تتميز ببروز قوى فى ايقاعها كما أن طابعها يتسم بالمسيحية وتتصل بطقوس معتقداتهم ، ومن جهة أخرى فالانسان عندما يقوم عادة بمجهود جسمانى ويأتى حركات مرادفة بجسمه فان هذه الجهود والحركات كثيرا ما تكون مصحوبة باخراج أصوات وهذا ما يعد أساس الأغانى المهنية التى يقصد منها تنظيم حركات الجسم وتوجيهها ليسهل بذلك تأدية العمل » .

أما الأستاذ عبد المنعم عرفة فيقول فى كتابه « تاريخ أعلام الموسيقى الشرقية » : « لقد نشأت الموسيقى فى الانسان الفطرى جنبا الى جنب مع ما نشأ فيه من العادات وما أحاط به من جمال الطبيعة فى نواحيها المتعددة . التى أثرت فى نفسه فأخذ يستعمل فمه فى الصفير ، ويده فى التصفيق ورجله — قدمه — فى النقر ، ولعلها آلات باقية حتى عصرنا هذا لو دققنا النظر فموسيقاهم تدل أبلغ دلالة على ما كان عليه الانسان الأول فى فطرته من اصطناع الموسيقى فى المناسبات المختلفة التى تستثير الشعور كالفرح والحزن والصلوات .. الخ وقد ظلت تلك الناحية الفنية مجهولة الى ما قبل التاريخ بحوالى ٨٠٠٠ سنة عرف بعدها من النقوش

ما كانت عليه تلك الموسيقى الفطرية فكانت لا تتعدى الصوتين أو الثلاثة انعدم فيها أى أثر للمدنية والصنعة لا تكلف فيها لصدورها عن عوامل الانفعالات المختلفة وهى ظواهر مرت بجميع الشعوب على اختلاف أنواعها فكانت موسيقاهم تقريبا . متشابهة فى كل الأمم عند نشأتها وذلك راجع لنشأة الانسان الفطرى الذى كانت حياته لا أثر فيها للفكر أو العقل . محدودة تسير على وتيرة واحدة ويرجع ذلك الى أن الفرد لم يكن له أثر فى حياة الجماعة بل كان منقادا لتفكير العقل الجمعى الذى سيطر فى تلك الأونة على جميع نواحى الحياة فى العشائر أو القبائل ولذا كان تفكير الجماعة متشابها لا أثر فيه للتجديد أو الابتكار » .

• • •

وقد عنيت المدنية المصرية القديمة بالموسيقى وأغراضها ومنزلة الموسيقيين وتطور الآلات الموسيقية وفى العصور التى تقدمت تاريخ الأسر صورة الناى الطويل ذى الثقوب العديدة وفى تاريخ الأسر التى بدأت حوالى ٣٤٠٠ قبل الميلاد ظهرت آلات موسيقية تنم عن الرقى كالآلات الوترية ، وآلات النفخ والآلات الايقاعية والفرق الموسيقية المنظمة الكاملة التأليف الثابتة العناصر . وقد كانت مصر ، بحق مصدر الثقافة الموسيقية فى العالم والقبس المضيء الذى استنارت به الممالك القديمة ، من فرس وآشوريين ويونان ورومان واذا كانت النهضة الموسيقية بأوربا أثرا من آثار المدنيات القديمة ، فان مصر أول من نشر هذا النور وأذاع هذا الرقى العلمى والفنى واذا كانت العلوم اليونانية تعد من أقوى

مصادر العرفان للأمة العربية ، وسائر ممالك العصور الوسطى بل العصور الحديثة فان ثقافة اليونان الموسيقية بوجه خاص ، مستفاة من الثقافة المصرية القديمة ، فقد كان فلاسفة اليونان من أمثال ارفيوس وفيثاغورس وأفلاطون ممن وضعوا أساس الموسيقى اليونانية ورياضياتها تلاميذ المصريين . وكان أفلاطون يؤثر الموسيقى المصرية على موسيقى بلاده حتى انه فى جمهوريته التى اختار لشعبها خير القوانين والنظم لم يشأ أن يسمع أهلها غير الموسيقى المصرية القديمة التى وصفها بأنها أرقى موسيقات العالم. وانها خير نموذج للموسيقى الكاملة يجتمع فيها النشاط والتعبير من الحقيقة والفضيلة والجمال وحلاوة النغم ، لذلك كله دعا اليونان الى الأخذ بها . ويقول هيرودوت المؤرخ اليونانى انه سمع بمصر أغانى وان هذه الأغانى انتقلت بعد حين الى اليونان وصارت الى أفواه الناس حيث تنتشر فى كل مكان ولا عجب ان كان العالم القديم يتغنى كله بأغانى مصر الفرعونية القوية ، فهى أغانى شعب كملت حضارته ونضجت ثقافته يؤدى أبناؤه واجبهم مخلصين أمناء ثم لا يغفلون فى الوقت نفسه نصيبهم من مسرات الحياة والتمتع بنواحى الترفيه فيها .. وكما أن المدنية الموسيقية قديمة متأصلة فى مصر الفرعونية كذلك امتدت جذور المدنية الموسيقية فى غرب آسيا الى آماد بعيدة وكانت المدنية الموسيقية للاشوريين والكنعانيين والفينيقيين مدنية عالية فياضة امتدت ظلالها على شعوب غرب آسيا قاطبة كما كانت ينبوعا صافيا ، وقبسا مضيئا أفادت منه موسيقى اليونان والرومان وغيرهما من الممالك القديمة

فى أوروبا ، وليست موسيقى الأشوريين ولا آلاتهم بالغريبة علينا ، فهى كبيرة الشبه بموسيقى مصر الفرعونية وبآلاتها فى الدولة الحديثة ، كانت المدنيتان المصرية والأسيوية على اتصال وثيق ببعضهما بحكم الجوار والاختلاط وتبادل مرافق الحياة بين شعوب تلك المواطن ، لهذا كان من المنتظر أن نجد هذا التماثل والتشابه بين موسيقاها جميعا فى قواعدها ونظرياتها وآلاتها وهو ما يقرره التاريخ وتثبته الصور والنقوش ، فلقد رأينا فى نقوش قدماء المصريين التى يرجع تاريخها الى ٢٠٠٠ ق.م متجولا أشوريا يعزف بآلة الكثارة وكانت هذه أول صورة ظهرت لتلك الآلة فى مصر كذلك نرى آلات الأشوريين تكاد تكون بعينها الآلات التى أشرنا اليها فى الموسيقى المصرية القديمة »[1] .

«وبالرغم من قدم الشعر العربى الذى يرتبط دواما بالغناء العربى ، وبالرغم من أن العربى موسيقى بطبعه وسليقته ، حيث وحشة الصحراء ، وسكونها ، وحيث يعتمد الجمل — سفينة الصحراء منذ القدم — على الحداء وبالرغم من ان بعض المدنيات العربية تمتد الى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد فقد ظل تاريخ الموسيقى العربية غامضا وكان بعض الدارسين يؤكد تأثر الموسيقى الى حد كبير بموسيقى الفرس واليونان الى أن جاءت الاكتشافات العلمية الحديثة فأكدت أن أحد نقوش أشور بانيبال (القرن السابع ق.م) يدلنا على اعجابهم بموسيقى العرب اذ يذكر أن الأسرى العرب

(١) تراثنا الموسيقى اصدرته اللجنة الموسيقية العليا للدكتور محمود الحفنى والأستاذ ابراهيم شفيق .

كانوا يقضــون وقتهم فى الغنــاء والموسيقى وهـم يشتغلون لسادتهم الأشوريين مما أطرب الأشوريين بدرجة جعلتهم يسألونهم المزيد »[1] .

ويؤكد هـ . ج فارمر فى كتابة تاريخ الموسيقى العربيــة : « ان العرب قد وصلوا فى الموسيقى الى الدرجة التى وصل اليها الساميون ، ويمكن أن نقول أن أصل كلمة الشاعر عند العرب يرجع الى شارو Sharu أى رئيس المغنين فى الأشورية وتسمى الترتيلة الأشورية شيرو Shiru وتلمح فيها كلمة شعر » وفى الحق قد تجد كلمة شدرو الأشورية . ومعناها الانشاد قرابتها مع كلمة انشاد العربية » .

« ولعبت بعض المراكز العربية الهامة كملوك الحيرة وسبأ والانباط ، دورا كبيرا فى ترقية الموســيقى ، وتطـور الآلات الموسيقية وتعددها ، وكثر الاتصال بين هذه المراكز وبين الجيران كالاغريق والفرس ، وحفـل تاريخ الجاهليــة بأخبار القيــان من بلاد العجم والروم ومصر الذين كانوا يفـدون الى المراكز العربية بآلاتهم الموسيقية حيث كان الغناء مقصورا عليهن وكان اما باللغة العربية واما بلغــة بلادهن ، ولم يكن بيت من بيوت الأشراف العرب يخلو من القيان الأجنبيات ، اللواتى دخل فى زمرتهن فيما بعد عربيات كثيرات ، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى عن حسان بن ثابت عندما يصف ليالى الجاهلية قال : « لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط

(١) شرادر Shrader المكتبة المسمارية .

— جمع بربط ، وهو العود — وخمس يغنين غناء أهل الحيرة » .
ويؤكد مؤلف العقد الفريد : « أن أصل الغناء ومعدنه كان فى عبيد أمهات القرى من بلاد العرب ظاهرا فاشيا ، وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة ، وهذه القرى مجامع أسواق العرب » . ويقول السيوطى فى المزهر : « كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الاعراس لأنه حماية لاعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم واشارة لذكرهم » ، وفى العقد الفريد والأغانى : « أن الموسيقى والغناء كانا مع العرب من الترنيمة فى المهد الى المرثاة فى اللحد » وقيل ان عدى بن ربيعة شاعر بنى تغلب لقب بمهلهل من اجل صوته[1] وان علقمة بن عبدة من شعراء المعلقات كان مغنيا[2].

ولما جاء الاسلام بتعاليمه السمحة ، اتجه أول ما اتجه الى البناء السياسى الضخم فارتدت الموسيقى فى صدر الاسلام ثوبا دينيا ناصعا كما فى قراءة القرآن الكريم وآذان الصلاة وصلاة العيدين ، ومما قيل فى صدر الاسلام عن الموسيقى ان بلالا الحبشى كان أول المؤذنين وقيل ان النبى قال له « يا بلال غن النزل » وقيل أيضا ان حمزة بن يتيم غنى مع بلال فى حضرة النبى وانه اتصل بعلى أبى سلمان الفارسى اتصالا وثيقا ، ويقال عنه انه غنى فى زواج على وفاطمة وهو شيخ جميع المغنين ، وقيل أيضا ان النبى

---

(١) الفارابى .
(٢) المصدر السابق .

صلى الله عليه وسلم قد ورد عنه أنه قال لعائشة حين أخذت لأحد الأنصار عروسه فلما عادت قال لها محمد صلى الله عليه وسلم « أهديتم الفتاة الى بعلها ؟ ، قالت عائشة : نعم ، فقال : فبعثتم معها من يغنى ؟ فقالت عائشة ، لا : قال عليه الصلاة والسلام : أوعلمتم أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل » [1] .

وقيل انه صلى الله عليه وسلم مر بجارية وهى تغنى ، وتقول : « هل على ويحكم أن لهوت من حرج ؟ » فأجابها محمد : « لا حرج ان شاء الله .. » [2] .

وكان عليه السلام — كما قيل — يمتدح صوت أبى موسى الأشعرى حين يسمعه يقرأ القرآن ويقول : « لقد أعطى مزمارا من مزامير داود » .

وفى صدر الاسلام ظهر من القينات كثير من القيان من بينهن سيرين مولاة حسان بن ثابت وهى احدى الجاريتين اللتين أهداهما المقوقس فى عام ٦٣٠ م الى النبى صلى الله عليه وسلم . وقد روى صاحب الأغانى أن عزة الميلاء تلميذة سيرين كانت تغنى من أغانى سيرين وبهذا تكون الموسيقى المصرية القديمة قد وجدت طريقها الى الجزيرة العربية منذ فجر الاسلام فى حنجرة سيرين تلميذتها فوضعت بذلك نواة الصلة الفنية بين مصر والموسيقى العربية [3] .

وكان للغناء عند العرب فى صدر الاسلام مكانة تعادل مكانة

---

(١) العقد الفريد .
(٢) نفس المصدر .
(٣) تراثنا الموسيقى .

الشعر ، فهو صورة واضحة لحياتهم الاجتماعية والسياسية والعقلية، لذلك سمع الغناء كثير من الصحابة ، والتابعين والأئمة والعباد والزهاد والعلماء .. وبالرغم من مكانة الغناء عندهم فأنه لم ينتشر آنذاك وذلك لاشتماله على أمور كان قد حرمها الشرع الاسلامى كالمباهاة والاسراف ولأنهم كانوا يحيون نفس حياتهم التى كانوا يحيونها فى الجاهلية ، ولأن الدين الاسلامى كان فى أول عصره قد شغلهم عن كل شىء سوى تفهمه ونشره ، فعلى الرغم من تخالطهم وتماسهم بأكبر الحضارتين فى عصرهم (الرومانية والفارسية) لم يكن يتهيأ لهم الأخذ والاقتباس خشية انصرافهم وابتعادهم عن رسالتهم الجديدة ، فبقى غناؤهم وموسيقاهم بالتبعية كما كانت فى الجاهلية غناء بسيطا وموسيقى بسيطة أيضا . وبتوالى السنين ونتيجة استقرارهم فى البلدين المرقيين فى المدنية (بلاد فارس والروم) وبتوفر أسباب الغنى والعيش الرغيد لم يكن بوسعهم أن يستمروا فى التزامهم بالدين كما كانوا فى عهدهم الأول ، ولم يكن بوسعهم أيضا أن يستمروا على بداوتهم مخالفين سنن الاجتماع فكان لابد لهم بعد تخالطهم من أن يأخذوا ويقتبسوا ، فلما حل العصر الأموى ظهر عليهم الاختلاف عما كانوا عليه وصعدوا فى مستولهم الموسيقى والغنائى الى حد كبير ، فنجد أن غناءهم تأثر ، وتطور وتوسع كثيرا حتى بلغ بهم الاعتناء والحرص على هذا الفن الى حد أن دخل الغناء الفارسى المدينة المنورة بواسطة المغنى المشهور (سعيد بن مسجح) وكان البلاط الأموى محط هذا الفن وموضع عنايته وكان المال يغدق على المغنين والموسيقيين اعجابا وتقديرا

وتشجيعا لهم بعد أن كان الغناء يعتبر خروجا على الدين . ولما حل العصر العباسي نرى أن حضارتهم قد توسعت الى أفق أرقى ، فنجد غناءهم وموسيقاهم قد بلغا الذروة في الرفعة والدقة والعذوبة وذلك لأنهم لم ينشغلوا بفتوحات أو حروب تذكر وانما ورثوا الأقطار عن سلفهم الأمويين ، مع الثروات الطائلة ، فوفقوا جهدهم وحصروا أوقاتهم للاشتغال في شتى العلوم والفنون ومنها الغناء والموسيقى فوصلوا الى ما وصلوا اليه كما تخبرنا بذلك مؤلفاتهم الكثيرة ، هذا مع العلم بأن أغلب خلفاء بني العباس كانوا يشجعون المغنين والموسيقيين .. ويغدقون عليهم الأموال الكثيرة .

ولقد تأثر الفقهاء من هذه الظاهرة وتدارسوها وقام بينهم الجدل فمنهم من حرم هذا الفن الجميل ومنهم من أباحه وحرم سماعه والعمل فيه وكل يستند الى بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وآثار السلف الصالح ..

وبعد سقوط الدولة العباسية تدهورت الحضارة ومعها العلوم والفنون وقتل أكثر العلماء والفنانين من قبل الفاتحين وعمت الفوضى وأصبح الاستقرار مفقودا في هذه البلاد من جراء تعدد الفاتحين لها ، ولهذا نجد الغناء والموسيقى في هذه الفترة قد تدهورا تدهورا واضحا وأصبحا مهملين كسائر الفنون الأخرى[1] »

(١) المقام العراقي للفنان الحاج هاشم محمد الرجب ·
مطبعة المعارف ببغداد ·

ويؤكد فارمر فى كتابه « تاريخ الموسيقى العربية » أن ثلاث سمات للموسيقى فى العصر الأموى هى (١) بعث الحب العربى الوثنى للموسيقى بسبب عدم اكتراث الأمويين بالاسلام (٢) تأثير سورية الذى أتى من انتقال العاصمة الى دمشق حين ساعدت الثقافة السامية الاغرقية الشمالية على تشكيل علم موسيقى جديد . (٣) تأثير فارس الملموس فى الآلات ، ومع ذلك لا نبالغ فى هذه الدوافع الخارجية فمثلا ابن خلدون يقول : « وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير ، والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها أشعارهم » ولكن هذا القول لا يحتوى الا على بعض الصدق فعامة الباحثين يعترفون باستعارة العرب الألحان الفارسية والرومية ولكن كان لديهم فى جاهليتهم العود والطنبور والمزوف والمزمار أضف الى ذلك : أن أصحاب الحوليات لم يذكروا موسيقيا روميا واحدا فى القرن الهجرى الأول وقد ولد جميع الموسيقيين الذين يزعمون أنهم فرس (أى من أصل فارسى) فى بلاد العرب أو ثقفوا فيها اللهم الا نشيطا الفارسى . ولم يأت من وراء حدود الحجاز غير أربعة من الموسيقيين الكبار . نشيط الفارسى وأبو كامل الغزيل الدمشقى وابن طنبوره اليمنى وحنين الحيرى من العراق : وكان الحجاز مهد الموسيقى مما أثار حسد الأقاليم الأخرى وتخلف العراق - وهو المركز الأصيل للثقافة الموسيقية السامية بوقوعه فى أيدى مترمتى

المسلمين الذين حرموا الموسيقى — حتى قال الحسن البصرى المتوفى فى عام ٧٢٨ وهو من أعظم فقهاء العراق « نعم العون الغناء على طاعة الله . يصل الرجل به رحمه ، ويواسى به صديقه » .

ويوضح فارمر الأدوار التى مرت بها الموسيقى أيام العباسيين فيقول : « ان العصر الذهبى يبدأ فى ٧٥٠ م وينتهى ٨٤٧ وعصر الانحطاط من عام ٨٤٧ الى ٩٤٥ وعصر السقوط من ٩٤٥ الى ١٢٥٨ » وعندما يتحدث عن العصر الذهبى يقول : « لقد تقدم فن الموسيقى فازدحم البلاط بالموسيقيين المحترفين والقيان الذى لقوا معاملة حسنة كريمة لم يسمع بمثلها ولا يزال يضرب بذكرها المثل عند العرب اليوم ، ويرجع قدر كبير من هذه الحالة الى التأثير الفارسى فقد رغب العباسيون فى التفوق على مجد الساسانيين القدماء وقد أخذ ابراهيم الموصلى ١٥٠,٠٠٠ دينار ذات مرة من الخليفة الهادى وأخذ مخارق جائزة من هارون قدرها ١٠٠,٠٠٠ دينار ومنح حكم الوادى ما يقرب من ٦٠٠,٠٠٠ درهم من هارون وابراهيم بن المهدى .. حقا كان هؤلاء الناس من كبار الفنانين ولكن الموسيقى المحترف العادى أيضا استطاع أن يجمع ثروة صغيرة من فنه فى هذه الأيام ولكن على الرغم من أن هؤلاء الموسيقيين كانوا يتمتعون بالثروة والرعاية وكان بعضهم من أمثال ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق الموصلى ومخارق وغيرهم ندماء للخليفة فقد جعلتهم حرفتهم فى مركز شاذ ، فالقانون حرفيا لا يقبل شهادتهم لأنهم يشتغلون بفن مكروه ان لم يكن محرما .

والموسيقيون لا يحضرون المحاكم ولا تقبل شهادتهم على أية حال بل انحياتهم المهنية لم تكن بالهدوء الذى تتخيله فقد كانت واجباتهم فى الغالب باهظة وثقيلة ، وذاق كثير منهم السوط والسجن المطبق على أيدى الخلفاء والأشراف ، ولكنهم كانوا أحسن من حال هايدين وموتسارت فى قصور أوروبا بعد ذلك بتسعة قرون » .

« وقد تقدمت الموسيقى العربية فى العصر الذهبى أكثر مما تقدمت فى أية حقبة أخرى ، كان هذا التقدم محليا اذ تقدم اسحاق الموصلى بصفته الموسيقى الأول فى عصره لوضع وتحديد العلم المهمل منذ عهد يونس الكاتب أيام الأمويين ، وعلى الرغم من المكانة السامية التى وصلت اليها الموسيقى والفنون الأخرى فى العصر الذهبى فقد هجر الفنانون المثل القديمة الكلاسيكية العظيمة وصارت القصيدة القديمة التى توحى بالصحراء ، أثرا من الماضى وأصبح أغلب الأدباء من الفرس ، ومن ثم ظهرت مدرسة جديدة نجد فيها الجموح والمجون واللهو المخجل وامتزجت محاولات التفكير السامى بالتشاؤم ، فوجدت العاطفة الرقيقة والرثاء الطليق والبلاغة اللامعة . ولكن لم يوجد الاعتماد العظيم على النفس ، وجدة أغنية البدوى التى لا يمكن تقليدها .. وعلى الرغم من الاضطرابات والفتن التى سادت عصر الانحطاط (٨٤٧—٩٤٥) فقد كانت الموسيقى مزدهرة فى البلاط وقد تظاهر الخليفة القاهر بالسنية وحرم الخمر وقبض على الموسيقيين والمغنيات والمخنثين ،

وأرسلهم الى البصرة والكوفة ولكنه كان فى الوقت نفسه منهمكا فى الموسيقى وكان لديه من يحب من المغنيات . كذلك كانت حال الموسيقى فى بلاط بغداد ، مركز العالم الشرقى ولكننا لا نستطيع أن نتجاهل تأثير الامارات الكثيرة المستقلة التى أصبح بلاط كل منها فى غالب الأحيان مركزا للعلم والأدب والموسيقى وكانوا أقدر على اكتشاف للمواهب المحلية فقد رعى بنوسامان فى ما وراء النهر محمد بن زكريا الرازى العالم الموسيقى ثم رعوا بعد ذلك ابن سينا وشجع الحمدانيون فى سورية الفارابى الفيلسوف والعالم الموسيقى وكان الطولونيون فى مصر أول من جعل ذلك القطر مشهورا بفنه والبلاط بثروته وفخامته فى عصر السيادة العربية وقد زوج خمارويه ابنته للخليفة وصرف فى هذا الزواج مليون دينار وبلغ تقديره للموسيقى والمغنين درجة جعلته يزين قصوره بصور مغنياته .. » .

« وكان عصر الانحطاط . عصر مجد موسيقى مثل العصر الذهبى تقريبا على الرغم من التدهور السياسى والنزاع المخرب وضعف بلاط بغداد ، فيقال عن المتوكل الذى افتتح هذا العصر ان الموسيقى والرقص وصلا فى عصره درجة من الروعة لم يصلا اليها من قبل .. » .

أما الفترة الثالثة والأخيرة من حكم العباسيين فهى فترة السقوط ٩٤٥—١٢٥٨ فقد ظلت خلافة بغداد تسرع الخطى نحو الانهيار والى جانبها شطر كبير من الثقافة التى أكسبتها الشهرة ولكن لم يتجل التدهور الفكرى والفنى الا فى العراق وفى

العاصمة أما فى الأمصار الأخرى فحاولت الامارات المستقلة أن تعوض ما يضيعه خمول بغداد .. ولم تنجح الموسيقى والآداب والعلوم عامة فى قصور الخلفاء وحدها بل فى قصور « بنى بويه » أيضا حتى لقد لاموا عز الدولة ٩٦٧—٩٧٧ ، بأنه يقضى وقتا طويلا مع الموسيقيين والسفهاء !! وكان عضد الدولة من رعاة الموسيقى .. ورعى شمس الدولة الهمذانى (٩٩٧—١٠٢١) العلامة ابن سينا العالم الموسيقى . ولم يكن المعتصم (١٢٤٢ —١٢٥٨) آخر خلفاء بغداد مجرد راع للثقافة بل عاش حياة الأدباء وعشاق الكتب ويقول مؤلف « الفخرى » انه كان يقضى كثيرا من ساعات فراغه فى الاستماع للموسيقى وكان موسيقيه الأول من أشهر الموسيقيين فى التاريخ وهو صفى الدين عبد المؤمن».

وفى أوائل عام ١٢٥٨ حوصرت مدينة السلام وهاجمها المغول وتلت ذلك أسابيع من التقتيل والسلب والحرق . ويقول ابن خلدون ان مليونا وستمائة من السكان الذين كانوا يزيدون على المليونين قتلوا أو أفنوا ومن بينهم الخليفة وجميع أفراد عائلته الذين وضع المغول أيديهم عليهم وأحرقت القصور والمساجد والمدارس ، وذبح العلماء والأساتذة والأدباء والأئمة وأحرقت أو ألقيت فى دجلة مكتبات كاملة هى ذخائر القرون » .

ولا يمكننا أن نغفل — ونحن نحاول جهد الاستطاعة تاريخ الموسيقى العربية بايجاز فى هذه المراحل الخطيرة من مراحل تطورنا الموسيقى — أثر الأندلس على الموسيقى العربية فقد انعكس ضوء ازدهار الموسيقى العربية فى الأندلس على كثير من أنحاء الدنيا وخاصة

أوروبا الغربية ولا يمكننا أن نغفل أبدا ان المستكفي (١٠٢٤—١٠٢٧) كان يفتخر بأن ابنته ولادة كانت شاعرة وموسيقية مشهورة وأن المعتمد آخر حكام بنى عباد (١٠٦٨ — ١٠٩١) كان مغنيا وعوادا حتى لقد أثار ميله العظيم للموسيقى سخط رعاياه . وأن ابنه عبد الله الرشيد كان ، موسيقيا يضرب على العود والمزهر . وقد كانت اشبيلية أعظم مركز للموسيقى والشعر وصناعة الآلات الموسيقية ، كما كانت الثقافة الموسيقية — وقتئذ — ثقافة عامة يتمتع بها عامة الشعب .. وقد كانت رعاية الحكام للموسيقى والموسيقيين واهتمامهم بكافة الفنون سببا فى ازدهار التأليف الموسيقى وابتداع أنواع جديدة من فنون الموسيقى واستحدثت الزجل والموشحات تلبية لمطالب النهضة الموسيقية وقد كانت أوروبا طوال الخمسة القرون التى ازدهر فيها الحكم العربى فى الأندلس ترسل البعوث الى الأندلس لدراسة فنون الموسيقى التى ازدهرت وترعرعت وللاستفادة من ترجمة الآثار العربية الى اللغات الأجنبية وفى مقدمتها آثار الفارابى وابن رشد ، وابن سينا ، وغيرهم وغيرهم ..

وقد استمر الغزو العربى الأدبى والفنى لأوروبا وقتا طويلا . واستمر حكام الأندلس المسيحيون يحتفظون بالموسيقيين العرب وللموسيقى العربية بالرغم من أن الأندلس قد سقطت فى أيديهم . وقد انتشرت فى جميع الممالك الأوربية الآلات الموسيقية كالعود ، والقيثار والجيتار والدف والرباب . ولم يكن انتشار هذه الآلات

العربيه وقد احتفظت بأسمائها العربية — مجرد انتشار آلات فقط بل انتشار آلات وموسيقى فى الوقت نفسه .

وفارس الموسيقى فى دولة الأندلس هو الحسن على بن نافع المعروف باسم زرياب وهو صاحب أول مدرسة أسست لتعليم الموسيقى والغناء وأساليبها وقواعدها .. وقد كان أول من اخترع الموشح وأدخل مقامات كثيرة على الموسيقى لم تكن معروفة من قبل » .

• • •

ولم يبق لنا وقد أوشك هذا الفصل التاريخى على النهاية سوى أن نشير ولو فى ايجاز الى بعض مشاهير الموسيقيين العرب وأن نتحدث عن الموسيقى العربية فى مصر .. والحديث عن الموسيقيين العرب ، طويل ، ويحتاج الى مجلدات وهو يبدأ بطويس — الطاووس الصغير — أبو عبد المنعم عيسى بن عبد الله الذائب ، وقد سمى بالذائب لكثرة ترديده البيت الآتى : —

قد براني الشوق حتى صرت من وجدى أذوب

وهو أول مغن وموسيقى فى الاسلام وقد وصف بأنه أحسن مغن فى عصره ولم يكن — كما يقول صاحب كتاب الأغانى — يصطحب غير الدف .. وقد طارده مروان بن الحكم عامل معاوية الأول على المدينة ففر الى سوريا ولم تنفعه شهرته الواسعة فمات، كمدا وحسرة ..

ومن تلاميذه (سائب خاثر) وهو من أهم دارسى الألحان الفارسية ، وقد راح ضحية ثورة أهل المدينة ضد يزيد الأول بعد

موقعة الحيرة ، ومن تلاميذ سائب خائر عزة الميلاء ، وقد سميت بهذا الاسم بسبب مشيتها وجمالها ، وقد ملأت شهرتها الآفاق حتى لقد طلب منها سعيد بن العاص والى المدينة ، أن تترك الغناء لأنه خشى الفتنة على شباب المدينة فتدخل عبد الله بن جعفر وكان من أعمدة حماة الفن ، وقيل ان مجلسها كان من أهم المجالس ، وكان يطلب السكوت ممن فى مجلسها « فمن بدر منه عمل مخل جوزى بالعصا » . وقد قال عنها طويس « انها سيدة من غنى من النساء ... »

• • •

ومن مشاهير الموسيقيين ابن محرز وقد تعلم على يد عزة وكان كثير التجول فى البلاد العربية وقد أدخل على الموسيقى العربية الايقاع المسمى بالرمل . وغناء الزوج . وكان يسمى صناجة العرب أى عازف الصنج وقيل ان غناءه ، « خلق من كل قلب فيغنى لكل انسان ما يشتهى » .

أما ابن سريج فقد وصفه بن المرئية بقوله : ما خلق الله تعالى بعد داود النبى عليه السلام أحسن صوتا من ابن سريج ولا صاغ الله عز وجل أحدا أحذق منه بالغناء » .

وكان معبد — كما يقول اسحاق الموصلى — « من أحسن الناس غناء وأجودهم صنعة : وأحسنهم خلقا وهو فحل المغنين »..

وقد قال فيه أحد الشعراء :

أجاد طويس والسريجى بعده

وماقصبات السبق الا لمعبد

و ااں مں اغانيه :

بانت سعاد وأمسى حبلها انصرما
واحتلت الغور والاجراع من اضما

احدى بلى وما هام الفؤاد بها
الا السفاة والا ذكرة حلما

والغور « الأرض المطمئنة » والأجراع «الرملة الطيبة المنبت» واضم « واد بجبل تهامة وهو الذى توجد فيه المدينة » وبلى اسم قبيلة والسفاه الطيش والذكرة ضد النسيان .

ومن آغانيه :

خليلى عوجا منكما ساعة معى
على الربع نقضى حاجة ونودع

وقولا لقلب قد ملا ، راجع الهوى
وللعين أذوى من دموعك أودعى

وقد عاش معبد حتى كبر واتقطع صوته وادركته الوفاة فى دار الوليد بن يزيد بدمشق وعندما أخرج نعشه كانت سلامة القس — جارية يزيد بن عبد الملك — آخذة بعمود السرير وهى تبكى وتقول :

قد بعمرى بت ليلى كأخى الداه الوجيع
ونجى الهم منى بات أدنى من ضجيعى
كلما أبصرت ربحا خاليا فاضت دموعى

قد خلا من سيد كا ن لنا غير مضيع
لا تلمنا ان خشعنا أو هممنا بخشوع

وسلامة القس من خيرة المغنيات وسميت كذلك لأن عبد الله ابن أبي عامر المعروف بالقس وكان من أشهر زهاد مكة المكرمة قد سمع غناءها فافتتن بها وظل يحارب هواه ويكظم حب قلبه ثم تغلب هذا الحب وافتضح أمره في شعره وصار حديث الناس .

ومن اهم المغنيات العربيات أيضا حبابة وقيل ان سبب موتها « حبة رمان شرقت بها عندما كانت في مجلس شراب فحزن عليها يزيد بن عبد الله وتعلق مدة طويلة بالجسد الميت ولم يرفع رأسه ثانية حتى مات في نفس الأسبوع الذي ماتت فيه ودفن الى جوارها » .

ولعل تاريخ الموسيقى العربية لم يعرف شخصيتين موسيقيتين دانت لهما الدنيا مثل اسحاق الموصلي وابراهيم الموصلي ، وكان ابراهيم الموصلي صاحب مدرسة موسيقية تدر عليه ٢٤ مليونا من الدراهم كل عام وكان يتقاضى منحة شهرية من البلاط وكانت داره في بغداد أشرف الدور وأوسعها ، وقد نسب اليه أكثر من ٩٠٠ لحن . وقد أعطاه الخليفة مائة وخمسين ألف دينار في يوم واحد . وقد نقل عنه أنه قال : لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا من الذهب والفضة » .

وقد طلب الخليفة هارون الرشيد — ذات مرة — الى ابراهيم الموصلي واسماعيل بن جامع ، وابن أبي العوراء أن يختاروا له

من الحان العرب كلها مائة لحن ثم أمرهم أن يختاروا عشرة منها ثم أمرهم أن يختاروا ثلاثة من العشرة .. وقد فعلوا فكانت الثلاثة لحنا لمعبد وآخر لابن سريج والثالث لابن محرز أما اسحق الموصلي فقد قال عنه الخليفة الواثق : « ما غناني اسحاق قط الا ظننت أنه قد زيد في ملكي وان اسحاق لنعمة من نعم الله التي لم يحظ بمثلها ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر مملكتي » .

وكان الخليفة المأمون قد قال عنه أيضا : « لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء بحضرتي فانه أولى به واعف وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاء » .

وقد سمح له الخليفة بارتداء الملابس السوداء التي لا يرتديها الا الفقهاء ، وكان ذلك من أقوى الأدلة على المبالغة في التكريم وعندما مات رثاه الخليفة المتوكل بقوله :

« ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته » وقد ألف اسحاق أكثر من أربعين كتابا عن « عزة الميلاء » وأغاني معبد وأخبار طويس والنغم والايقاع والقيان ، والأغاني الكبيرة وغيرها وغيرها ..

• • •

ولا يمكننا ونحن نشير اشارات عابرة ، وقصيرة الى أعلام الموسيقى أن ننسى يونس الكاتب — الكاتب الرائع والشاعر المجيد وأول من دون الغناء العربي — حيث قام بالمحاولة الأولى — كما جاء

فى الأغانى — لجمع أغانى العرب مع بعض الأخبار عن أنغامها وألحانها ومؤلفيها وملحنيها ..

وكذلك الخليل بن أحمد (٧١٨ — ٧٩١) العالم الموسيقى العظيم وصاحب كتابى النغم والايقاع .

أما أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى (٧٩٠ – ٨٧٤) فقد لقبه مواطنوه بفيلسوف العرب ، وقد كتب رسالته الكبرى « فى التأليف » كما كتب رسالة فى « ترتيب النغم » ورسالة فى « الايقاع » ورسالة فى « المدخل الى صناعة الموسيقى » و « مختصر الموسيقى » وفى « تأليف النغم » وصنعة العود . وكان لهذه الكتب أثرها الكبير لقرنين من الزمان — على الأقل بعد وفاته .

وأول من أتقن علوم الفلسفة وأتقن الموسيقى هو الفارابى « ٨٧٠ — ٩٥٠ » : صاحب الأثر الهائل فى ثقافة أوروبا فى العصور الوسطى والمعلم الثانى بعد أرسطو ، وأكبر فلاسفة المسلمين ومن كتبه الموسيقية كتاب « الموسيقى الكبير » « وكلام فى الموسيقى »، وكتاب فى « احصاء الايقاع » ، وهو فى الواقع سيد مؤلفى العرب فى الموسيقى النظرية ، ومن أمهر العازفين بالآلات الموسيقية وأعظم مصنف فى الموسيقى العربية . فى العصور الوسطى .

وقد أضاف ابن سيناء (٩٨٠—١٠٣٧) بعض فصول هامة جدا فى علم الموسيقى بوصفه أوسع معاصريه علما به حيث كان امام عصره فى الطب والموسيقى فى الشرق والغرب وكانت كتبه وكتب الفارابى أساس العلوم الموسيقية العربية وقد عالج فى كتاب

الشفاء ، وكتاب النجاة ، كل ما يتعلق بالموسيقى العربية ، بعلم ووعى وسعة اطلاع .. وموهبة ..

اما مصر فقد تأثرت الى حد كبير — منذ أيام الخلفاء الراشدين — بالموسيقى العربية التي وجدت أرضا خصبة ، للنمو والازدهار

وكانت فى منتصف القرن الثالث عشر ملتقى المدنيتين الشرقية والغربية (الأندلسية) .

وكان ولاة مصر وحكامها ، يهتمون اهتماما كبيرا بالغناء والموسيقى والموسيقيين الى أن جاءت الدولة الفاطمية (٩٧٠ — ١١٧١ م) حيث كان للموسيقى فى عهد المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين — النصيب الأوفر من الرعاية ، والعناية ، حتى الحاكم بأمر الله الذى أغلق الملاهى ، وعاقب الموسيقيين بأقصى العقوبات شجع علماء الموسيقى على التأليف ورعى ابن الهيثم — من أكبر علماء الرياضة الذين عرفتهم مصر والذى كتب رسالة هامة فى « تأثيرات اللحون الموسيقية فى النفوس الحيوانية » . وقد اختار الحاكم بأمر الله من لقب بالمسيحى — أكبر المؤرخين فى عهده — صاحب « مختار الأغانى ومعانيها » واليا من أهم ولاته وكان الظاهر يميل للملاهى ميلا مفرطا . وكان موسيقيا هاويا وناضجا وقد غرق فى حياة الرفاهية التى ارتبط فيها حبه للموسيقى والراقصات بالقسوة المتوحشة ، وقد رعى الآمر (١١٠١—١١٣١) العلامة الملحن والعالم الموسيقى أبا الصلت أمية ووهب نفسه للهو والموسيقى ، وقد وجه اللوم للظافر (١١٤٩—١١٥٤) لأنه أعطى الموسيقى من العناية ما لم يعط للحكومة والسياسة . —

وتأخرت الموسيقى فى عهد الأيوبيين والمماليك وظلت البلاد مصابة بعقم فنى — كما كانت مصابة فى الوقت ذاته بعقم علمى دام أكثر من خمسة قرون وعندما دخلت القوات الفرنسية أرض مصر فى نهاية القرن الثامن عشر بدأ صراع بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية وبدأ — مع بداية القرن ١٩ — اهتمام بالموسيقى حيث تم فى عشر سنوات من ١٨٢٤ — ١٨٣٤ — انشاء خمس مدارس موسيقية وهى مدرسة الطبول والأصوات ومدرسة الطبول بمصر ومدرسة الموسيقى فى الخانكا ومدرسة أخرى بالنخيلة ومدرسة الآلاتية بمصر الجديدة وكان أساتذة هذه المدارس من الألمان والفرنسيين منهم بوبابك وجلبرا ، وقد أغلق بعضها فيما بعد ومن الظواهر الفنية الهامة فى ذلك العهد ظهور بعض الكتب منها ما كتبه السيد محمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين وهو « سفينة الملك ونفيسة الفلك » وكذلك « تحفة الوعود بتعلم العود » و « حياة الانسان فى ترديد الألحان » و « الروضة البهية فى أوزان الألحان الموسيقية » والكتب الثلاثة الأخيرة للفنان محمد ذاكر بك (١٨٣٦—١٩٠٦) .

وقد ذكر كلوت بك فى كتابه « وصف مصر » الكثير عن أحوال الموسيقى فى مصر فى القرن التاسع عشر فقال : « يميل المصريون ميلا شديدا الى الموسيقى ولكنهم يرون أنه مما لا يليق برجل الجد والعمل أن يخصص بعض وقته لدرسها والتدرب عليها ولكنهم لميلهم الغريزى لها نراهم جميعا من رجال ونساء وأطفال يتلهون بها فى أوقات فراغهم ، أو أثناء ممارستهم لأعمالهم

وبلغ من شدة ميلهم اليها انهم يعلمون فى المدارس ترتيل الآيات القرآنية بأنغام محدودة وأوزان معينة .. والموسيقى المصرية الحالية لم تكن الا فنا من الموسيقى العربية طرأ عليه الفساد .. ويميل المصريون الى سماع الموسيقى منذ قديم الزمان وما برح هـذا الاستعداد الفطرى باقيا فيهم حتى الآن .. ولبعض الصناعات عندهم أغان خاصة بقصد من التغنى بها التعاون على انجازها بالسرعة والدقة التى اذا تغنوا بها وأنشدوها مهدت لهم القيام بمهمة جـر المراكب فى الأوقات التى لا تكون فيها الرياح .. وللسقايين من هذه الأغانى والأناشيد ما يساعدهم على ملء قربهم بالماء وحملها وتفريغها وهكذا بالنسبة لكل صنعة وحرفة .. واذا تذكرنا أن بعض شعراء الأعصر القديمة مثل ايشيل ونارسيان وافيلس قد استرسلوا فى وصف محاسن الأغانى النيلية استطعنا أن نسلم على سبيل الترجيح بأن الأغانى التى ما برح نوتية نهر النيل يتغنون بها أثناء تسييرهم السفن فيه هى عين الأغانى التى كانت شفتاه ترجعان صداها قبل بضعة ألوف من السنين . ولكل طبقة من الأمة أغانيها الخاصة بها أما أغانى طبقة العلماء ، فتـروح منها رائحة الجد والوقار والشدة لأن أغانى الغرام وأناشيد الحب والهيام لا توافق بالطبع أمزجتهم ولا تتفق مع هيبتهم وكرامة مركزهم ولدى المصريين آلات موسيقية كثيرة خاصة بهم هى من أبسط ما عرف من الآلات كالطبل البلدى والصاجات والطـار والدربكة والناى والصفارة والزمارة والربابة والقانون والعود .
والمغنون المصريون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية —

مفرد آلاتى — وتتألف منهم فى مصر طبقة محتقرة فاسدة الأخلاق، اذا جيء بهم الى أحد منازل الخاصة تقاضوا أجرا لا يتجاوز ما يعادل ثلاثة فرنكات الى أربعة فرنكات فى الليلة الواحدة. والمدعوون لسماعهم يغدقون عليهم عادة من محض كرمهم شيئا من المال يضاف الى تلك الأجرة الزهيدة وتقدم اليهم أثناء الغناء المشروبات الخمرية كالعرقى وغيره وهم يفرطون فى شربها اذ يحدث أحيانا وقد لعبت الخمر بعقولهم أن يفقدوا رشدهم ويسقطوا على الأرض .. وفى مصر مغنيات يسمون بالعوالم — مفرده عالمة — وهى كلمة أطلقها الأوروبيون على جميع الراقصات — كذا فى الأصل !! — من غير تمييز ولا استثناء مع أنه ليس فى هذا الاطلاق شيء من الصواب ويقدر المصريون كثيرا مهارة العوالم وحذقهن فى صناعتهن واعتاد نساء الأغنياء أن يأتين بهن الى داخل حرمهن ليسمعوهن أغانيهن المقترنة بدقات الطار والدربكة بينما يكون رب المنزل وأصدقاؤه من المدعوين مجتمعين بصحن الدار ليشنفوا أسماعهم بتلك الأنغام والعوالم الشهيرات بالحذق والبراعة فى صناعتهن وتدفع لهن الأجور العالية وتقدم اليهن الهدايا النفيسة.

وأغانى العوالم شديدة التشابه والتجانس لا تلبث أن يمل لهذا السبب سماعها ومن هذا الوجه لا محل للمقارنة بينهن وبين مغنياتنا اللاتى يمتزن برخامة الصوت ونعومته ورنينه ومن المغنين من لا خلاف فى جمال أصواتهم وحسنها وهم يتوخون من مقامات الصوت الجهير الكروانى وبالجملة الأصوات الحادة حتى نراهم وقد انتفخت أوداجهم لهذا الغرض وتكلفوا ما فوق طاقتهم

للمحافظة على المقامات العالية من الصوت أطول ما استطاعوا من الزمن .. » .

ولكلوت بك العذر فيما كتبه عن الموسيقى والموسيقيين المصريين فقد كتب ماكتبه فى أعقاب عهد الظلم والاظلام والتأخر والانحطاط الذى استمر أكثر من خمسة قرون من منتصف القرن الثالث عشر الى نهاية القرن الثامن عشر .. وكتب ما كتب فى وقت كان الحاكم — وهو لا يمت بأدنى صلة الى الشعب — يعطى الأهمية البالغة لكل ما هو أجنبى عن الشعب ويبذل كل ما فى وسعه لقطع كل علاقات سياسية واجتماعية واقتصادية وفنية بين أجزاء الوطن العربى ..

• • •

لقد كانت موسيقانا العربية ، عبر القرون الماضية ، نابعة من صميم حياتنا العربية وصورة حية للوطن العربى ، تؤثر فى غيرها ، ولا تتأثر بهذا الغير الا فى الحدود الضيقة التى لا تخرجها عن طبيعتها ، ولا تباعد بينها وبين الاحتفاظ بروحها وطابعها ومميزاتها وكانت حتى فى العصور المظلمة الوعاء الذى حفظ للفن العربى طابعه وروحه .

وبرغم المحاولات العديدة التى بذلت للقضاء على هذا الفن العربى الأصيل أو على الأقل لاختلاطه بالعنصر الأجنبى ، فقد ظلت الموسيقى العربية محتفظة بعروبتها ؛ لأنها فى كل العصور ؛ حتى فى العصور المظلمة ، وجدت من أبناء العروبة ، المخلصين لها حماة يدافعون عنها ويحملون راية تقدمها ، وتطورها .. وازدهارها ..

انطلاقة جديدة

استيقظت الأسرة — كعادتها كل يوم — مبكرة سعيدة ، كاملة العدد وأدى رجالها وأطفالها جميعا صلاة الصبح فى المسجد القريب من منزلهم المتواضع ، ثم اتخذوا أماكنهم من مائدة الطعام، حيث كان كل شىء معدا ، الجبن الطازج ، واللبن الساخن ، والخبز الذى يخرج من الفرن الى أفواه الآكلين ثم البيض الذى أتت به ربة البيت مباشرة من « تفقيصة الفراخ » .

ثم انتقل الرجال والأطفال بعد أن تناولوا الطعام الى مكان آخر ليتيحوا للسيدات والفتيات فرصة تناول الافطار ، فما يليق بهؤلاء أبدا أن يتناولن طعامهن فى حضرة الرجال .

وحول « البكرج » الكبير جلس الجميع يحتسون أكواب الشاى الأسود ، الذى لا يفترق عن المداد فى كثير أو قليل والذى أصبح تناوله كالصلاة فرضا على كل فرد من أفراد الأسرة ولم يكن أحمد — والد زكريا — فتى الأسرة المدلل ، وشيخها « المطمطم » الذى تفاخر به قبيلة مرزبان ، القبائل المجاورة ، لذكائه الحاد ، ولقدرته على الافتاء فى بعض مسائل الدين ، والدنيا ، والذى استطاع بذاكرته القوية ، أن يحفظ القرآن الكريم بقراءاته السبع فى أقل من عامين .. ولم يكن أحمد أو الشيخ

احمد ، كما تعودت الأسرة أن تناديه بما فيها أبوه وأمه وزوجته كعادته ، كان ساهم الفكر ، شارد اللب متوتر الأعصاب ، يبدو لأول وهلة ، وكأنه قد عاد لتوه من رحلة شاقة متعبة يتناول طعامه وكأنه غارق فى سبات عميق ، يأخذ لقمته بعد جهد جهيد ، ثم يبقيها فى يده لفترة طويلة ، ثم يرفعها الى فمه ببطء شديد ، وكأنه يرفع حملا ثقيلا لم يتعود من قبل حمله .. ولم يشترك فى الأحاديث المكررة المعادة التى تجىء على ألسنة أفراد الأسرة كل صباح ، ولم يحاول أن يتفكه فى حديثه ، كما كان يفعل دائما ولم يشاكس اخوته الصغار كما تعود أن يفعل كل مرة ، والتفت اليه جميع أفراد الأسرة ، الأب والأم والأخوة : يسألونه عما ألم به فكان يجيب فى كل مرة « مفيش حاجة » وسألوه أكثر من مرة عن رأيه فى موضوعات متعددة فكان يجيب بحركة آلية ، « مفيش مانع .. » ومرة سأله والده : « ايه هو ياشيخ أحمد اللى ما فيش فيه مانع ؟؟ .. ولم يستطع أن يجيب لأنه لم يكن قد وعى مما قيل شيئا على الاطلاق » .

وقال عمر الأخ الكبير : « لازم الشيخ زرعها قطن طلعت حطب » وقال سعد الأخ الأكبر «دا لازم ما طلعتش حاجة خالص» وكان هذا أبلغ وصف لما يعانيه الشيخ أحمد من قلق ووجوم .

وانتظرت الزوجة انصراف أفراد الأسرة : واستبقت زوجها فلعلها تستطيع أن تعرف منه سبب ما ألم به .. ولما كانت لا تجرؤ -- كغيرها من بنات قبيلتها — على أن تعبر عما يخامرها من مخاوف

فقد اكتفت بأن قالت له كما تقول دائما كل فتاة فى مثل سنها عندما تجرى الأمور على ما لا تهوى . « ربنا معاك يا شيخ أحمد » .

وقضى أحمد يوما شاقا مريرا . لا مثيل له فى حياته فهو لا يستطيع أن يحكم بأنه سعيد ، وهو لا يستطيع ان يحكم بانه تعس وهو لا يستطيع أن يصف العارض المفاجىء الذى شل احاسيسه كلها .. بانه شر كما انه لا يستطيع وصفه بأنه خير ..

وعندما يتضاءل — أو يكاد يمحى — الحاجز بين الخير والشر ، والهدوء والقلق يكون الأمر شاقا عسيرا أو متعبا للغاية ، ربما أكثر مما لو كان الأمر خيرا كله ، أو شرا كله .. وقد حاول الشيخ أحمد أن يبعد الخواطر التى استولت على كل جوارحه واحاسيسه ، فذهب الى المسجد ، بعد صلاة العصر ، وألقى درسا كان أقصر درس ألقاه فى حياته ، لأن المعانى والكلمات كانت تهرب منه ، كما يهرب المفلس الخجول من دائن ملحاح .. وحاول أيضا أن يجلس على شاطىء الترعة . ليرفه عن نفسه بمواكب الغاديات والرائحات فكانت الأفكار السوداء ، والأفكار البيضاء تتضارب فى ذهنه ..

ولم ينقذه من ذلك كله ، الا أخوه الأصغر : وقد جاء يستدعيه على عجل لأن الأعمام الكبار من شيوخ القبائل المجاورة قد اجتمعوا فى المنزل ، لبحث أمر خطير .. وخلع أحمد حذاءه وجلس فى ركن قصى من أركان المندرة وكأنما ينتظر حكما صادرا بالاعدام . لقد أسر الى والده بالرؤيا التى رآها فأفزعته ، وأجزعته فما بال أبيه ، يجمع حولها هذا المجلس الخطير ، ولم يتردد ابراهيم

خال الشيخ أحمد فى أن يقول له بعنف وعلى مسمع من الجميع..
« يا أحمد يابنى أوعى تكذب فى الحلم ، أحسن اللى بيكذب بيروح جهنم » ، وقال أحمد بعد ان أقسم بكل أولياء الله الصالحين. انه « رأى فى المنام السيدة زينب وكانت ترتدى ملابس بيضاء قد نادته من بين رفاقه ، وأعطته دونهم جميعا قنديلا منيرا » ..

واجمع مفسرو الأحلام على ضرورة سفر الشيخ الى القاهرة ، لزيارة السيدة زينب ، ولتلقى العلم هناك فى الأزهر ، اذا أمكن ..

ولم يجد والد الشيخ أحمد بدا من الموافقة فما يجوز له أن يخرج على اجماع المجلس ، ولا يجوز له أن يخالف رغبة للسيدة زينب حتى ولو كانت من أجل سفر أحب أبنائه اليه الى مكان بعيد.

وانفرجت أسارير الشيخ أحمد وابتسم لأول مرة بعد أن أنقذه قرار مجلس الأسرة من حالة القلق والضيق التى كادت تفقده أعصابه وعندما انفرد بزوجته فاطمة قالت له فى صوت حالم رقيق ، خائف خجل : « أنا مش خايفة عليك يا أحمد الا من حاجة واحدة !! » .

ولأول مرة ومنذ اليوم الأول لزواجها من الشيخ أحمد ، أى منذ عشر سنوات تنطق الزوجة باسم زوجها مجردا من كلمة شيخ .. وابتسم أحمد وربت على كتفيها برفق وحنان وهو يقول: « ما تخافيش على كلها يومين يا أرجع الفيوم تانى يا أبعت لك ونعيش سوا فى مصر » .

ولم تهدأ نفس فاطمة القلقة بالرغم من هذه الترضية وبالرغم

من هذا الوعد فقد تعودت هى وبنـات القبيلة أن تطـول فترة « اليومين » الى عامين ، وربما الى عشرة أعوام والزوجة ، كما هى على ذمة زوجها ، لا يحق لها أن تغضب ولا يحق لها أن تطلب الذهاب الى زوجها .. ولا يحق لها أيضا أن تطلب من زوجها العودة .. ألم يذهب لاكتساب لقمة العيش ؟؟ أو لزيادة موارده ؟؟ انه وحده الذى يملك حق السفر وهو وحده الذى يستطيع أن يقرر موعد العودة ؟؟

وانهى أحمد المحادثة بكلمة هادئة همس بها فى أذن الزوجة ، « ماتخافيش هو أنا لى حد غيرك يافاطمة » .

وأخفت الزوجة الارتباك عند سماعها تلك الكلمة التى لم تسمعها من قبل حتى فى ليلة زفافها ، واستجمعت قولها وألقت بالقذيفة الكبرى فى وجه الزوج : « انت عاوز الحق يا أحمد .. أنا خايفة عليك من بنات مصر » .

وضحك أحمد ، وهو يحاول أن ينزع الخوف من قلبها ثم قال لها فى رفق « يا شيخة خليكى على الله ، بنات مصر حيبصوا لنا على ايه ؟ .. دول عندهم أفنديات كتير جوى » .

● ● ●

وفى القاهرة ارتدى عمامة أنيقة ، و « كاكولة » ذات ياقة عالية ، بل وذات أكمام ضيقة طبقا لأحدث الموضات ، ونزل أول ما نزل فى لوكاندة بحى الحسين ، ثم استقل بحجرة صغيرة فى نفس الحى ، فما يجوز له أبدا أن يسكن فى مكان غير الذى يسكن فيه بلدياته ..

وقضى الشيخ شهرا كاملا ، يزور كل أضرحة أولياء الله الصالحين ويقرأ فى كل ضريح سورة الفاتحة عشرات المرات ، لقد حمله أهله وأقاربه وجيرانه ، ومعارفه واستحلفوه بكل ما هو عزيز لديه أن يقرأ لهم سورة الفاتحة فى كل من الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والامام الشافعى والامام الليثى وكل من دفن فى القاهرة وضواحيها من أولياء الله الصالحين ، وانتهت زيارة الأضرحة ، وهى زيارات واجبة ، وبدأت زيارات أخرى أكثر وجوبا من زيارات الأضرحة .. ان معه مئات من « السلامات » حملها اياه أهله وأقاربه ومعارفه وجيرانه فى الفيوم الى أهلهم وذويهم ، وأصدقائهم فى القاهرة وأكمل الشيخ دورة كاملة على هؤلاء جميعا وبدأ يفكر فى نفسه ، وبدأ يحاول أن يعرف كل شىء عن القاهرة ، غير مساجدها وأضرحتها ، ومنازل بلدياته فيها .. وكان من حسن حظه أن بعض أقاربه كانوا يعملون فى « قصر الخديوى » وأن أحدهم — زيدان أفندى — كانت له مكانة ممتازة هناك وكان هذا الأخير من عشاق عبده الحمولى وكانت لا تفوته — مهما كانت الظروف — فرصة حضور احدى حفلاته. وقد رافق الشيخ قريبه أكثر من مرة الى حفلات محمد عثمان وساكنة وألمظ والشلشمونى وغيرهم من نجوم الغناء ، وأتيحت له أكثر من مرة أن يشاهد الراقصة الأولى فى عهد اسماعيل وهى كوشوك هانم التى كانت قد اعتزلت الرقص فترة معينة ، فلما طلبها الخديو اسماعيل لترقص فى حفلات افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ رفضت ، وألح الخديو فى احضارها وألحت هى فى

الرفض ، فأرسل قوة عسكرية لاحضارها مكتوفة اليدين وأمر بالا تغادر القصر طوال حفلات الافتتاح .. وقد أتيح للشيخ أحمد أن يرى كوشوك هذه فى حفلة خاصة فلم يعجبه رقصها وان أعجبته شخصيتها القوية .. ومرة ذهب الى مولد السيدة زينب ، حيث تعودت « أم الشعور » — وهى سيدة بهلوانية — أن تمشى كل ليلة هى وشاة صغيرة على الحبل وعلى ارتفاع كبير ثم تقوم بذبح الشاة وهى فوق الحبل باتزان عجيب ، وكتب الى أبيه مرة يروى له أغرب ما مر به فى القاهرة ..

« تصور لقد رأيت رجلا أجنبيا فى احدى الحفلات العامة يقف على منصة مرتفعة وفوقه وعلى بعد بضعة أمتار ينبعث ضوء ساطع أشبه بالقمر . لقد كان ذلك الضوء حديث القاهرة بأسرها » ؟! وقد كان فعلا من الغريب انبعاث نور غير نور المصباح فى حفلة من الحفلات ، لأن الكهرباء لم تكن قد عرفت بعد فى العاصمة .

وتعود الشيخ أحمد أن يقضى ليلة الجمعة من كل أسبوع فى الطواف بأحياء العاصمة لمشاهدة المهرجين وكان يطلق عليهم وقتئذ « الجميدية » وكذلك الحواة ، وعازفى الربابة والأرغول والغجر الذين كانوا يرقصون على الحبال المشدودة ومعهم القرود والماعز.

وكان مكانه المفضل كل ليلة حديقة الأزبكية تلك التى كانت -- كما قال قريبه زيدان أفندى — الى عهد قريب جدا مملوءة بالمياه الراكدة ، والبعوض القاتل والتى تحولت بسرعة الى حديقة جميلة تشرح الصدر وتبهج العين وتضاء بمصابيح الغاز وكم من ليلة وقف مشدوها أمام تخوت الحمولى والمسلوب والمنيلاوى

ومحمد عثمان وهم ينتزعون بأصواتهم الجميلة القوية اعجاب الألوف من أبناء الشعب . لقد كان الواحد منهم — بلا ميكروفون بالطبع — قادرا على اسماع أكثر من عشرة آلاف شخص يجلسون فى حفلة واحدة .. وكان الشيخ أحمد يذهب الى الأزبكية حتى عندما لا يكون بها مطربون ليشنف أذنيه بالموسيقى التى تعزفها الفرق الموسيقية العربية والأوربية التى كانت تبعث من كافة أنحاء الحديقة وفى بعض الأحيان كان يمر بالأوبرا عندما توجد بها بعض الفرق الأجنبية على أمل أن يرى فنانة أجنبية تدخل المسرح أو تخرج منه .

وكم مرة ذهب الى شارع شبرا حيث كان خاليا الا من بضعة قصور فخمة تناثرت على هذا الجانب أو ذاك وحيث تعود القوم أن يذهبوا كل مساء للنزهة بعرباتهم التى تجرها الخيول وتسبقها وتسير وراءها ومن جانبيها مواكب الخدم والحشم يرتدون الملابس المزركشة وهم حفاة .

وبالرغم من أن هذا الشارع كان — وخاصة فى ساعات الليل المتأخرة — مقرا لقطاع الطرق . الا أن الشيخ لم يكن يهتم بذلك لأن له من قوته البدنية ومن نبوته الطويل الحماية كل الحماية .

• • •

ومضت الأيام ، وعرف الشيخ القاهرة شارعا شارعا ، وحارة حارة ، وأصبح قادرا على أن يستقل بنفسه فى نزهاته وفى جولاته. ثم تعرف الى كثير من المطربين والمطربات وتقرب اليهم وعرف الكثير عنهم ووجد منهم حرصا على الكرامة ، وحرصا على

الكبرياء ، لا وجود له عند وزراء ذلك الزمان ولا عند كبرائه .. عرف مثلا أن عبده الحمولى فى أعقاب أزمة من أزماته مع الخديوى .. قرر أن يترك الغناء ، وفرض على نفسه الا يغنى مرة واحدة بأى مبلغ من النقود واشتغل الحمولى — المطرب الأول — فى تجارة الأقمشة ولكنه خسر ما كان يملكه وهو ٢٠ ألف جنيه فى عشرين شهرا . ولم يعد الى الغناء الا بعد أن زالت الأسباب التى دعته الى اعتزاله .. وذكر له الحمولى ذات مرة حقيقة الخلاف الذى نشأ بينه وبين الخديو اسماعيل والذى خلف له انهيارا فى الأعصاب لم يفارقه طول حياته حتى لقد كان اذا اعترته نوبة المرض يسقط على الأرض يتخبط من شدة الألم : الى أن تزول النوبة .. كان الحمولى ، قد تزوج الماظ وكان قد حرم عليها الغناء واستدعاها الخديو لتغنى ذات ليلة ورفضت ألماظ كما رفض الحمولى . وأصر الخديو على احضارهما بالقوة : وأصرت الماظ والحمولى على عدم الذهاب وأرسل الخديو قوة لاحضار الماظ ومع ذلك رفضت الماظ كما رفض عبده الحمولى ثم تدخل أحد خاصة الخديو فى الأمر فنصحه بألا يتشدد لأن عبده الحمولى مصمم على ألا تغنى الماظ لحنا واحدا طالما هى فى عصمته .. وتراجع الخديو ، وانتصر الحمولى والماظ ..

وبدأ الشيخ أحمد يتصل بصغار الفنانين ، كما بدأ يتصل بكبارهم ، لأن الكبار سيذهبون والصغار — كما تعود أن يقول — سيكبرون . وهاله وأذهله ما يعانيه صغار المغنين والآلاتية ، من فقر مدقع — فهم نتيجة لقلة الأفراح وضآلة الأجر وكثرة

العدد لا يزيد أجر الواحد منهم عن خمسة عشر جنيها تعطى له ولفرقته .. وأحيانا كثيرة ، لم يكن الفنان يتناول أجرا بل كان يكتفى فى الغناء بالنقوط ، والنقوط فى الأفراح اما أن ينزل كالمطر واما الا ينزل على الاطلاق .. والغريب أن الفنانين كانوا يشكون الجوع .. فيما عدا قلة ضئيلة منهم — بينما الطائفة التى تتعامل واياهم تكسب كل شىء .. ذلك أن الفنان لم يكن ينزل الى الاتفاق مع زبائنه ، ولم يفكر فى المسائل المادية على الاطلاق .. حتى الاتفاق مع الآلاتية ونقل الفرقة من مكان الى مكان لم يكن من عمل الفنان . وانما ذلك كله من عمل طائفة « المطيباتية » التى ترتدى أفخم الملابس وتضع فى أصابعها العديد من الخواتم .. وتقوم بالاتفاق مع الزبائن .. وتسلم الأجور ودفع النفقات .. الى جانب أنها هى المسئولة مسئولية مباشرة ، عن آهات الاعجاب التى تنتشر فى كل جزء من مكان الاحتفال أثناء قيام المطرب بعمله ..

وكان هؤلاء المغنون والآلاتية يحيون الحفلات والأفراح التى تعود الناس : فقراؤهم ، وأغنياؤهم ، على اقامتها فى بعض المناسبات — والتى كانت تختلف اختلافا كبيرا عن الحفلات والأفراح التى كان يراها قبل أن يجىء الى القاهرة .

فأفراح القاهرة — عند عامة الشعب — كانت تبدأ قبل ليلة الزفاف بفترة طويلة وفى هذه الفترة يقوم « المهبجية » وهم طوائف من هواة الموسيقى أجادوا الفن وحفظوا التواشيح والبشارف باحياء ليالى موسيقية عرفت « بالفسم » وقد يجتمع فى

الليلة أكثر من فرقة تتبارى فى الانشاد . وقد اشتهرت هذه الفرق بأسماء رؤسائها مثل فرق الخضرى والقهوجى وحسين المكوجى وشحاتة الحلوانى ، وكان أحد اليونانيين المتمصرين ، واسمه كوستانتى قد تعلق بالموسيقى وأجاد غناء التواشيح والبشارف كواحد من خيرة المطربين المصريين تماما . وكانت له قهوة فى حى باب الشعرية ، انتقلت فيما بعد الى شبرا ، ولكنه كان على استعداد للاشتراك فى احياء الليالى الموسيقية التى تسبق الزفاف.

وكثيرا ما أعجب الشيخ ، بحفلات يوم الحمام حيث تمضى العروس الى الحمام فى موكب نسوى من قريباتها وصديقاتها فى أحسن ثياب وأجمل زينة يتقدمها جيش من القيان والراقصات وبعد أن تستحم العروس وتتعطر تعود الى منزلها فى زفة أخرى . وبعدئذ يذهب العريس هو الآخر فى زفة مماثلة محاطا بأصدقائه وأحبابه تسبقهم فرق المنشدين والمغنين والموسيقيين وتحضر العالمة الكبيرة فى المساء ومعها أفراد فرقتها ، وتوضع الحناء فى طاسات خاصة ويصبغ المدعون أيديهم وأرجلهم فى الحناء وكذلك يفعل العريس والعروس وسط الزغاريد وأناشيد العالمة وطقاطيقها .

وتكون الليلة التالية هى ليلة الزفاف ، وتبدأ بطبل الجمال والطبل البلدى والنقرزان وعربات الكارو التى تحمل ممثلين لمختلف الحرف والصناعات تمثيلا صحيحا وبأسلوب مضحك فى نفس الوقت ، ويتبع ذلك كله ، عربة زينب هانم وهى عربة جميلة من مخلفات القصور الملكية ، قد حليت بزخارف ذهبية يجرها أربعة جياد .. وعربة زينب هانم مخصصة للعروس ، وتتبعها عربات

المدعوات .. وتسير الزفة من منزل العروس تخترق شوارع القاهرة الى منزل العريس ، حيث يحيى الحفلة ، كبار المطربين والمطربات .. ويكون السماح فيها للجمهور ، حتى مطلع الفجر وأحيانا الى مشرق الشمس ..

أما حفلة الطهارة أو الصرافة فتمتاز بجمالها حيث يذهب أهل الطفل « المطاهر » به الى المسجد الحسينى وقد زينوه ، وجملوه ، وحملوا لوحه الاردوازى وسط شال من الكشمير .. ويتقدم عدد من جاويشية ، نقيب الأشراف ، وبعض القراء يتلون التواشيح والأذكار .. وبعد أن تتم زيارة الطفل وموكبه للمسجد الحسينى يعود الركب والأطفال يصيحون من ورائه « أنت شمس .. أنت قمر .. أنت نور .. فوق نور » وفى الوقت نفسه ترتفع من جميع الأنحاء أصوات المقرئين والمطربين قائلة : « يا عمته يا خالته ، حضرى صرافته » ، ثم يعود الجميع الى منازلهم بعد أن نال كل واحد نصيبه من الهدايا .. والنقوط ..

ولم يكن الشيخ أحمد يتدخل فى السياسة ، فقد اشترك من قبل فى الثورة العرابية جنديا ، فلما انهزمت الثورة ، كان واحدا من الشبان الذين انطووا على أنفسهم بسبب الانهيار السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى ألم بالشعب وقد هال هؤلاء الشباب أن يروا قادة الثورة وزعماءها قد تنكروا لهذه الثورة التى صنعوها كما هالهم أيضا أن موجة من اليأس قد رانت على قلوب الموظفين والتجار والزراع وكل طبقات الشعب .

ولم يحاول الشيخ أحمد أن يتدخل فى السياسة منذ اليوم

الأول الذى جاء فيه من الفيوم الى القاهرة وربما كان السبب فى انغماسه فى الملاهى والحفلات يعود الى الهزة العنيفة التى صدمته فى أعقاب هزيمة الثورة العرابية .

ومرة تدخل فى السياسة ، بسبب أمر متعلق بالرقص وبطريقة تدل على خفة الدم . ففى سنة ١٨٩٤ أصدرت الحكومة قرارا بمنع الرقص ونفذ القرار فى اليوم الذى صدر فيه ثم تدخل قناصل الدول وأحدثوا أزمة سياسية لأن الحكومة اتخذت قرارا فى مسألة خطيرة كهذه دون أن تأخذ رأيهم ..

وقطع الشيخ أحمد نبذة كتبتها الأهرام عن هذا الموضوع فى ١٨٩٤/٧/٣١ ، ووضعها ليلا على باب الأزهر .. الأزهر ذاته . وقد جاء فى هذه الكلمة ما يلى :

« منع الرقص يوما وفى الغد أعيد ويذكر حضرات القراء أننا كنا قد تنبأنا بتلك الاعادة السريعة وما ذلك الا لاستدلالنا عليها بأمرين أحدهما : أن الداخلية أصدرت أمرا بمنع الرقص دون استشارة أحد القناصل فيه ومعلومة حالة الامتيازات فى القطر ، والثانى أن عادة الأوامر عندنا لا تعيش الا صباح صدورها .. » .

ولكن كيف أتيح للشيخ أحمد أن يبقى فى القاهرة طوال هذه المدة الطويلة ينغمر فى لياليها ويعرف الكثير من أسرارها ، وأنى له بالمال الذى يمكنه من ذلك كله ؟

قال الشيخ أحمد : ان سبب ذلك كله يرجع الى الحظ ..

الحظ الذى أتاح له فرصة التوظف فى الأزهر والحظ الذى مكنه من أن يتزوج فتاة من احدى الأسر التركية التى تقيم فى

القاهرة ، والحظ الذى جعل له قريبا يعمل فى السراى ، والحظ الذى جعل له أقارب من هواة الفنون ..

لقد تعود الشيخ أحمد أن يذهب لصلاة الفجر فى مسجد الحسين كل ليلة حيث كان عبده الحمولى يؤذن لصلاة الفجر ويطيل فى الأذان كما كان الشيخ أحمد ندا يؤذن لصلاة الفجر فى مسجد السيدة زينب ويطيل فى الآذان ، وكأنما كان النجمان اللامعان يتسابقان وكان أنصار كل من القطبين يتعصبون لصاحبهم ويبالغون فى هذا التعصب .

وكان الشيخ أحمد بطبيعة الحال من أنصار الحمولى . فكان يذهب الى المسجد ، مبكرا ويحتل مكانا قريبا من القبلة يقرأ القرآن ..وأحيانا كان يعود من سهرة طويلة يسمع فيها بديعة المصرية أو هانم الاسكندرانية أو نظيرة المهندسة حيث يذهب مباشرة الى المسجد ، فسماع الأغانى ومشاهدة الرقص والسمر فى الأفراح والحفلات — فى رأيه لا يمنعه من أن يكون متدينا يأتى الى المسجد ، قبل أى انسان آخر فى كل صلاة من الصلوات الخمس .. وذات صباح قاده القدر الى ميدان فوجد رجلين يقتتلان أحدهما يرتدى ملابس مشايخ الأزهر ، والآخر يبدو عليه أنه من قطاع الطرق ، وتدخل الشيخ أحمد فى المعركة واستخدم نبوته الطويل وانتصر على قاطع الطريق انتصارا ساحقا .. وتمكن من أن يعيد للمجنى عليه ساعته ومحفظته ، وبعد أن أفاق الشيخ الجندى وهذا اسمه — شكر من أنقذه وطلب اليه أن يزوره فى مكتبه بالأزهر .. وفى الصباح كان الشيخ أحمد فى مكتب الشيخ

الجندى مسلما ومهنا ، ولكنه عاد الى بيته وقد عين موظفا بالأزهر . ولم يكتف الشيخ الجندى بتوظيفه بل زوجه من فتاة تنتمى الى احدى الأسر التركية التى يعرفها . وكتب أحمد الى أبيه يخبره بالقصة من أولها الى آخرها «قصة الوظيفة والزواج» ووافقت الأسرة كلها على الوظيفة .. ووافقت أيضا — فيما عدا زوجته فاطمة بالطبع — على الزواج ، فما دامت فاطمة لا تنجب الا بناتا ، وما دامت الأسرة كلها تريد ذكورا يحفظون تراث الأسرة ويحملون اسمها ، فقد وجب الزواج مثنى وثلاث ورباع ..

وشهد شارع الشيخ حموده بحى الحسين نموذجا طيبا لزوجين طيبين . تخيم السعادة عليهما ولم تكن هذه السعادة الكاملة تخيم على الزوجين الا عندما توشك الزوجة أن تضع مولودا جديدا .. لأن الأسرة من جدود وأعمام وأخوال وعمات وخالات كانت تريد ولدا .. ولدا لا بنتا .

وتحقق أمل الأسرة ذات مرة تحقق اسما ولم يتحقق فعلا .

أنجبت له الذكور ولكن لم تكتب لهم الحياة فكانوا يموتون فى الأسبوع الأول من حياتهم القصيرة ..

وأيقن الرجل انه أخطأ يوم هجر زوجته الأولى .. ويوم ظن — بعد أن تزوج غيرها — أنه يستطيع معاندة القدر ..

انه فى عنفوان شبابه .. وفى تمام صحته ، ولديه المال .. انه يستطيع أن يتزوج متى يريد ، ويطلق متى يريد .. ولكن الزواج شىء وانجاب الأولاد شىء آخر ..

وألقى أحمد السلاح ؟

واستسلم للقدر وعندما خرجت القابلة من غرفة الزوجة لم يكن يريد ولدا على الاطلاق ، كان يريد بنتا ، كان يريد أى شيء يخصه الله اياه .. بل كان يريد أن تجتاز زوجته محنة الوضع فى سلامة وعافية وكانت المفاجأة لقد كان القادم الجديد ولدا ..

ومضى الأسبوع الأول وصحة الطفل بخير ، وجاءت القابلة تريد منه أن يختار له اسما مناسبا فقال لها « مش تستنى شوية يا حاجة زينب يمكن ربنا يختاره بدل ما تتعب نفسنا ونسجل اسمه فى دفتر المواليد » .

وقالت الحاجة : « كل حاجة ياسيدنا الشيخ بأمر ربنا » .

وحاول الشيخ أحمد ان يتذكر اسما لم يطلقه على واحد من أبنائه الذين اختارهم الله الى جواره فلم يجد اسما واحدا .. لقد سمى من قبل : محمدا وأبا بكر ، وعثمان وعليا ، وابراهيم وخليل و .. و .. واستخار الله فى الاسم الجديد وأخرج المصحف وفتحه فاذا بالآية الكريمة التى جاءت على لسان سيدنا زكريا عليه السلام وهى قوله تعالى : « قال ربى انى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك يفعل الله ما يشاء .. » واستقر رأيه على أن يطلق على المولود الجديد اسم « زكريا » ..

من مدرسة الشعب

ومضى الشهر الأول ولم يمت الطفل ، بل لم يمت فى شهره الثانى ، أو شهره الثالث ، كما حدث بالنسبة لاخوته من قبل ، بل ومضى العام الأول والعام الثانى والعام الثالث والطفل فى صحة جيدة واخذت الطمأنينة تدخل قلب الرجل العجوز فى استحياء ، وبدا — ولم يكن قد فعل ذلك من قبل — يفكر فى مستقبل الطفل الجديد .

أرسله الى كتاب الشيخ « نكلة » القريب ، من منزله ، وطلب من الشيخ أن يسمح لابنه بالتردد على المنزل القريب من الكتاب بضع مرات ، واستغرب الشيخ نكلة هذا الطلب فان الآباء عندما يلحقون أولادهم بالكتاب ، يحذرون الشيخ أن يسمح لأولادهم بالزوغان والتردد على بيوتهم طوال اليوم ، وزادت الغرابة عندما قال الشيخ أحمد للشيخ نكلة « ان ابنى بحاجة الى أن يرضع بضع مرات فى اليوم » وقال الشيخ نكلة ان الرضاعة اذا زادت عن عامين ، سببت الغباء للطفل وانه لم يسمع من قبل عن طفل ظل يرضع حتى الرابعة من عمره .. وأصر الشيخ على تحقيق طلبه .. لأنه لا يرغب فى أن يحرم الولد من شىء يريده مهما يكن هذا الشىء .. لقد سبق هذا الطفل واحد وعشرون طفلا ، ماتوا

من قبل ، فهو يريد لهذا الطفل الحياة ولا يريد أن يموت وفى نفسه شيء .

واهتم الشيخ نكلة بالقادم الجديد ، الذى كان يحمل كل يوم كميات غير قليلة من الحلوى التركية اللذيذة ، التى تكون عادة من نصيب الشيخ نفسه ، أو من نصيب الشيخ منصور عريف الكتاب .. وأهم من ذلك كله ، فقد كان زكريا يحضر صباح كل سبت ومعه ثلاثة قروش صاغ ، يعطيها للشيخ نكلة فى الوقت الذى لم يكن فيه أجر الصبى يزيد عن تعريفة أو قرش واحد كل أسبوع .. أو كل شهر فى كثير من الحالات .

وأعجب الشيخ نكلة بالطفل ، زكريا لأنه كان سريع الفهم ، كان يقرأ بسرعة ، ويكتب بسرعة ، ويحفظ ما يراد له أن يحفظه بسرعة .. ولم يكن يضايق الشيخ نكلة منه الا أنه كان كثير الهرب كثير الشقاوة ، كثير الرغبة فى معاكسة زملائه ، وصبغ وجوههم بالحبر الأحمر الذى كان يوجد بكثرة فى الكتاب .. واكتشف زكريا أن بعض أولياء التلاميذ ، كانوا فى بعض الأحيان يهمسون فى أذن الشيخ نكلة بكلمة لم يكن يفهم لها معنى ، ثم عرف معناها فيما بعد . كانت الكلمة « تنفض لنا فروة الواد فلان يا سيدنا الشيخ » وكان معناها علقة ساخنة على « الفلقة » . ولم يكن زكريا يتصور يوما ما أنه هو نفسه سيكون ضحية تنفيض الفروة.. فلقد اشترك فى تهريب تلميذ ، كان الشيخ « نكلة » قد قرر اعطاءه علقة ، وكانت الفلقة من نصيب زكريا نفسه ..

وكان الشيخ منصور نظرا لأنه كفيف يتحسس رجلى زكريا

فى البداية ثم يضربه ، ضربا مبرحا « بالقرعة » التى هى من سعف النخيل .. وصاح زكريا من شدة الضرب ، وصرخ وبكى غير أن الشيخ منصور لم يتأثر لصراخه وبكائه ، فلم يتمالك زكريا نفسه من أن يميل على ذراع العريف ويعضها بقوة ..

وتم طرد زكريا من الكتاب .

وتم ادخاله الأزهر بعد أن أدى الامتحان ..

وكان الامتحان فى الأزهر مسألة تقليدية لا يتجاوز بضع دقائق .. يعطى بعدها الطالب شهادة النجاح وهى عبارة عن خيط مختوم بالرصاص يشده أحد خدم الأزهر حول ذراع الطالب ولا ينزعه الا الطبيب الذى يتولى فحص جسمه ، وحقنه ضد الجدرى .. وبعد هذه الحقنة يقيد طالبا فى الأزهر . وقضى الشيخ زكريا ست سنوات من السادسة الى الثانية عشرة من عمره وتعلم القراءة والكتابة وأخذ نصيبه من العلم .. كما أكمل حفظ القرآن وكانت دروس الفقه والنحو والصرف تدرس اذ ذاك فى أروقة الأزهر ..

وقد جرت عادة الأزهريين وقتئذ أن يحتفل الطلاب والمشايخ بانجاز قراءة كل كتاب من كتب التدريس وكان الاحتفال يجرى على الصورة التالية : يجلس التلاميذ فى حلقة مستديرة ، ثم ينتخب من بينهم تلميذ مشهود له باتقان تلاوة القرآن ومعروف بعذوبة صوته ، فيقرأ لهم بعض ما تيسر من القرآن وتختتم بذلك الحفلة.

وكان الشيخ زكريا هو المبرز دائما فى هذه الحفلات فكم من مرات عديدة قرأ العشر وترنم فى تلاوته فكان ينتزع اعجاب

التلاميذ والمشايخ ، وكان هو يغبط نفسه على ذلك الفخر فانصات الناس الى تلاوته واطراؤهم لصوته ، كان يسرى فى كيانه كالسحر وكان بعض أساتذته ، وزملائه الكبار يشجعونه بكلمات رقيقة تحفزه على المضى فى هوايته وكانوا يقولون له دائما على سبيل التشجيع « عال ياشيخ زكريا ، بكره ، تبقى من الفقهاء المشهورين ونجيبك فى ليلة مولد الحسين » فكان يفرح حين ينعتونه بالشيخ وحين يتنبأون له بالشهرة ..

وفى الأزهر ، كان يختال بقفطانه الشاهى وجبته الخضراء الزاهية وعمامته الأنيقة .. تماما كما كان يفعل والده .. وفى الأزهر عرف الكثير من أبناء الذوات الذين كانوا يدرسون فى الأزهر وقتئذ لا حبا فى طلب العلم ولكن رغبة فى التبرك ، ولذلك كان الكثيرون من هؤلاء يدخلون الأزهر ولا يخرجون منه على الاطلاق ..

وحفظ فى الأزهر ، القراءات السبع ، وضايقه كثيرا وكثيرا جدا رموز هذه القراءات . وحاول أكثر من مرة أن يعلن الحرب على هذه الرموز فلم يستطع .. وكان زكريا متفوقا فى دراسته وموضع ثناء أساتذته وكان فى الوقت ذاته متفوقا فى « شقاوته » وموضع غضب أساتذته .

وتعود أحد المشايخ أن يضربه فوق عمامته ، اذا ما ارتكب خطأ ، والمعروف أن دبابيس الشال الذى يوضع فوق طربوش العمامة ، تكون رءوسها الى أعلى ، وتكون أسنانها — أو ابرها الى أسفل — فقلب الشيخ الوضع وجعل ابر الدبابيس الى أعلى

ورءوسها الى أسفل فلما جاء الشيخ ليضربه بكفه على عمامته سالت الدماء من يده بسبب ابر الدبابيس .

وأكثر من مرة كان زكريا أحمد يرتدى ملابسه الرسمية ويجلس على قهوة التجارة ، حيث كان يلتقى هناك بكبار الموسيقيين والمطربين ولم يعجب زملاءه طلبة الأزهر خروج زميلهم على التقاليد فأرسلوا شكاوى الى شيخ الأزهر الذى ثار وبعث لجنة من الطلبة تطوف بالمقاهى تكتب أسماء طلبة الأزهر الذين يجلسون هناك . وطافت اللجنة بالمقاهى حتى أتت الى مقهى التجارة .

وكان الشيخ يجلس وهو بجبته وعمامته هناك يتناول عشاءه على المائدة ، ونظر أعضاء اللجنة الموقرة الى الطالب واستعاذوا بالله من الشيطان الرجيم ، وخرجوا ليكتبوا تقريرا يتهمونه بأنه يجلس فى المقهى وأنه يأكل « البسطرمة » والعياذ بالله وأحيل الشيخ الى مجلس تأديب متهما بهاتين التهمتين الخطيرتين .. وفى اليوم التالى قرأ الطلبة القرار الذى قضى بأن يحرم الشيخ زكريا من دخول الأزهر شهرا كاملا وأن يحرم أيضا من « الجراية » عاما كاملا .. جزاء وفاقا على الاثم الذى ارتكبه .

والمرة الأخيرة التى خرج فيها زكريا من الأزهر الى غير رجعة كانت فى بداية عامه الثالث عشر بالأزهر .

كان أحد المشايخ فى حجرة الدرس يفسر لطلابه حديثا جاء فيه ، من أكل منكم لحم جزور فليتوضأ .. ووجد زكريا كل حرف فى هذا الحديث مفهوما ما عدا كلمة جزور فسأل زكريا شيخه عن

معناها فقال له وهو يستنكر جهله « جزور يا ولد معناها الجمل الصغير » .

وهنا قفز الى ذهنه سؤال آخر ألقاه على شيخه :

لماذا يتوضأ الانسان يا سيدنا الشيخ بعد أكل لحم الجزور ولا يتوضأ بعد أكل لحم الجمل الكبير .. ؟؟

وكانت ثورة اتهم فيها زكريا أحمد بأنه يعترض على الأحاديث أو هكذا قيل وانهال الشيخ على زكريا سبا وشتما وضربا ..

ولم يحتمل زكريا كل هذا فسحب مقلمة من النحاس كانت أمام الشيخ وسددها الى وجهه فسال دمه ..

ودخل زكريا في ذلك اليوم القسم مقبوضا عليه بتهمة الاعتداء على شيخ في الأزهر ..

وقرر زكريا الا يدخل الأزهر وكان الأزهر قد قرر من قبل ذلك الا يدخله زكريا ..

وبدأ زكريا يفكر في مستقبله من زاوية جديدة .. لماذا لا يصبح مقرئا للقرآن الكريم ؟؟ لماذا لا يصبح مطربا .. ؟ ان صوته جميل ، كما سبق أن اعترف بذلك مشايخ الأزهر ، ثم ان الجو الذى عاش فيه بالمنزل قد ساعده على ذلك .

ألم يتعود سماع أبيه وهو يغنى دائما أغانيه القبلية العنيفة التى تجعله هو شخصيا يهتز لقوة هذه المعانى : لقد كان والده دائما يغنى ..

سهد الجبال دوم ونهش الجاف بنيابه
أهون عليك يا عين ، من اللى مفارج أحبابه

جمـل النـابة عض كتفى واشتبك نابه
والحب بلـده بعيـــدة ، واشـتبكنا به
جالوا غدا العيد ، أنا جلت العيد لأصحابه
وايش يعمل العيد للى له حبيب وبعيـد
يا طير خد منى الجـواب فى الجو واعلا به
لحد بلد الحبايب ، حـط به وارتاح ...
وان حد سألك وقالك الجواب ده منين
قـله من اللى انضـنى بالحب ولا نابه

وسأل والده ذات مرة عن معنى الجاف فقال له انه حيـوان صحراوى ، أما جمل النابة فهو جمل الفراق ..

ولم يكن والده هو الذى أثره فيه فقط بل ان والدته هى الأخرى قد أثرت فيه من زوايا كثيرة فهى انسـانة رقيقـة تحب الطرب ولكنها لا تقدر على الغناء أمام زوجها . انها تغنى بين حين وآخر أغانيها التركية الجميلة المشجية ، وان صوتها ليتسلل الى قلب زكريا وهى تغنى حتى ليتفطر قلبه بسبب هذا الحزن الذى تحتوى عليه أغانى والدته — انه لا يعرف من اللغة التركية حرفا واحدا ولكنه يتأثر كل التأثر بصوت أمه الحزين وأدائها المشجى .

وتساءل أكثر من مرة هل هناك من عيب اذا ما اشتغل مقرئا أو مطربا ؟ ان والده يذهب كل يوم الى أصدقائه المقرئين ، والى أصدقائه المطربين فيستمع اليهم .. ويسمر واياهم وانه ليذهب مع أبيه الى حفلات الطرب والقراءة أكثر من مرة ، ووالده لا يجد غضاضة فى بقائه فى هذه الحفلات .. لماذا ينتظر أن يذهب مع أبيه

الى المقرئين .. ؟! والمطربين .. ؟! لماذا لا يذهب وحده الى حفلات الطـرب ..

وبدأ يدخل كل سرادق فيه غناء ، صحيح انه ليس بيده تذاكر دعوة وحفلات الأفراح دائما بتذاكر ؟ لكنه صغير فليتسلل من تحت قماش السرادق .. وليجلس تحت « الدكة » التى يجلس فوقها المطرب والموسيقيون .. ولكن هذه الطريقة تؤلمه كثيرا انهم يبصقون كثيرا ، ويجىء البصاق على وجهه ويديه وجسمه .. وانهم ليقذفون بأعقاب السجائر فتلتقفها ملابسه .. ؟! وانهم وخاصة صغار المطربين والآلاتية ليذهبون الى الحفلات ومعهم زجاجات الشراب يخفونها داخل ملابسهم الفضفاضة . ويشربونها خلسة ويرمون الفوارغ تحت التخت .. هذه الفوارغ كثيرا ما آلمته لأنها كانت تنزل على رأسه .. ولكنه يحب الفن .

ومن أجل الورد يجب أن يتحمل الشوك . وتحمل زكريا الأشواك بصبر وجلد . بل تأهب ، ليتحمل أكثر من الأشواك ..

ووقع فى يده كتاب اسمه « مفرح الجنس اللطيف وصور مشاهير الراقصين » وكان قد جمعه محمود حمدى البولاقى الآلاتى ، وأتم طبعه عام ١٩٠٤ ، ووجد زكريا نفسه لا ينام دون أن يقرأ هذا الكتاب كله ، ويحفظ بعض ما فيه .. وبدأ يمتحن ذاكرته التى ظهر أنها من نوع خاص .. انه يسمع الأغنية للمرة الأولى ، فتعلق بذهنه فورا ولا تطير أبدا .. ويسمع الدرس فى الجغرافيا أو التاريخ أو الفقه ، فلا يعلق بذهنه منه شىء .. ويقرأ

الأغنية أو الموال مرة واحدة .. لمم مرة واحدة فاذا بذاكرته تكون كالاسطوانة ، تنقلها كما هى ، بدون زيادة أو نقص ، وكثيرا ما كان يجلس الساعات تلو الساعات يحفظ صفحة واحدة . فلا يستطيع ، لأن السطر الثانى ينسيه السطر الأول والثالث ينسيه السطر الثانى وهكذا ، وكان غريبا من زكريا وهو الذى لم يتجاوز بعد الثالثة عشرة من عمره ، طريقة اخفائه للكتب الجديدة التى يشتريها فقد كان يضع لها أغلفة دينية أو لغوية . وقد وضع غلاف الفية ابن مالك على كتاب مفرح الجنس اللطيف . وعندما سأله والده ذات ليلة عما يستذكر قال له « فى الفية ابن مالك .. حتى شوف يابابا ؟؟ ولم يكلف الوالد نفسه عناء البحث عن الفية ابن مالك ، والا لاكتشف أن ابنه لم يكن يستذكر الألفية وانما كان يحفظ أغانى الحب والغرام ، وهى التى لا مجال لمقارنتها بأغانى اليوم ..

كانت افتتاحية الكتاب الذى كان له الأثر الأول فى نفس زكريا « الحمد لله ، الكريم الحليم ، غافر الزلات الرءوف الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد فهذا مفرح الجنس اللطيف ، فى أغانى الستات خاصة مصرى وشامى » ومن نماذج هذه الأغانى :

الحنة يا الحنة يا قطر النـــدى

شباك حبيبى جلاب الهـــوى

يا خوف من أمك لا تدور عليـك

لا حطك فى شـمرى واضفر عليك

وان جاتنى امك وتسأل عليك

لا حطك فى حاجبى واتخطط عليك

يا خوفى من امك لا تسأل عليك

لا حطك فى عينى واتكحل عليك

وان جاتنى امك وتسأل عليك

لا حطك فى بقى واطبق عليك

وان .. الخ أجزاء الجسم ما ظهر منه وما خفى .. ؟؟

• • •

وكان الكتاب يحتوى على صور للست شفيقة القبطية ، والست نظيرة المهندسة الاسكندرانية والست بديعة المصرية والست تحية الاسكندرانية وغيرهن وغيرهن من شهيرات الراقصات فى البلاد وقتئذ ..

وقد استطاع زكريا أن يحفظ الكتاب كله فى ثلاث ليال فقط .. وبدأ يبحث عن كتب أخرى لولا أن والده قد اكتشف الخديعة ، وعرف ما وراء هذه الكتب الكريهة وكانت علقة .. علقة جعلته لا يستطيع أن يخرج من البيت ثلاثة أيام ..

وكان اصرارا عجيبا من والد زكريا على اجباره على ادخاله مدرسة .. أى مدرسة لأنه لا يريد أن يكون ابنه « شوارعيا » .

فألحقه بمدرسة ماهر باشا فى جهة القلعة وكان الطلبة يرتدون فى هذه المدرسة العامة .. وذهب الى المدرسة حيث قضى بها يوما واحدا ثم عاد الى منزله فى نهاية هذا اليوم مطرودا .

وكان سبب خروجه منها افراطه فى الغناء سواء فى الفصل أو

فى وقت الفسحة أو فى وقت الغداء وكان تلاميذها يتجمعون حوله ويستمعون الى ما يغنيه .. واستشاط الناظر غضبا لأنه عطل الدراسة ولم يسعه الا أن استدعى والده وكلفه باستصحاب ابنه الى خارج المدرسة لأن ابنه — كما قال الناظر — ولد مجنون بالغناء ولا يصلح للتعليم مطلقا وأفضل له أن يلحقه بتخت من أن يلحقه بمدرسة .

وكان ذلك صدمة عنيفة لوالده زادت من حنقه على ابنه فضربه علقة لا يمكن نسيانها .. وكانت كل عصا تهبط على جسمه يشفعها بطلب اقرار منه ألا يعود الى الغناء مرة أخرى واضطر الابن الى الاعتراف فكف والده عن الضرب ثم شفع له عند الناظر، راجيا منه أن يقبله فى المدرسة مرة ثانية .

وعاد زكريا الى مدرسته ولكنه عاد الى الغناء مرة أخرى وتكررت عملية الطرد .. كما تكررت عملية الضرب .. وكان زكريا يقول لأبيه دائما : « أعمل ايه .. المدرسين بتوعى هم اللى عاوزينى أغنى » .. فاذا ما سأل والده المدرسين انكروا ذلك .. وعندما سأل والد زكريا ابنه عن تعليله لهذا الانكار قال : « أصلهم خايفين من الناظر » .

وانتقل زكريا الى مدرسة أخرى فى شارع الحمزاوى اسمها مدرسة الحيالى يوسف وحدث له فيها ما حدث فى المدرسة الأولى من طرد ، وضرب بسبب الغناء .. ولحتار الوالد ماذا يفعل فى ابنه هذا الذى لا يكف عن الغناء .

وطلق زكريا — للمرة الأولى — العمامة والجبة والقفطان .

ولبس الطربوش والبدلة والتحق بمدرسة خليل أغا .. غير أن مادة الغناء كانت قد تأصلت فى نفسه فأبى الا الاستمرار فى الغناء وكان أن فصل من مدرسة خليل أغا نهائيا بسبب اصراره على الغناء ..

وكان الفونوغراف قد اخترع فى ذلك الحين فأصبح شغله الشاغل وتسليته المفضلة فلذا توفر له بعض المال سعى الى رجل يتجول فى الشارع فنفحه بضعة مليمات ليسمع المرحوم سليمان أبو داود المطرب يشجيه بدور « أنا الغرام أنت » ، « أو فى البعد ياما كنت أنوح » ، « وجددى ياتفس حظك » ، وغيرها من الأدوار التى يحفظها الشيخ عند سماعها للمرة الأولى والتى كانت تبعث فى نفسه البهجة فى كل مرة يدور فيها الفونوغراف وفى أحيان كثيرة كان يدور فى الشوارع مع صاحب الفونوغراف ، ليسمع أكبر قدر من الأغانى حتى لقد عرفه صاحب الفونوغراف وأعجب به وصار يسمعه بعض الأغانى مجانا عندما لا يزدحم حوله وحول فونغرافه الزبائن ..

• • •

وازدادت قسوة الشيخ أحمد على ابنه زكريا بسبب فشله الذريع فى الدراسة وكانت هذه القسوة تستهدف المصلحة غير أن زكريا أساء تأويلها بسبب قلة ادراكه وكرهه الحياة .. وتبرم زكريا وخرج من المنزل لا يلوى على شىء وهام على وجهه فى الشوارع والطرقات ذات ليلة .. ولما كان لا يملك شيئا يمكن أن يدفعه لكراء مبيت ليلة فى فندق متواضع ، أو يمكن أن يشترى رغيفا يقتات به فقد مضى من الليل أكثره وهو مجهد الأعصاب

من آثر تجواله الطويل فى شوارع العاصمة وأزقتها .. وما زال يمشى دون هدف باحثا عن مأوى .. الى أن وجد منزلا قديما قد انفرج بابه قليلا فدفعه .. ودخل حيث قضى بقية ليلته على هذه الصورة وتكرر مبيته هكذا ثلاث ليال أخر ، شعر بعدها بالتعب والألم فعن له خاطر راى تنفيذه على الفور وهو ان يذهب الى أقاربه .. ويقضى عند كل واحد منهم ليلة ، ثم يبرح البيت فى الصباح الباكر حتى لا يدهمه أبوه فى احدى جولاته باحثا عنه ، وبالرغم من تشرده هذا فقد كان يتنسم أخبار الأفراح والليالى الملاح وكانت كثيرة فى ذلك الوقت فكان يغشاها حيث يقضى سهرته ويستمتع بالسمع الى الأغانى والفكاهات .

وكانت تلك الأيام أقسى ما مر بزكريا أحمد فضيق ذات يده ، وابتعاده عن أبيه وأمه .. سببا له أزمة نفسية قاسية وبالرغم من تلك الأزمة فقد متع نفسه بما تحب أن تتمتع به من حفلات وسهرات ..

وكانت الفكرة التى تقض مضجعه قلق والده ووالدته عليه وبحثهما عنه فى كل مكان ...

وفى ذات يوم بينما كان زكريا فى طريقه يتسكع فى أحد الشوارع قابل والده وجها لوجه ..

وكانت مفاجأة لزكريا لم يكن يتوقعها وابتهج الشيخ أحمد وصاح صيحة الفرح وراح يقبل ابنه قبلات حارة ثم اتجه به الى المنزل ...

وخشى زكريا أن يضربه والده اذا ما عاد به الى المنزل وظن أن

كل ما فعله فى الطريق من ترحيب وقبلات كان بمثابة اغراء له واستدراج للذهاب الى البيت ليستطيع الانتقام منه وانتهز فرصة ازدحام الطريق وأفلت من يد والده ، وزاغ بين المارة .. وتوجه اول ما اتجه الى ذلك المنزل المهجور ليتوارى فيه .. ولما كان متعبا فقد قرر ألا يبارح مكانه على الاطلاق حتى لا يقع فى قبضة أبيه مرة أخرى وجلس فى ركن من أركان المنزل المهجور حزينا مهموما يفكر فيما آلت اليه حالته التعسة وكيف أصبح مشردا فى الشوارع والطرقات ...

ورأى أن حالته تزداد كل يوم سوءا على سوء .. ففكر مرة أخرى فى والده ووالدته والحزن الذى سيطر عليهما بعد غيابه وهربه ، وبينما هو يفكر فى ذلك كله اذ به يرى شبحا يظهر فجأة أمامه .

وصرخ زكريا بكل ما يملك من قوة ووضع يديه على عينيه حتى يتجنب رؤية الشبح .

وفوجىء الشبح القادم بصراخ زكريا أحمد ، وخشى أن تجمع المارة حوله فتقدم من زكريا وخاطبه بلهجة ودية للغاية .. وقال له : « انه انسان غريب لا مأوى له ، يريد أن ينام فى هذا المكان » .. ولم يطمئن زكريا أحمد لهذا الكلام وأحس بأن فى الأمر مؤامرة ، لخطفه والذهاب به الى بيت والده ، وحاول الهرب ولكنه لم يستطع لأن الشبح اعترض طريقه .. وراح زكريا يقسم بأغلظ الايمان أنه لا يملك شيئا ، والشبح يؤكد له ، انه لا يريد مالا وانما يريد أن يستأنس بوجوده فى هذا المكان الموحش ، فقال

له زكريا : « انت عاوز تضحك على هو معقول واحد كبير زيك ، يخاف من مكان زى ده .. دانا ياللى لسه صغير ؛ نمت فيه كذا ليلة » وفجأة سكت زكريا عن الكلام واستجمع شجاعته الخائرة . واندفع الى الشارع يعدو بمنتهى السرعة وكان كلما خطا خطوة الى الأمام خيل اليه أن الشبح يسبقه بخطوتين . فجمع أطراف جلبابه ووضعه فى فمه ثم خلع حذاءه ، وتركه فى الشارع وانطلق يعدو كالريح .

وفجأة دهمته سيارة مسرعة كانت تسير فى الشارع وألقته على الأرض ولم يعد زكريا يعى شيئا مما حوله ..

وأفاق فى صبيحة اليوم التالى ، ليجد نفسه فى بيته ، وفى فراشه وضمادات كثيرة تغطى رأسه ، ومن حوله والده ووالدته وبعض أهله ينظرون اليه نظرات كلها عطف وحب وحنان ..

وانتهز زكريا أحمد فرصة اصابته فى حادثة السيارة ، واشفاق أهله عليه ، فصارح والده بكل ما تنطوى عليه نفسه من أحاسيس.. قال لوالده انى لا اريد ان ادخل اية مدرسة .. اريد أن أكون مقرئا للقرآن .. أريد أن أكون منشدا للسيرة النبوية .. ورفض الوالد الطلب .. بل رفض مناقشة هذا الطلب وأعلن الأحكام العرفية فى البيت ثم أغضب زوجته — أم زكريا — وأخرجها من البيت لعطفها على زكريا ، وتزوج بأخرى ..

واستطاعت الزوجة الجديدة أن تجعل البيت جحيما لا يطاق ونجحت فى أن تزيد حقد الوالد على ولده فحال بينه وبين دخول مليم واحد الى جيبه .. وأصدر تعليماته الى أقاربه ومعارفه

بضرورة مخاصمة زكريا وعدم مد يد المعونة اليه حتى ولو كانت المعونة ثمنا لدواء ضرورى أو ثمنا لرغيف هو فى أشد الحاجة اليه .. ثم رجا أصدقاءه من هواة الفن ومحترفيه أن يوصدوا أبوابهم فى وجه زكريا وأن يحولوا بينهم وبينه ، فلا يسمحون له بحضور حفلات أو ندوات أو اجتماعات وقال للجميع بصريح العبارة « اللى عاوز يخدمنى يقفل بابه فى وش ابنى .. ابنى اللى هو مش ابنى .. » .

ولكن زكريا لم يتراجع ولم يرفع الراية البيضاء ، ولم يفكر مجرد تفكير فى أن يهرب من الميدان الذى اختاره ، واذا كانت الأبواب قد أغلقت دونه فقد بقيت النوافذ ، واذا كانت النوافذ قد أغلقت فان الأمل ما زال قائما فى عقب الباب .

واذا كان هناك من سيستجيب لدعوة الشيخ أحمد . فان هناك من سيرفض الاستجابة لها ، خوفا على الطفل من الجوع ، والتشرد — كما أن هناك من سيأخذ بيد الابن الصغير ، الذى لا حول له ولا قوة والذى لم يقترف اثما أو ذنبا .. ؟؟

وعاد زكريا يفكر فى زاوية جديدة · لماذا لا يعقد صلحا مع والده وذهب اليه ، وتحدث معه ، كما يتحدث الصديق الى صديقه .. قال لوالده : لقد بذلت المستحيل من أجل أن تخلق منى عالما فى الأزهر ، سلطت على أساتذتى .. حاصرتنى فى البيت .. وفى الشارع .. حاولت أن تحول بينى وبين الاماكن التى تعودت ان أغشاها كل ليلة ، بذلت لى الوعود المغرية ، قدمت لى المال الوفير ولم ينفع ذلك كله .. أهنتنى واحتقرتنى وضربتنى عشرات المرات

ضربا مبرحا فى البيت وفى الشارع .. أمام زملائى من طلبة الأزهر ومن طلبة مدرسة خليل أغا .. وأمام جيرانى ، ورفاقى فى الحارة وأقاربى .. ولم ينفع ذلك كله ، وأجبرتنى على أن أجوع وأتعرى، وأقضى أياما وليالى فى العراء ، بلا غذاء ولا كساء ولا غطاء .. ومع ذلك كله لم أضعف ، ولن أضعف . ولم أتراجع ، ولن أتراجع .. ولن أتخلى أبدا — مهما بذلت — عن تلبية نداء أحس به يهتف دواما فى قلبى .. فى كل وقت ، وفى كل حين .. انتى لا أحب أن أعصى لك أمرا .. ولكننى أريد أن أكون فنانا ..

وقال الأب ، وقلبه يتقطع أسى وحسرة على ابنه الذى ينحرف فى طريق وعر لا أمان فيه : « يا ابنى ان الفن لا يوكل عيشا .. وعبده الحامولى سلطان الطرب مات ولم يترك لولده مايتعلم به ، فكفله أحد أصدقائه .. ومحمد عثمان سيد من غنى وسيد من لحن، وسيد من أحيا حفلات الطرب . لم يجد أهله فى بيته ساعة موته تكاليف الجنازة التى ستنقله الى دنيا الخلود .. ومحمد سالم العجوز عاش أكثر من مائة عام ، الدنيا تصفق له ، والذهب يجرى بين يديه ، ولم يتمكن فى بعض الاحيان من أن يمتلك ثمن الدواء وقد لايتجاوز هذا الثمن بضعة قروش .. »

وقال الشيخ أحمد صقر مرزبان : « ان الحاج أحمد عبد الموجود تاجر اللب فى الحمزاوى قد خلف من وراءه تراليس اللب مالم يخلفه عبده الحامولى ، والمظ ، ومحمد عثمان ومحمد سالم العجوز ، والشلشمونى ومحمد السبع مجتمعين .. والمعلم حسونة المربجى ، الذى لا يملك الا عربة حنطور واحدة

يملك ما لا يملكه أمين عطالله ، وسلامة حجازى ، والقرداحى وعشرات من أمثالهم ممن يتربعون على عرش المسرح والغناء .. » .

وقال زكريا . « ان المطرب عبده الحامولى . قد تغلب بفنه : على الخديوى اسماعيل بسلطانه ، والمظ لم تكن تسير فى الشارع الا بموكب رسمى ، أكبر وأضخم من موكب زوجة الخديوى وساكنة — أستاذة المظ — كانت الأعيرة النارية تطلق لها فى كل مكان .. كما ان المحطات تزين ابتهاجا بمقدمها » ..

وعندما قال له والده : « بقى يا بنى موش عيب تبقى من عيلة مرزبان ، وتطلع من بتوع ياليل ياعين » .. واحتد زكريا لأول مرة على والده وقال له :

« مش أحسن من اللى بيعيشوا مالهومش شغلة ولا مشغلة »
وانقطعت المفاوضات بين زكريا أحمد وبين أبيه فترة طويلة من الوقت .

ثم تجددت المفاوضات مرة أخرى .

وأرسل زكريا وفدا لمقابلة والده وكان لكل واحد من أعضاء الوفد مكانة ممتازة لديه ..

وبذل الوسطاء جهدا كبيرا فى سبيل اقناع والده وقالوا له ان القراءة مهنة محترمة وان السهر خارج المنزل يكسب زكريا خبرة فنية ، وستعود اذنه على السماع ، وسيساهم فى توسيع مداركه..

فرفض الشيخ أن يناقش الموضوع .. وكرر الوسطاء الرجاء .. وكرر الشيخ أحمد الرفض ..

ثم ذهب الوفد مرة أخرى وقد قرر أعضاؤه مصارحة الشيخ

بكل شيء .. ان مصلحة زكريا أن يحقق الشيء الذى يريده وخير للشيخ أحمد أن يعمل ابنه مقرئا من أن يشتغل زمارا أو طبالا .. وخير لهما أن يأخذ الوالد بيد ابنه .. من أن يتركه يتصرف كما يملى عليه عقله الطائش « واذا كبر ابنك خاويه » ، واذا ، واذا .. »

وبدا على الشيخ أنه اقتنع .. وكان الاتفاق ..

• • • •

وانطلق زكريا أحمـــــد بكل ما فى قـوته ، يغشى الأندية والمجتمعات ، والصالونات ، ويتردد على صالات الرقص والغناء ، والمقاهى ، والملاهى ، ويتنسم كل مكان يشم فيه رائحة الفن كما أخذ يحضر الندوات ، والاحتفالات والأفراح ، وكان فى هـذه الفترة — السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى — مشغوفا بأن يعرف كل شيء .. ويقرأ كل شيء ، ويحرص على أن يتعرف على الكثيرين ، ويتقرب — مع احتفاظه بكرامته — الى الكثيرين، ويستفيد قدر استطاعته من تجارب الكثيرين فكانت هذه الفترة بحق — فترة نضج جسمانى وعقلى وفنى — واستفاد زكريا كثيرا من ظروف البلاد الاجتماعية والفنية والسياسية ، اذ كانت الحركة الوطنية التى بعثها مصطفى كامل فى مطلع القرن العشرين قد بدأت تؤتى ثمارها وكان انتصار الشعب فى كل المعارك التى خاضها ضد قوات الاحتلال والفضيحة الكبرى التى لحقت السياسة الاستعمارية البريطانية بسبب مأساة دنشواى كما كانت اقالة اللورد كرومر الحاكم البريطانى لمصر وطرده شر طردة وانكشاف أمر من تولى الأمر مكانه ومن والاه ، ووالى السيـاســة الاســتعمارية مـن

السياسيين ، كان ذلك كله من أهم أسباب انطلاق الشعب فى كثير من الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية ، وكانت وفاة مصطفى كامل ، والثورة الوطنية التى أعقبتها ، والقاء أعباء الزعامة الوطنية على كتفى فريد ، وانشاء نقابات العمال ومدارس الشعب الليلية ومظاهرات الشعب من أجل الدستور ، وانشاء الجامعة ونادى المدارس العليا ، ورفض مد امتياز قناة السويس ، ثم كانت محاكمات الصحف الوطنية ، ومحاكمة الشاعر على الغاياتى ، وسجنه ، وسجن محمد فريد ، وعبد العزيز جاويش وغيرهم من أقطاب الوطنية واحتفاء الشعب بالمناسبات الوطنية والدينية والفنية ، كل ذلك كان له آثاره الفعلية فى نهضة الفنون والآداب التى بدأت تأخذ طابعا جديدا مع بداية القرن العشرين ..

وكانت نهضة التمثيل أبرز صور الانطلاقة الفنية .. حيث تعددت المسارح كما تعددت الفرق الفنية الكبرى التى أنشأها سليم النقاش ، ويوسف خياط وسليمان القرداحى والقبانى واسكندر فرح وسلامة حجازى وجورج أبيض .. ثم الفرق الفنية الصغيرة ، مثل الجوق الدمشقى لنقولا مصابنى وكان يقدم المسرحيات الهزلية والغناء والرقص السورى ، وشركة التمثيل الأدبى لسليم وأمين عطاالله ، والجوق السورى الجديد ومجتمع التمثيل العربى وفرقة عزيز عيد والجوق المصرى العربى للشيخ أحمد الشامى .. والى جانب ذلك كله نشاط فنى رائع للهواة الذين ألفوا فرقا عديدة كان لها أثر كبير ، على نهضة الفن مثل جمعية محبى التمثيل ، ومحفل الهلال الأدبى والمجتمع الأخوى

التمثيلى ، وجمعية ترقى التمثيل العربى ، وجمعية التمثيل الوطنى، ثم جمعية أنصار التمثيل .. وكان غاية الجمعية الأخيرة ارساء قواعد الفن الصحيح ، وتثقيف الشعب عن طريق المسرحيات الموضوعة التى تدور حول فكرة خاصة تهم الجمهور .. وتعبر عن بعض أحاسيسه أو تحل طرفا من مشكلاته ، وكان أول اجتماع .. للجمعية فى أواخر عام ١٩١٢ .. وكان لبعض المدارس ، والجمعيات والنوادى فرقها التمثيلية التى لعبت دورا لا بأس به فى ميدان المسرح . وقد تجرأ بعض طلبة الأزهر ، فتقدموا ببعض التمثيليات وكانت نهضة أخرى للنقد الفنى الذى بدأ يلعب دوره ، فمثلا كتب خليل زينة صاحب مجلة المصور القديمة (٢ مارس ١٩٠٦) :

« لعمر الحق ان التمثيل العربى مصاب بآفات عديدة لكن أشدها الصحافة والممثل الذى تقول له وأنت حامل القلم والنائب فى القول عن الرأى العام ان التمثيل قد نال منك ما تشتهى يحسب نفسه قد بلغ أقصى درجات الكمال فيقف عند هذا الحد واذا لم يكن بارعا فى فنه فان القائل له قبل ذلك القول قد أضر به الى أبعد مما يتصوره العقل وذلك كان شأن الشيخ سلامة حجازى فان الصحف تحببت اليه فخدعته وأضرت به من حيث شاءت له أن تنفعه وما عدا ذلك فانه يظهر أيضا الشيخ الكل فى كل آن على رخامة صوته وذلك . فى عرفنا مما أضر بفن التمثيل وأوقف سيره .. » .

وكتب محمد كامل البندارى — سفيرنا السابق فى موسكو — بالجريدة فى أبريل ١٩١٣ ، مقالا عن « رواية مصر الجديدة » ... قال فيه : « مصر الجديدة لمؤلفها فرح انطون ، هى أول رواية

انتزعت من حالتنا الحاضرة ومثلت على مسرحنا الحديث ، فقد مكثنا زمنا طويلا ونحن لا نشاهد الا الروايات المنقولة ، عن الكتاب الغربيين نقلا لفظيا فى معظمها وكانت نتيجتها أن بقيت تلك الروايات رغم ترجمتها الى العربية ، غريبة صرفة لا تتآلف مع أذواقنا الشرقية المصرية ولا تنال من نفوسنا لأنها انما وضعت لجمهور يختلف عنا فى الأفكار والأخلاق والعادات والميول النفسية، فكان لجمهورنا العذر اذا لم يقبل على مشاهدتها ، وبالتالى انصرف عن التمثيل .. أجل تلك هى حال معظم الروايات التى ترجمت وقد قابلها الجمهور بفتور واعراض » .. وقد لخص الأستاذ البندارى الرواية وأبدى ملاحظاته ونقده عليها ورد فرح أنطون بقوله : « لخص حضرة بندارى أفندى رواية مصر الجديدة وتكلم عنها من جهة الفن ، ونقدها نقدا يدل على رغبته فى الانصاف ولكن بندارى أفندى وقع فى الخطأ الذى وقع فيه غيره فقد جعل الرواية قاصرة على حادث حب البطل والبطلة وبنى على رأيه هذا خلو الرواية من الوحدة وفاته أن حادثة الغرام هذه انما هى وجه من وجوه الرواية الحقيقية المراد بسطها لدى الجمهور أعنى حالة مصر القديمة ومصر الجديدة .. والذى أوقع حضرة الكاتب فى ذلك الخطأ أنه قاس رواية مصر الجديدة على الرواية المعروفة بالدرام مع أن « مصر الجديدة » ، هى من النوع المعروف « بالميلودرام » .. ومن مزايا هذا النوع تعدد مواضيعه وتنوعها كما هو مشهور .. » .

وكتبت مجلة الزهور (أكتوبر ١٩١١) تحت عنوان : « الجوق العربى : مديره عبد الله عكاشة ، وقد جمع واخوانه الى رخامة

الصوت حسن الاستعداد وواضع رواياته الياس فياض والكاتب المعروف بالرقة والطلاقة ومسرح تمثيله التياترو المصرى ، وقد البس حلة جديدة بادارة صاحبه اسكندر فرح وأعضاؤه أفراد جوق الشيخ سلامة وهو أحسن جوق عرفناه ومتعهد ملابسه كبرتى متعهد ملابس الأوبرا الغربية » ..

« ونحن لا نقول أن الجوق قد بلغ آخر مراحل الكمال فهذا ما لا يرضاه مديره الأديب ولكننا نشهد أنه باذل همة تشكر فى سبيل ارضاء الفن وحق القيام بشروطه ولا جدال فى أنه قد خطا خطوة واسعة فى ترقية التمثيل العربى . ولذلك فنحن نصفق له كما صفق له الذين حضروا لياليه فى القطرين المصرى والسورى ، ولابد من تسديد بعض الأشواك الى مرتادى مسارحنا العربية يذهب الواحد منا الى التياترو الإفرنجى كالأوبرا أو برتانيا مثلا فلا يجيز لنفسه الحضور بغير ملابسه الرسمية السوداء فيجلس كما يشاء الأدب ولا يدخن الا فى المحل المعد للتدخين حتى ترى فيه الجنتلمان الكامل وأما اذا رأيت هذا الشخص ذاته فى تياترو الشيخ سلامة أو التياترو المصرى وهما لا يبعدان عن الأوبرا وبرتانيا آلا بضع مئات من الخطوات فانك تعرفه وقد جلس ومد رجليه على كرسى جاره وأولع سيجارته بالرغم من الحروف المرقومة على الجدران « ممنوع التدخين » أو شغل بقزقزة اللب بل تسمعه يقهقه ضحكا فى أشد المشاهد تأثيرا حتى يضايق بعض الممثلين قائلى متى نحن نحتقر أنفسنا وما دمنا كذلك فكيف نطلب من الأجانب أن يحترمونا .. » .

• • •

« ولما قوى أثر التمثيل تدخلت الحكومة فى حرية التمثيل فمنعت تمثيل الروايات التى ورد فيها لفظ الحرية والاستقلال ، كما منعت اخراج بعض الروايات التمثيلية ، ووضعت لائحة للمسارح هى أشبه اللوائح بقانون المطبوعات القديم [1] وكانت لائحة المسرح تنص فى المادة الأولى على أن يوضع المسرح تحت رقابة السلطات المحلية أيا كان مالكه وكل من يضمن تمثيله أو حواره شيئا ، مما يمس الاحترام الواجب أداؤه للجمهور يحاكم ويوضع فى السجن عقب انتهاء التمثيل مباشرة وفى المادة الرابعة يمنع الصفير ، واحداث الأصوات بالعصى أو الأرجل والتشويش منعا باتا ويطرد المخالفون الى الخارج وفى المادة السادسة ينبغى أن يتخذ ثمانية من الجنود و « شاويش » مراكزهم داخل المسرح ، لتنفيذ الأوامر التى يصدرها مدير الشرطة وبالرغم من ذلك كله ، فقد ازدحمت المسارح بالروايات المترجمة والمؤلفة ومن الأخيرة رواية « مقاتل مصر أحمد عرابى » للأستاذ العبادى وأبطال الحرية للأستاذ أنطون الجميل وأرواح الأشرار للأستاذ نسيم الجاهل وكان فى الروايات المؤلفة والمترجمة بعض التصرف .. ففى رواية موليير يقول أحد أبطال الرواية :

قنيتى لا تصرغى وابقى عزاء الشاربين

ما ضر يا قنينتى لو لم تكونى تفرغين

---

(١) محمد فريد للأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

وفى رواية أخرى لموليير « غرام وانتقام » يقول أحدهم :

اليوم جاء الرجـا يا فتـى فابتهجى
لا خير فى الحب ان أبقى على المهـج
أأقضى بموتين ، موت فى الغرام حلا
عندى وموت بحب المجـد ممتزج
فاخدم الوطن الاسـمى واخدم من
أهوى ويا حسن موت فيه مزدوج
فان قتلت فقـد وفيت حـقى فى
شرع الغـرام وموتى موت مبتهج

وفى رواية المخدمين للكاتب محمد عثمان جلال يقول على لسان المخدم :

لما دخل سـيد البيت الشـيخ امام
قعـد يبين الحـلال من الحـرام
ويقول استنجى وتوضأ وقوم صلى
وخللى للصـلا بـدلة هـدوم
وان كان للخـدمة أهى الخيشة هنا
والبرأ هيا الحمـد لله عنـدنا
وتروح للجامع تجيب سـتين رغيف
لكن تنقيهـم من العيش النضـيف
وكل يوم تبيع لنا العيش القـديم
ويكون معاك فى السوق عبد الشيخ سليم

، الى شىء تسـلمه لى بالعـدد
اوعى يغشك حـد فى السوق يا ولد
طهـق من الخـدمة وكتر المرمطـة
والشـيخ الآخـر يحب المرمطـة
ويصف الخادم النصائح التى وجهها اليه المخدم فيقول :
قال لى اذا أعطاك مخـدومك فلوس
ان كان ثمن للشمع أو حق الفـانوس
ولا عطالك تشترى لحمـة وخضـار
ولا العليق اللى بجيبـه للحمـار
تربط على كيس الفلوس اللى معـك
واوعى تقـول حاجـة لواحد يسمعك
وانشيعوك فى البيت تجيب شيت أو حرير
ان كان قليـل اللى انطلب أو كتير
اسعى على البقشيش من اللى رحت له
لابد يعطيـك شىء لمـا تسـاله

• • •

وكان زكريا احمد . يحضر كل ليلة هذه الروايات التى لم تكن واحدة منها تخلو من الأغانى وكان يحفظ أغانيها ، عن ظهر قلب، وخاصة تلك التى كان يلقيها سلامة حجازى وكان سلامة حجازى يبدأ حفلاته بقصيدة مطلعها :

مرحبا بالسـادة النجب   سـادة العرفان والأدب

ويختتم هذه القصيدة بالبيت الآتى :

فلتعش مصر ولهضتها وليعش تمثيلنا العربى

وفى كل مدينة أو قرية كانت تنتقل الفرقة اليها كانت تستبدل كلمة مصر باسم المدينة أو القرية التى يجرى بها العمل .

وعندما مات مصطفى كامل امتنع الناس عن مشاهدة المسارح أو الذهاب الى دور اللهو وفكر سلامة حجازى فى أن يجذب الجمهور ، فلحن قصيدة لأحمد شوقى فى رثاء مصطفى كامل مطلعها:

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما فى مأتم والدانى

وأنشد الشيخ سلامة بصوته القصيدة ثم أعقبها باحدى رواياته وظل على هذا المنوال ثلاثة أشهر كاملة .. وبتلك الحيلة الظريفة استطاع أن يجتذب الجمهور رغم حداده ، وقد سجل هذه القصيدة بشركة أوديون وراجت رواجا كبيرا وقد ذكر لى زكريا أحمد ، أنه حفظ هذه القصيدة الطويلة فى جلسة واحدة وغناها لكثير من زملائه أكثر من مرة ..

ولم يكتف زكريا أحمد ، بحفظ معظم الأغانى والقصائد والطقاطيق التى كانت تلقى فى المسارح المهتمة بالتمثيل بل أخذ يتردد على صالات الرقص « الالدارادو وكواكب الشرق ، ونزهة النفوس ، وألف ليلة وليلة » ، وكانت هذه الصالات تقدم الرقص والغناء والفكاهة ، وتعرف زكريا فى تلك الأماكن بسيدة الكمسارية وأختها أسما .. والحاجة السويسية ونزهة واللاوندية ، وعرف مارى صوفان وميليان دياز ومريم سماط وأختها فيكتوريا سماط والمظ سنانى وأختها ابريز سنانى ؛ واستمع الى السيد قشطة

واحمد التار ، وكامل المصرى ، وأبو رابه واحمد شقاتيرو وغيرهم من أبطال الفكاهة .. وتعود كثيرا الجلوس فى مقهى كتكوت بشارع المشهد الحسينى حيث كان يجلس الشيخ الشنقيطى ، والشيخ حسن الطويل ، وسلطان بك محمد ، والشيخ محمد النجار . وكانت مجالسهم الليلية فى هذا المقهى مجالس أدب يتناشدون فيها الشعر .

وكانت المساجلات بين حافظ ابراهيم ، ومطران تأخذ جانبا كبيرا من أحاديث القوم واكثر من مرة طال الحديث عن الحب عند مطران وخاصة قوله :

والحب ألزم للأرواح ما عظمت	وقد يكون لها أدعى الى العظم

أو قول حافظ فى مطران :

قد سمعنا خليلكم فسمعنا	شاعرا أقعد النهى وأقاما
وطمعنا فى شأوه فقعدنا	وكسرنا عن عجزنا الأقلاما
نظم الشام والعراق ومصرا	سلك آياته فكان الاماما
فمشى النثر خاضعا ومشى الشـ	ـعر والقى الى الخليل الزماما
فعقدنا له اللواء علينا	واحتفظنا نزيده اكراما

والمرة الأولى التى شهد زكريا سوق عكاظ ، ينتفض من الغضب تلك المرة التى هاجم فيها سليم عبد الواحد فى مجلة الزهور ، النحو والصرف ، عندما قال: « مسكين زيد وعمرو فانهما ما زالا منذ عهد سيبويه يتضاربان (ويترافسان) اكراما لسادتنا النحاة فتارة يكون زيد ضاربا وأطوارا يكون مضروبا .. يبدأ الأجنبى اجروميته بتصريف فعل أحب ، ويبدأ الشرقى اجروميته

تصريف فعل ضرب أو قتل .. ذلك يتمرن على الحب وهذا يتمرن على الضرب والقتل .. رحم الله سيبويه ، فلو أنه أبدل فعل ضرب بفعل أحب أو غيره من الأفعال التى لا تضطر القارىء إذ يحمل دروعه وأسلحته !! ألم يكن فى قاموس اللغة غير ذلك المثل المشئوم » .. وفى نهاية المقال كانت الحاشية « بمزيد من السرور وعظيم الابتهاج ننعى الى طلبة الصرف والنحو حضرة الشيخ عمرو عدو زيد وجاره ونسيب قمطويه انتقل من الدار الفانية بعد عمر قضاه ، فى احتمال الضربات من عدوه زيد ، وقد أسلم الروح فراح شهيد النحاة على أثر الجروح المميتة التى ضرب بها على أم رأسه .. فانصرف مع انه كان أعور والتمست جمعية الشفقة على الحيوانات من عدوه زيد أن لا يلحق به الى دار الخلود وسيحتفل بتشييع جنازته قمطويه الى قبر سيبويه ليدفن معه وتستريح عظامه المرضوضة .. وسينقش على ضريحه : « ضرب زيد عمرو » .

لقد انتهت المناقشة الحادة بتهديد صاحب المقال ، واقترح بعضهم أن يتجه بعض الشباب اليه لضربه . واغتاظ زكريا .. واقسم ألا يعود مرة أخرى الى قهوة كتكوت ..

وانتقل الى قهوة متاتيا الواقعة الى جانب البوستة والمحكمة المختلطة وكانت بمثابة ناد لرجال القلم ، وفى هذا المكان تعرف بالشيخ عبد القادر المغربى ، وعبد الحميد الزهراوى وامام العبد والشيخ محمد الشربتلى ، وكان يحرر كل يوم اربع او خمس جرائد أسبوعية حيث كان يأتيه صاحب الصحيفة ويدفع اليه

خمسين قرشا على الأكثر ليكتب له ثمانية مقالات أو تسعة تكفى لأربع صفحات ، وأحيانا يدفع له صاحب الصحيفة جنيها ، ليكتب له مادة تزيد عن حاجة عددين من مجلته الأسبوعية أو جريدته اليومية ..

ولم يكن يمر يوم دون أن يذهب الى بار « بريكلى » أمام مسرح اسكندر أفندى فرح حيث كان هذا البار بمثابة خلية فالشيخ سلامة حجازى ، يلحن بعض أغانيه ، ومريم سماط تراجع دورا لها . وفرح أنطون يكتب فصلا جديدا لرواية جديدة .. وفى مكان آخر الياس فياض يستمع الى عبد الرازق عنايت ، أول من ضحى فى سبيل المسرح المصرى .. وهو يروى له أحدث مشروعاته..

ولم يترك زكريا مكانا فيه رائحة الفن الا قضى فيه أوقاتا طويلة ولم يقع فى يده كتاب أو صحيفة فيها أى موضوع عن الفن الا قرأه بتمعن وفهم ..

وزكريا حين يتردد على هذه الأماكن لا يقصد الى تضييع الوقت .. وانما يرغب فى الدراسة والحفظ ، وأطلق عليه أصدقاؤه — الملقاط — لأنه كان أسرع الناس حفظا وأثبتهم ذاكرة ولم يكد يكمل الثمانية عشرة من عمره حتى كان قاموسا حيا للغناء ، حفظ كل ما وصل الى يده ..

ومن أول أغنية :

تعالى لى يابطة   وأنا مالى هه
وشليلى الشنطة   وأنا مالى هه

● ● ●

الى أغنية :

شربت الصبر من بعد التصافى ومر الحال ما اعرفتش أجافى
يغيب النوم وأفكارى توافى عدمت الوصل يا قلبى عليه
على عينى بعاد الحلو ساعة ولكن للقضا سمعا وطاعة
دعرنى الروح فى الدنيا وداعة عدمت الوصل يا قلبى عليه

والأغنية الأخيرة غناها عبده الحامولى فى رثاه زوجته المظ ، وكانت من أحب الأغانى الى زكريا أحمد ، وان كان يرفض دائما غناءها فى أية حفلة خاصة أو عامة لأنه ، ليس غاوى عكننة — كما تعود أن يقول .

وكان زكريا قد استوعب الكثير من الأغانى والألحان والقصص وأحس أنه بحاجة الى أن يخطو خطوة جديدة ..

بداية ملحن

لم تكن حياة زكريا أحمد ، فى هذه الفترة الطويلة هادئة ولا مستقرة ، ولا ناعمة فقد ماتت والدته ، وتزوج والده عقب الوفاة كما تزوج أكثر من مرة قبل الوفاة ، وكانت الزوجة الجديدة بالرغم من تظاهرها بالعطف على زكريا تكيد له عند والده ، وتثيره عليه ، بسبب سهره كل ليلة الى الصباح ، خارج البيت ، وكان مما يخفف آلام زكريا أن الشيخ أحمد — والده — قد انشغل عنه الى حد كبير بحياته الزوجية الجديدة ، وخاصة بعد أن عهد الى الشيخ درويش الحريرى ، برعاية زكريا وتحفيظه القرآن الكريم وتجويده حتى يصبح « صيتا » يأكل عيشه بعرق جبينه .. ولم ينجح زكريا فى اتمام حفظ القرآن لأنه كان مشغولا بأشياء أخرى .. وبالرغم من أن الشيخ الحريرى دفع بزكريا الى الشيخ سيد موسى خادم القصة النبوية ليعمل معه فى فرقته الا أنه لم يبق فى هذه الفرقة أكثر من بضعة أشهر عاد بعدها الى الشيخ الحريرى .. ونجح زكريا فى أن يحفظ بعض السور قراءة وتجويدا: وقال له الشيخ الحريرى : « يمكنك الآن أن تسهر فى بعض الحفلات والمآتم .. ويمكنك الآن أن تعتمد على نفسك » ..

وذهب زكريا يبحث عن عمل الى أن وجد سهرة فى رمضان

عند أحد الأعيان .. وقضى زكريا الشهر كله ، حتى صباح يوم العيد .. وعاد الى الشيخ درويش وقد ارتدى جبة وقفطانا وفى يده مبلغ لا بأس به من النقود .. وقال لأصحابه يتباهى : لقد أصبحت صيتا ولكن هذه المهنة الجديدة لم تبعده عن حياة الليل، التى انغمس فيها وقد ظل زكريا يقود الشيخ درويش الحريرى ، الى الأماكن التى يريدها ويستفيد من علمه وموسيقاه حيث كان من خيرة الموسيقيين الذين عرفتهم البلاد .. وقدم الشيخ درويش لزكريا خدمة لا تقدر ، عندما ألحقه ببطانة الشيخ على محمود .. ولم يكن الشيخ على من قراء القرآن فى المسجد الحسينى الى جانب شيوخ عصره مثل الشيخ اسماعيل سكر أو الشيخ حسن المناخلى والشيخ حنفى برعى ، والشيخ محمد القهاوى والشيخ العيسوى والشيخ أحمد ندا والشيخ حسين الصواف فحسب . بل لقد هوى فيما هواه من ألوان الموسيقى « الآذان » .. « وكان الآذان ولا سيما التسابيح والاستغاثات التى تتلى قبل الفجر فى المسجد الحسينى ، مما يؤدى على نهج خاص فنغمة يوم السبت عشاق .. ويوم الأحد حجاز ، أما يوم الاثنين فنغمته سيكا اذا كان أول اثنين فى الشهر وبياتى ، اذ كان فى ثانى اثنين وحجاز اذا كان ثالث اثنين من الشهر وشورى على جهاركاه اذا كان رابع أو خامس أيام الاثنين . ويوم الثلاثاء سيكاه . والأربعاء جركاه والخميس راست والجمعة بياتى .. وقد انساقت نفس الشيخ على محمود كذلك بدافع ميلها واستعدادها الطبيعى الى الموسيقى وضروب التلحين .. فاتصل بالشيخ ابراهيم المغربى — وهو عالم

فاضل من علماء الأزهر ومن أصحاب القراءات له علم مكين بفن الموسيقى . وتركيب الألحان فتلمذ عليه وتلقى عنه علم النغمات ومعرفة المقامات وأصول الفن كما فعل درويش الحريرى نفسه .. »

« ولم يكتف الشيخ على محمود بأصول الفن الموسيقى يتلقاها على أربابها من حفظة الموشحات العربية مثل الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب ومن حفظة الموشحات التركية والشامية ، مثل الشيخ عثمان الموصلى بل ذهب مع ميوله الفنية الى مدى غاياتها وراء فحول المغنين يسمعهم ويحفظ لهم .. ولم يكن الشيخ على محمود بالذى يقف لعجابه عند احكام الصناعة وبراعة التصرف فيها بل كان كذلك يهوى الصوت الجميل لجماله . ولقد عرف الحى الحسينى حينا من الدهر ، بائعا متجولا أوتى جمال الصوت مع حلاوة ورقة وكان له من كل صنف من أصناف الفاكهة نداء يؤديه فكان الشيخ على ومعه الشيخ درويش الحريرى كثيرا ما يتابعانه الى مسافة بعيدة .. وكان الشيخ على محمود مرهف السمع للأصوات لا تفوته خافية من أنواعها ، وألوانها وتموجاتها وأفانينها .. وقد أوتى الشيخ فوق ذلك ملكة المحاكاة على نحو يكاد يدخل فى حد المعجزات . والذى يرويه عنه أصدقاؤه انه كان لا يقف عند محاكاة المقرئين يصطنع مثلهم الأصوات والنبرات فضلا عن مذاهبهم فى القراءات بل يتعداهم الى المنشدين فيتفنن ما شاء له الافتنان حتى ليكاد يحاكى منهم الحركات ثم هو يتعدى أولئك وهؤلاء فيحاكى المتقدمين والمحضريين والمحدثين فلا يخطىء المحاكاة والتمثيل فى دقيق أو جليل وكان يتفكه أحيانا

بمحاكاة لهجات الأتراك والعجم في الغناء فضلا عن محاكاته طريقة بعض الممثلين المعروفين في الالقاء »[1] ويمضى الأستاذ عبد الرحمن صدقى في الحديث عن الشيخ على محمود ، ثاني أستاذ أثر في زكريا أحمد بعد درويش الحريري ، فيقول : وقد كان الشيخ على محمود الى قراءته القرآن ينشد — كما قدمنا — القصائد والتواشيح المنظومة في مدح خاتم النبيين والمرسلين وكان في أول عهده بالمولد يردد الألحان التى وضعها أستاذه الشيخ ابراهيم المغربي ، فلما رسخت قدمه وتمكن من فنه أخذ يلحن لنفسه ويحيى الليالى باسمه وممن يجدر التنويه بهم ممن يلازمه في ذلك الحين الشيخ زكريا أحمد وقد لحن في المولد النبوى بعض التلاحين ومن الذين أنشد لهم المرحوم الشيخ على محمود بعض الشعراء المجيدين مثل ابن الفارض امام المتصوفين في قوله :

ته دلالا فأنت أهــــل لذاكا   وتحكم فالحسن قد أعطاكا
ولك الأمر فاقض ما أنت قاض   فعلى الجمـــال قد ولاكا

أما قصة ميلاد النبى فكانت على أنواع كثيرة من حيث الصياغة اللفظية وكان أحبها اليه والى الناس ما صاغه البرزجي وهذا مثالها:

« ولما أراد الله تبارك وتعالى ابراز حقيقته المحمدية واظهاره روحا وجسما بصورته ومعناه نقله الى مقره من صدفة آمنة الزهرية وخصها القريب ، المجيب أن تكون أما لمصطفاه ونودى في السموات والأرض بحملها لأنواره الذاتية وصب كل صب

---

(١) الفنان الدينى للأستاذ عبد الرحمن صدقى : مجلة المجلة العدد ٤٠ .

لهبوب نسيم صباه وكسيت الأرض بعد طول حدبها من النبات حللا سندسية وأنبتت الثمار واجتنى الشجر للجانى جناه .. ولعقت بحملها كل دابة لقريش بفصاح الألسن العربية وأنبئت أمه فى المنام فقيل لها انها حملت بسيد العالمين وخير البرية » . ويكمل الأستاذ عبد الرحمن صدقى صورته الجميلة الزاهية فيقول :

« ولقد أتيح لى سماع المولد الذى كان يحييه الفقيد وشهود الحلقات التى كان يتصدرها فسمت الجماعة المرددين يكررون أبياتا من القصيدة فى صوت واحد ، ثم فى وسط ترديدهم ومن بين فتراته يرتفع صوت الشيخ مجلجلا بأجمل النغمات فى وصف مولد النبى العربى وتعديد محاسنه وايراد معجزاته ، وكانت تبدأ الحفلة هادئة ثم تعلو شيئا فشيئا كلما اشتد النشيد على أفواه الجماعة المرددين وجاشت به صدورهم وكلما انبعث الشيخ يطلق من عنان صوته وينشر من جعبة فنه ، وقد اهتزت نفسه ولانت مفاصله وجعل يطول ويقصر ويده الى صدغه يبدىء ويعيد ما يقول ، على أنواع لا آخر لها من الأنغام وترجيعات الصوت وقد امتلأت بالهواء مساحره وانتفخت أوداجه حتى اذا مضى من الليل هزيع وجاء هزيع كان الانشاد فى شأو أبعد وأوج أعلى فاذا أشرف الليل على آخره ألقى الشيخ بآياته الواحدة بعد الأخرى فأخرج القوم من طورهم وتركهم وهم من الوجد سكارى » .

ويقضى زكريا أحمد فى رفقة الشيخ على محمود وقتا طويلا يستفيد منه فى كل شىء من طرقته فى الأذان .. الى طرقته فى قراءة القرآن الكريم ومحاكاة المطربين والمنشدين والممثلين

ويستفيد منه أيضا فى قراءة المولد النبوى الشريف وفى انشاد كثير من الموشحات والمقطوعات الدينية وكانت الفائدة الكبرى أن الشيخ على محمود قد أفاض على زكريا أحمد ، من علمه فى الموسيقى ومن تجاربه فى القراءات ، ومن دراساته العميقة فى أصول الغناء ، والتواشيح ، والموشحات .. الى جانب أن الشيخ على محمود أتاح لزكريا أحمد لأول مرة أن يلحن بعض الألحان الدينية التى أداها الشيخ على محمود فرفعت من منزلة الشيخ زكريا وحققت له شهرة واسعة ..

ويلتحق زكريا أحمد ، بفرقة الشيخ اسماعيل سكر وهو من خيرة المقرئين والمنشدين وقد ملأ صيته كافة أرجاء البلاد فمال اليه أعيان القاهرة ، ووجهاؤها ، وأغنياؤها وكبراؤها ثم تجاوز هذا الصيت مصر الى الأستانة — حيث استدعاه السلطان محمد رشاد خليفة المسلمين ليقرأ فى احدى الحفلات الكبرى . وقد أنزله السلطان فى قصره وأنعم عليه بالنيشان المجيدى وذلك بالرغم من أن أول آية قرآن قرأها الشيخ كانت تعريضا بالسلطان وكانت الآية : «وما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز..»[1].

وكان السلطان لا يعترف أن هناك من هو أقدر ولا أعز منه ..؟

وكان أمل كل مقرىء — حتى المعروفين منهم — أن يكون فى بطانة الشيخ سكر حيث كان متخصصا الى جانب قراءته للقرآن

---

(١) الهدية السنية لقراء القرآن الكريم والقصة النبوية : اسماعيل سكر .

فى قراءة قصة مولد النبى ، وحيث كان العمل فى بطانة الشيخ يكاد يكون فرصة العمر من ناحية المران ، والدراسة .

ووجد زكريا فى الشيخ سكر أمله المنشود .. انه لفنان ممتاز لا مثيل له فى فنه وانه صاحب صوت ، قل أن يماثله صوت آخر .. ثم انه فوق ذلك متحدث بارع .. وتقرب زكريا منه .. وحرص على حضور حفلاته وندواته ، وسهراته .. ووجد الشيخ سكر فى زكريا خامة طيبة ، فابتدأ يقربه اليه ودعاه للاشتراك فى بطانته بل وأكثر من هذا قدمه الى الجمهور بنفسه .

وفكر زكريا فى أن يلحن لنفسه ، واختار بعض القصائد الدينية ولحنها وشجعه أصدقاؤه وزملاؤه على أن يلحن بعض الأغاني الشائعة . فوضع لها ألحانا جيدة وجديدة .. ولم يكن ذلك محرما فى ذلك الوقت ، فمن حق اى مطرب أن يغنى اية أغنية معروفة او غير معروفة وفى استطاعة كل ملحن أن يلحن ما يريده من القصائد ، والمواويل ، .. والطقاطيق — وكان من الشائع أن يسطو البعض على مؤلفات الآخرين دون استئذان منهم ولم يكن ذلك غريبا .. اذ كنت تجد لافتة كتب عليها « بائع يا نصيب وسجاير .. وملحن » واخرى « ملحن أناشيد ، ومقرىء مدائح نبوية ، ومشخص » وتجد لافتة كتب عليها .. « حانوتى ومقرىء ومشخصاتى » .. ورابعة تجد مكتوبا عليها « دار الجيلانى والتشخيص والتلحين » .

وكان زكريا احمد وهو لما يتجاوز بعد عامه العشرين أشبه ما يكون بالطائر الصغير وقد بالغ صياده فى تعذيبه ، وفى الحيلولة

بينه وبين ما يحبه وما يهواه .. فلما قدر لهذا الطائر الصغير أن يتغلب على صياده القوى ، ولما أتيح له — وهو الضعيف — أن يفر من محبسه المحصن ، كانت انطلاقته الأولى انطلاقة قوية ..

راح يذرع الحياة طولا وعرضا . قدم ثابتة ، ورأس عال ، وقلب لا يحمل الا الحب والود ، والخير للناس جميعا .. شعر كما يقول فى مذكراته بأنه يضع قدمه على الأرض لأول مرة .. ويتنفس الهواء الطلق أيضا لأول مرة .. بل يرى الناس وبغضائلهم فقط — لأول مرة ..

أعجبته كلمات قصيرة تبادلها كليمنصو رئيس وزراء فرنسا الأسبق وبتروفسكى رئيس وزراء بولونيا المشهور بالعزف على البيانو .. فذهب الى أول خطاط لقيه فى شارع محمد على ليكتب له هذه الكلمات ..

قال كليمنصو : هل تركت الموسيقى ودخلت السياسة ؟
وأجاب بتروفسكى : نعم ..
وقال كليمنصو : يا له من تأخر ..

وكتب عبارة قالها كونفوشيوس فى لافتة وضعها فى حجرة نومه الى جانب تقويم العام الهجرى ، وصور أبو زيد الهلالى والزناتى خليفة ، وكانت كلمة كونفوشيوس « لا يهمنى من يضع للناس شرائعهم ما دمت أنا الذى أضع لهم أغانيهم .. » .

وانطلق زكريا فى الحياة ..

لم يكتف بأن يكون واحدا من « المذهبجية » أو «السنيدة»

الذين لا ينطقون بل ولا يتحركون الا بقدر وفى الوقت الذى يريده « الصييت » .

ولم يقبل أن يكون مجرد آلة فى أيدى المطربين والمنشدين اذا شاءوا — وقلما كانوا يشاءون — منحوه لقمة العيش ، وفرصة العمل .. واذا شاءوا — وكثيرا ما كانوا يشاءون — منعوا عنه لقمة العيش وحالوا بينه وبين العمل .

ورفض أن تسلط عليه الأضواء فى بداية حياته ما دام لم يكن قد أعد نفسه بعد للدور الذى أراد أن يلعبه فى الحياة ..

واختار لنفسه اتجاها جديدا لم يتجه اليه أحد من قبله ..

آثر أن يتعلم ويحفظ ويجرب فى هدوء وثقة وأناة ، وعناد ..

قال له ذات ليلة أحد معاونيه ولعله أراد احراجه ، « ادخل من الهوا ياسيدنا الشيخ .. » ولم يفهم زكريا أحمد ما يقوله معاونه.. وتظاهر بأنه متعب فى هذه الليلة .. وأن صوته « مخنتك » ورد لصاحب الليلة الأجر الذى سبق أن تقاضاه منه ، وانسحب .. ولم يعد الى الغناء الا بعد أن حفظ النوتة الموسيقية كلها — وأخطأ ذات مرة فى نسيان دور معروف من احدى الموشحات الأندلسية ، « وزغر » له الأستاذ اسماعيل سكر . وتمارض فترة قصيرة ثم عاد الى حفظ كل ما عرفه المنشدون والمطربون من تواشيح أندلسية ..

وجلس ذات ليلة فى سهرة خاصة جمعت سلامة حجازى ، ومحمد سالم ، والمنياوى ، واسماعيل سكر ، واكتشف أن ما وصل اليه هؤلاء من مجد لم يكن سهلا . وانما كان معتمدا على دراسة

أفواه المطربين والمنشدين من أغان ومواويل .. وطقاطيق ..

واتجه الى ريف مصر .. لم يكتف بأن يسمع الناس غناءه ، بل أراد أن يسمع ما عندهم .. وفى كل مرة كان يزور فيها الريف كان ينتهز فرصة الاستراحة ليطلب من المغنين الاقليميين أن يسمعوه ما لديهم .. فلقد تعود أن يطرب الناس ، وتعود أن يطرب لما يسمعه من الناس وهو — كغيره من الفنانين الأصلاء .. يفيد ويستفيد .. يمتع الناس بفنه ويتمتع بما لديهم — حتى ولو كانت بدائية — من فنون ..

وفى الصعيد كان يردد أغانى الوجه البحرى وفى الوجه البحرى كان يردد — من قبيل التغيير — أغانى الصعيد .. ومن هذه الأغانى التى كان يرددها .. ما يسمعه فى طنطا :

مدد يا شيخ العرب يا عم يا سيد
ياللى فى رحابك جمعت العبد والسيد
يا قطب ياللى الهداية خلتك سيد
لدعى لنا ربك يزيل عنا الألم والكرب
ياللى دعاك مستجاب يا عم يا سيد

أو تلك التى سمعها فى المنيا :

عالبحر جمالات بيملوا دوارجهم
عليل وعطشان وصفوا لى دوا ريجهم
يدج جلبى لزغروتة أباريجهم
جالوا منين الفتى أنا جلت منياوى
مولود معاهم ولا جادر أفارجهم

وقيل ذلك الموال الذى سمه فى شمال الدلتا :

يا خسارة الحلو من بعد الدلال يهينوه
من بعد ما كان صاحب مقدرة بيهينوه
حسوا العوازل وجوله فى الوطن يهينوه
وقف رآهم كتم غيظه وغطى بلاه
خايف من الدهر أحواله تيجى بخلاف
الأهل كرهوه وقالوا تركه وبلاه
سقوه كاسات الجفا بعد الصفا بخلاف
من بعد ما كان عالهجين وبلاه

ولم يكن زكريا يحفظ الأغنية الجميلة بل كان يحفظ كل ما يقوله الناس فلما سئل فى ذلك قال : « ان الناس مجموعة أذواق وما يعجب هذا قد لا يعجب ذاك » ولهذا كان الطلاقه للصالات والمسارح لا يستهدف رؤية ما بها من راقصات ورقصات بقدر ما كان يهدف الى حفظ كل ما يلقى فيها من أغان وتواشيح ومونولوجات فهو يحفظ — مثلا — ما يقوله سلامة حجازى فى رواية « شهداء الغرام » مثل :

أجوليت ماهذا السكوت ولم أكن لأعهد فيك الصمت عنى فى قربى
أماتة أنت؟ نعم ؟ فأنت لاتموتين بل تحيين منى فى قربى

كما يحفظ فى الوقت ذاته :

جوليت ما هذا وماذا أصنع	عمل أرى ضرسى به تتخلع
هذه الزجاجة جحشة من لى بها	أمضى لأوروبا وتوا أرجع
اخشى تجرعها ففيها مستكة	يا حبذا لو كان فيها نعنع

وانضم زكريا الى بعض الجمعيات والأندية التى آمت فى هذه الفترة مثل جمعية التمثيل المصرى التى كان من أهدافها خلق المسرحية المصرية ، باللغة العامية المصرية ، وجمعية محاربة التمثيل الهزلى التى آلفت من بعض الكتاب والأدباء والفنانين والتى طبع أحد أعضائها — محمد فضل — منشورات جاء فيها :

« تشجيع التمثيل الأدبى أكبر واجب »

« ومحاربة التمثيل الهزلى ضربة لازب »

وكاد يقبض على أعضاء الجمعية باعتبارهم أعضاء فى منظمة سرية ارهابية .

وخطا زكريا خطوة أخرى :

كان مصطفى رضا من هواة الموسيقى وقد تعود هو وزملاؤه حسن أنور ، والسيد كامل ، والشيخ أبو العلا أن يسمروا فى منزله للعزف على العود ، حتى ماتت عمته ، فانتقلوا الى منزل الشيخ «أبو العلا» .. وتردد زكريا على المنزلين وتأثر بهذه المجموعة المنتقاة من خيرة الهواة ... ولما وجدت هذه المجموعة أن السمر فى منزل الشيخ « أبو العلا » يكلفها كثيرا استأجرت حجرة فى عمارة ، كانت شركة الجرامفون تستأجرها مقرا لها .. واتفقت الشلة مع مدير الشركة على أن تجتمع فى غير وقت العمل بالشركة حتى تركت الشركة الحجرة فاستقل بها الموسيقيون ..

وأصبحت هذه الحجرة مكانا مختارا لخيرة الموسيقيين الذين تضامنوا فيما بينهم لشراء الكراسى ، والموائد ، ولمبة الغاز ..

ثم أقاموا حفلة ساهرة ، كان ايرادها خمسة جنيهات خصصت لشراء بقية الأثاث .

وتهافت الشركاء على النادى — كما هو متبع — فى البداية ، ثم بدأوا يتناقصون رويدا .. رويدا ..

وكان العضوان الوفيان للنادى مصطفى رضا .. وزكريا أحمد ..

● ● ●

واخيرا آمن زكريا احمد ، بأن شيئا ما فى داخله قد نما وترعرع ..

واحس بأن قوة جديدة قد أوشكت أن تدفعه الى الأمام ..

وتأكد ، أن قدمه فى الفن قد بدأت ترسخ .. وتثبت وتتحمل الأعاصير ..

وبدأ يمهد لانطلاقة جديدة ، تتلاءم وما استفاده فى هذه المرحلة من دراسة وتجربة ، وأخطاء ...

مجتمعه الأول

لا تخلو حياة الانسان — أى انسان ما — من التعرض للصعود والهبوط ومجابهة السعادة والشقاء ، والفقر والغنى : ولا يمكن أن يتنزه انسان ما عن الوقوع فى الخطأ أو الصواب ومواجهة الانتصارات والهزائم ... والذين ثبت تفوقهم فى كثير من ميادين الحياة يتعرضون دائما الى ما يتعرض له الانسان العادى ، من صعود وهبوط ، وسعادة وشقاء ، وفقر وغنى .. وخطأ وصواب ، وانتصارات وهزائم لان ذلك كله من لوازم الحياة . ولم نر قبلا أن طفلا ولد وقد وضعت على جبينه لافتة كتب عليها متفوق أو نابغة أو كفء ، أو ما يدل على أنه فيما بعد سيغير مجرى التاريخ ، أو يملى ارادته على التاريخ ولو حدث ذلك لكانت حياة العباقرة من رجال التاريخ سهلة ، وهادئة ، وناعمة منذ بدايتها. لا صعوبات فيها ولا مشاق ولا تضحيات ... وحياة الانسان الفنان — الفنان بمعنى هذه الكلمة — لا تكون من بدايتها هادئة ولا ناعمة ولا مستقرة ، بل غالبا ما تكون فى البداية متعبة ، متقلبة.. تتنقل ويتنقل معها صاحبها من سيىء الى أحسن ومن حسن الى أسوأ ، وأحيانا من أسوأ الى احسن أو العكس من احسن

الى أسوأ وبعض الناس تتفاءل بتلك الصعوبات والمشاق ويعدونها ثمن النبوغ والشهرة .

وفي رأيي أن بعض الذين يكتبون عن الشخصيات التاريخية يخطئون اذ يحاولون تصوير هذه الشخصيات تصويرا بعيدا عن واقع الحياة وطبيعة الانسان ، فهم ينزهون أصحابها عن الوقوع في الأخطاء وهم يفرضون عليهم النبوغ والعبقرية والتفوق حتى في فترات الطفولة والصبا ، والشباب وفي وقت لم تكن هذه الشخصيات قد اكتملت بعد وظهرت بواكير نموها وازدهارها .. وقد يتصيد هؤلاء الحوادث التافهة في حياة هؤلاء — وخاصة في الفترة الأولى — ويكبرونها ويخلقون منها أساطير خرافية ، لا يصدقها أحد ، وقد يحاولون رفع شخصياتهم عن مستوى البشر ، ظنا منهم أنهم يحسنون الى من يكتبون عنهم .. وهم في الواقع يسيئون الى هذه الشخصيات ، والى أنفسهم بالذات .. وفي رأيي أن المرحلة الأولى ، من حياة أي شخص لا تبرهن تماما على ما سيقع في المراحل الأخرى من تطورات ، وان كانت هذه المرحلة قد تكون عاملا مساعدا في فهم ما سيحدث في المراحل الأخرى ، وفي اعطاء صورة غير كاملة ، عن هذا الانسان أو ذاك فليس كل من خرج على اجماع الناس في صغره ، فكره المدرسة أو الأزهر أو الكتاب ، واتجه الى الحياة العامة ، يدرس فيها ، ويتعلم منها سيكون عبقريا والعكس أيضا غير صحيح ..

ان حياة كل انسان على حدة بظروفها واحتمالاتها ، والامكانيات المتوفرة عند صاحبها ، هي التي تخلق هذا الانسان ، ولا يمكنك

أن تضع قاعـدة ما تطبقها أوتوماتيكيا على كل النـاس فى كل الظروف .

ولنعد الآن — بعد تلك الاطالة — الى سلسلة المقالات التى كتبها الشيخ يونس القاضى تحت عنوان « الشيخ زكريا أفندى »، وكانت مقدمة هذه المقالات كما يلى : « لقبوه بالشيخ ان شئتم والأفندى ان استحسنتم ، فأى الكلمتين لا يكون أداة تعرف له بين عارفيه ومريديه ومحبيه ، والمتيمين فيه ، لأن المصطلح عليه بيننا من بدء معرفته هو زكريا مجردا من كل كنية ولقب .. أما هو شخصيا فيتنكف أن يقال له الشيخ ولا يحب هـذه الكلمة ولا الناطق بها وربما كان هذا نتيجة اشتغاله فى جوقة الشيخ أحمد الحمزاوى . والحمزاوى لا يكلم الا من يقول له المسيو أحمد .

« وقد انطبع فى خلق زكريا أن لا يكون للشيخة حظ فى اسمه ولا نصيب فى صفاته لأنه يعتقد أن كلمة الشيخ لا تقال الا لرجال العلم .. وهو يعترف بأنه لم يغترف من منهل العلم ولا العرفان جـرعة » .

ويقول كاتب المقالات « ان بدء معرفته بزكريا كانت فى صحن الأزهر ، وكان زكريا طفلا فى التاسعة من عمره يلبس جلبابا من الغزل المحلاوى المتين وطاقية شبيكة وفى أذنه قرط شبيكة . وكنا قبل الظهر ، وقد انتهينا من مراجعة درس النحـو ؛ استعدادا لحضوره على الشيخ الذى نحضر عليه . وكانت الفسحة فى المدارس أو الاتراكت فى التياترات ربع ساعة يستريح فيها الفكر فشاهدت ذلك الطفـل جالسا على مقعـد خشبى قبالة المنبر

وهو يلهو بجز ساقيه فقال لى زميلى فى المذاكرة وهو الأستاذ « ... » القاضى الشرعى الآن -- الواد ده ايش جابه هنا ؟ وسرعان ما شهدنا « مشدا — والمشد — والمشهد موظف فى الأزهر يحمل خيزرانة أو جريدة أو مقرعة وهو عند الملمات الأزهرية واشهار السلاح الأحمر ، يقود المتدى والمتدى عليه الى جندى الأزهر — يسرع فى خطواته حتى اذا جاوز ذلك الطفل وكان فى جلسته ملفتا وجهه نحو الشيخ وظهره نحو القادم هوى بجريدته اليابسة على ساقى ذلك الطفل وأوسعه ضربا . وناهيك بمشايخ الأزهر يتركون حلقات الدروس اذا سمعوا عن معركة . ويفضلون شهودها وأخيرا لم تفلح لدى ذلك المشد شفاعة . وتبين أخيرا أنه والد الطفل وقد ضربه ليؤدبه على ذنب لم أنعم بمعرفته . وما كنت أدرى اننى ساضطر يوما للكتابة عن زكريا كمؤرخ فأحتاج لمعرفة السبب ولولا أن هذا العهد قضى عليه أكثر من ثلاث وعشرين سنة لطالبت زكريا بسرد السبب ولكن تقادم العهد يحول بين هذا وبين ذاكرته خصوصا وأن هذه الحلقة لم تكن الأولى والأخيرة من نوعها » .

ويمضى الشيخ يونس القاضى فيروى كيف دفعه حب الاستطلاع الى معرفة السبب وقد ظهر أنه هروب زكريا من كتاب الشيخ عبد المطلب بالأزهر ، وكيف أن والده الشيخ أحمد ؛ أقسم أن يرسل ابنه الى صنعة ليتكسب منها عيشا ، ويروى أيضا قصة هروب زكريا الى طنطا وذهاب الوالد لاحضاره ثم يقول : « ولم تنفع لدى أبيه غير شفاعة الأستاذ الشيخ درويش

الحريرى الموسيقى المعروف فقد تعهد لأبيه أن يحفظ القرآن فسلمه ابنه وزكريا مسكين رزىء فى صغره ، بموت أمه ، وناهيك. بتربية ولد ماتت أمه وتزوج أبوه من غيرها ، وهذا من دواعى عطف الشيخ درويش عليه .. الشيخ درويش صريح حتى مع نفسه ، اذا قطع عهدا على نفسه لا تستطيع رده عن تنفيذه مهما تستعمل من المغريات ولكن ذاكرة زكريا كانت سببا فى نقض عهد الشيخ درويش فكثيرا ما رأيته ينهره ويهدده .. وبعد ما ينس منه حفظه آيات من سور معلومة يرتلها القراء ، فى الليالى الرسمية وكان هذا نصيبه فى عشر سنوات أقامها مع الشيخ درويش وأكثر » .

« وفى ليلة قابلت الشيخ درويش يقوده زكريا وكنت جالسا فى الكلوب المصرى والشيخ درويش يكاد يتميز من الغيظ فناديته وخففت من حدته فقال لى فى مواجهته . سيكون هذا المخلوق أثرا سيئا لى .. لأنى قطعت عهدا على نفسى ولم أوفق لتنفيذه . فقلت « علمه المبادىء الموسيقية . قال : لا ينفع فى أى حاجة فأسمعته زجلا كنت أنظمه عنوانه « كعك العيد » فكان زكريا حين سمعه « شبه مطيب » .

« عقب هذا دفعه الشيخ درويش وقال ابحث لك عن عمل ، فذهب وسهر رمضان وعاد فقابلته مع الأستاذ أمام باب ادارة الأزهر ، وقد لبس جبة وقفطانا ، وقال لى « ما بقيت فقى » قلت مبروك » وقال الشيخ درويش : اصبح فقى شكلا لا موضوعا . ثم يروى الشيخ يونس القاضى ، كيف ذهب مع زكريا الى الدكتور

ابراهيم الشامى ابراهيم فى عيادته ، وهناك التقى بأخيه زكى الساعى وكان فى ألمانيا حيث أقام بها سنوات ولما قدمت له زكريا وخشيت أن يخجل من كلمة فقى التى يراها عيبا كبيرا قلت انه موسيقى وعلى ذكر الموسيقى روى الدكتور عبد الفتاح تاريخ كاروزو . بعد أن قال « لعلنا نرى الأستاذ مثل كاروزو » وقد ظن أن الدكتور يشتمه بالألمانى فاستفهم فى حدة وغير ما حياه فروى له الدكتور تاريخ كاروزو ومن سياق حديثه علمنا أنه كان صبى فران فتهلل وجه زكريا فرحا ولما نزلنا قال يظهر الى رايح اصبح زى كاروزو لأنى اشتغلت صبى فران فى صغرى ، قلت : « لا عيب فى هذا .. انما ينقصك تعلم الموسيقى » . ولعتزم أن يأخذ درسا فى العود واستصحبنى ثلاث مرات الى منزل القصبجى ولم نظفر برؤيته فهل تحققت نبوءة الدكتور ؟ كلا فكاروزو كان مبتكرا وزكريا سارقا ما يقول انه من تلحينه ، وشتان بين الاثنين ، ويكمل يونس القاضى القصة فيقول : لم تطل مدة اشتغال زكريا مع الشيخ سيد مرسى ففصله ولا أستطيع ذكر السبب ثم عاد الى الشيخ درويش ، وعلاقة الأستاذ الحريرى بصديقنا الأستاذ الشيخ على محمود ترجع الى عهد الطفولة .. ذهب الشيخ درويش وطلب الى الشيخ على محمود أن يقبل زكريا ضمن الجوقة ، فقبله ، وسرعان ما فصله ، فألحقه الشيخ درويش بجوقة أستاذ تلحين تواشيح المولد والذى ابتدع ما نشهده من الموسيقى الصوتية الغنائية فى المولد ، وأعنى به الشيخ اسماعيل سكر وجوقة الشيخ اسماعيل كقافلة تسير ، فكان زكريا تبعا لها ، ولكن الشيخ

لسماعيل ، اعتذر للشيخ درويش فى ما معناه ، اما أن أستغنى عن الجوقة كلها ، أو عن زكريا ، وما هى الا أيام حتى خرج ، يبحث عن مرتزق فانضم الى جوقة الشيخ — أستغفر الله العظيم — المسيو أحمد الحمزاوى واشتغل معه بأسلوبه الفكه الطريف » .

ثم يروى الشيخ يونس القاضى أول لقاء فنى لزكريا أحمد مع أم كلثوم فيقول: « فى أول سنة غنت فيها أم كلثوم استأجرها زكريا فى آخر ليلة من ليالى مولد الحسين وكان الدخول الى الحفلة بتذاكر وقد طلب منى زكريا أن أنظم له قطعة يلحنها أو بالعربى تكون على قد قطعة بغير هو معالمها ، فعملت له قطعة امتدح بها مصطفى باشا كمال وهى « اسم الله عليك » .

مرت سنة وشهران وجاء شهر جمادى والعادة عند سكان العاصمة أن الزواج لا يروج سوقه فى أربعة أشهر ، محرم ، وجمادى الأولى ، وجمادى الثانية ورمضان وكان جوق الشيخ على فى حكم المحال على الاستيداع وزكريا يعتبر نفسه فى الرديف أو تحت الطلب ، بث الى شكواه وقال ان الشيخ على محمود أعطاه خمسة جنيهات ليقطع للجوق تذاكر السفر الى منفلوط لاحياء ليلة لعتيد احياؤها بمنزل صاحب السعادة حفنى باشا الطرزى ، ولكن زكريا سهر بدل أن ينام مع أحد أصدقائه ، عبد الحميد أفندى الشباسى صاحب قهوة وبار فى منطقة بكلوت بك وقد كان فى جوقة الملحنين بفرقة السيدة منيرة المهدية فى عهد محمود بك جبر .

وذهب زكريا الى منزله عند الساعة السابعة صباحا وأدرك أن القطار باق عليه ساعة ونصف ساعة ، ولم يكن فى جيبه أكثر من خمسة عشر مليما .. » .

وينهى الشيخ يونس القاضى ، القصة بقوله :

« اتجه زكريا أحمد الى الشيخ فراج الدخاخنى وقال له : ان أحد النشالين فى محطة مصر عند الترسو سرق الورقة أم خمسة جنيهات والمطلوب خمسة جنيهات للشيخ على محمود ، وكان زكريا أحمد يمنع الناس من أن يمروا وهم معه وأنا منهم على دكان الشيخ فراج الدخاخنى قبل أن يسدد المبلغ » .

ويقول يونس القاضى ان الحاج أحمد المرشدى ذكر له أن زكريا طالبه بعشرة جنيهات سلفة وأنه خشى أن يعطيها اياه « لأننى لو أديه العشرة جنيه يستحيل على أقابله أحسن يفهم انى باطالبه وهو من نفسه ، ما يرضاش يقابلنى الا لما تيجى له العشرة جنيه ، ويستحيل اللى زيه ييجى له عشرة صاغ مجمدين وان ما كنتش أعطيه العشرة جنيه يزعل منى ويقول : « هو أنا حاكلهم عليك » .

ويمضى الشيخ يونس مدللا على سوء حالة زكريا أحمد المالية وقتئذ فيقول : ان الحاج أحمد نصار صاحب محل قدام المستشفى بتاع الأزهر رفض أن يعطى ابن أخت زكريا رغيفين وبقرش صاغ بيض ، وبثلاثة تعريفة سمن علشان زكريا يتغدى هو واللى معاه .. وقال الحاج أحمد نصار لابن أخت زكريا .. « روح قول لخالك زكريا : يجيب اللى عليه الأول .. وأقسم زكريا بعدئذ يمينا على

الا يشترى منه حاجة الا بعد أن يسدد ما عليه من ديونه .. » .

وتساءل الحاج المرشدى عما يمكن عمله لانقاذ زكريا أحمد من الضائقة المالية التى تعتريه واقول له « أنا مطلوب منى طقاطيق لشركة بيضا وزكريا من جوقة الشيخ على فلتذهب اليه يا حاج أحمد لتقول له اننى أريد أن اقدمه للشركة كملحن ، يبيع اللحن ويأخذ ثمنه ، وقال الحاج المرشدى ، انها تكون فى الوقت ذاته خدمة لواحد مسكين قليل الحيلة زى زكريا ... » .

ويمضى الشيخ يونس فيقول : « وذهبت فى اليوم التالى الى منزله ، وناديت وصعدت فوجدت لديه الأستاذ الشيخ محيى الدين الجمل ، وخاطبته فى شأن الطقاطيق ، فقال هذه صناعة لا أدرى فيها ، قلت جرب نفسك ، والقيت اليه بأربع قطع فامتنع فلنا منه الى أريد به سوءا وذكرنى بأغنية « اسم الله عليك » التى ماتت من أول يوم .

وفى اليوم التالى قصدت الى منزل الشيخ على محمود وأرغمت زكريا على قبول الفكرة وقد حسنها الشيخ على ، وأثناء تحسينه، دخل الشيخ درويش الحريرى فوافق وتعهد هو والشيخ على أن يصلحا له ما يعمله . وفى الصباح أيقظته من نومه ، وذهبت الى محل بيضا أنا وهو ، وتوقفت عن البيع ان لم يكن الملحن زكريا ، وأمام هذا التعنت وافق الخواجه بطرس . ولم يخرج زكريا وأنا الا وفى جيب كل منا ١٥ جنيها .. زكريا هذا لم ير فى حياته الا عشرة جنيهات يأخذها على سهرة رمضان ، ويعطى من يسهر سهرة

ورشوة ٢٥٪ نظير اعفائه من غلطات زكريا ، وكتمانه ... أن زكريا لا يحفظ القرآن ولا ينفع أكثر من تشريفاتى للزوار فى بيت الزبوف.
مستحيل هذا المخلوق اذا مسك فى يده خمسة عشر جنيها ولا تستطيع أن تصدق مهما تخيل ما كان عليه زكريا ، لقد خرج وانطلق فى شارع الموسكى حتى اذا وصل الى محل كرار خلع العمامة ، كما يفعل الحاج حسن الحاوى فى سوق العصر » .
ويمضى يونس القاضى فيقول :
« لقد تعهدته فى التلحين وأخذت فى ملازمته عساه أن يستطيع ابتكار لحن وكم سهرت معه فى منزلى حتى الرابعة صباحا ، وهو لم يفتح عليه ربنا بشىء .. أخيرا عرض القطع على الشيخ على والشيخ درويش فأصلحاها ولكنهما فى الحال قالا ان الموسيقى اذا سمعها يستطيع ادراك المصدر الذى سرقت منه ، خصوصا البشارف وقال زكريا : وأنا كان مالى ومال الشبكة السودة دى ياسى يونس » .
ويقص الشيخ يونس القاضى — من وجهة نظره — قصة علاقة زكريا بالسيدة « فاطمة سرى » : « كانت فاطمة الممثلة الأولى بفرقة حديقة الأزبكية ، وأرسلت لى عبد العزيز بشندى فذهبت وقابلتها فى حجرتها الخاصة بالمسرح ، وعرضت على أن أنظم مقاطيق وأدوار . لأنها عزمت على هجر المسرح التمثيلى مفضلة الغناء مستقلة فى عملها ، كمغنية .. انفصلت السيدة فاطمة سرى عن فرقة الحديقة ، واشتغلت بالانشاد على تخت آلات ..
وذهبت الى فاطمة سرى بمنزلها وذكرتنى بوعدى لها فى

التياترو ، فقلت سأتمه اليوم ، قالت وكيف ذلك قلت سأحضر لك الملحن والطقاطيق جاهزة وأعطيتها موعدا ، بعد الظهر ، وحان الموعد فكان معى زكريا فنظرت اليه واندهشت ، وقالت الملحن فين ؟ قلت هذا هو .. قالت يعنى مش زى سى داوود ولا كامل الخلعى وقلت هذا صنف جديد ، وكان لديها محمد أفندى عوض وباقى التخت .. عزف الجميع قطعتى « ارخى الستارة » و « مانخافش عليه » وهما كل ما ذاع لزكريا فى مصر أما السيدة فاطمة فأسرع من عدسة الفوتوغرافية .. فأخذت اللحن ومع هذا فانها سمعت القطعتين وقالت « زى اللى لهم قد .. » ونظرا لاضطرارها لأن تغنى شيئا جديدا حفظت القطعتين وغنتهما فى المنصورة ثم فى رمسيس وكان الشعب يقدر السيدة فاطمة سرى فتقبل منها القطعتين وأظهر من التعضيد ما يليق بمثل السيدة فاطمة سرى .. » .

وبعد أن يروى الشيخ القاضى — على طريقته — قصة خلاف زكريا مع فاطمة سرى وكيف كان ذهابه اليها فى الصباح الباكر وتعاطيه السعوط سببا من أسباب هذا الخلاف ، يذكر — قصة عمل زكريا فى فرقة الشيخ سيد وينفى ما ذكره أحد الكتاب فى مجلة ألف صنف التى كان يصدرها الأستاذ بديع خيرى من أن الشيخ زكريا التحق بفرقة الشيخ سيد يساعده فى التلحين واتفصل لأنه طلب ستين جنيها فى الشهر .

ويقول القاضى : لقد ذكر زكريا لسيد درويش ذات مرة وكانا يسيران بالقرب من الكتبخانة أنه يحفظ النوتة الموسيقية الخاصة

بالشيخ درويش الحريرى والشيخ سيد لم يقدر موسيقيا فى مصر حق قدره الا الشيخ درويش الحريرى اعتقد أن هذا صدق .
فقال له ألك أن تمثل دورى فى رواية « البروكة » حتى أشفى من العملية الجراحية .. وبدأ الشيخ سيد فى تلقين زكريا التلحين فلم يوفق الا أن زكريا عرض على الشيخ سيد أن يعمل معه فى فرقة الشيخ سيد ، ووافق الشيخ سيد واتفقا على ستة جنيهات شهريا .

ويقول يونس القاضى :

والدليل على عدم نجاح زكريا فى مهمة القيام بتنفيذ الدور فى البروكة أن الشيخ سيد وفق لاقناع محمد أفندى عبد الوهاب بتمثيل الدور .

وفى نهاية سلسلة المقالات يأبى الشيخ يونس الا أن يشهد بكرم زكريا أحمد فيقول : « يجود زكريا أحمد بنفسه ما دمت فى منزله أو سرت معه فى طريق .. وحوادثه فى الكرم والسخاء لا تحصى وربما زرته بمنزله فلا تنزل الا وشربت القهوة وبالغ فى تحيتك وأقسم ولو بالطلاق أن تتناول معه طعاما وربما صرف آخر قلس يملكه قياما بالواجب المقدس ويسره أن يمنع التكليف بينه وبين اخوانه ، ويسره أن يقدم أعدادا من مجلة حمارة منيتى ويسمعك هو قفشات توفيق التى يكتبها بامضاء زيد من الناس .. » .

« ويصف يونس القاضى منزل زكريا أحمد فى ذلك الوقت وكيف انه لا يحتوى على اكثر من ثلاث كنبات وليس على الأرض بساط ولا حصير » .

والى هنا وننتهى المقالات الخمسة التى نشرها الشيخ يونس القاضى عام ١٩٢٦ فى مجلة المسرح — أوسع المجلات الفنية وقتئذ انتشارا وأكثرها تأثيرا فى الرأى العام — ولقد تعمدت اسقاط بعض صفحات من هذه المقالات لأنها احتوت فى رأيى على ألفاظ وعبارات ووقائع لا يستساغ نشرها اليوم وان كان قد استسيغ نشرها بالأمس ، فى كتاب أو صحيفة سيارة ، وآمل أن تكون الفقرات التى نقلتها من هذه المقالات ، كافية لاعطاء صورة كاملة للفترة الأولى من حياة زكريا أحمد ، كما يراها أعنف خصومه ..
ومن هذه الفقرات يتبين لنا أن زكريا قد أنهى بسرعة وعلى النحو الذى أراد دراسته النظرية ، فى الكتاب ، والأزهر ، والمدارس ، وكيف اتجه مباشرة الى العمل فى حقل القراءة والانشاد ، والغناء والتلحين من أجل تحقيق هوايته الخاصة ، ومن أجل لقمة العيش، ويتبين لنا من خلال دراستنا لزكريا أحمد ومن خلال اتصالاتنا بأصدقائه ، وزملائه أن الفترة التى تمتد من عام ١٩١٤ الى ١٩٢٣ وهى فترة العمل فى قراءة القرآن الكريم ، والانشاد ، والغناء كانت مليئة بالنشاط والقدرة على التحرك ومحاولات الاستفادة من الحياة على أوسع نطاق ...

وسأنقل هنا بعض ما ذكره زكريا أحمد فى يومياته التى بدأها من أول يناير ١٩١٦ يقول زكريا أحمد : « فى أول يناير شغل عند درويش بك وصالح بك ، وفى ٣ يناير قابلت سيد درويش وكان يشتكى لى ، وفى الأيام ٤و٥و٦و٧و٨و٩و١٢و٢١و٢٥و٢٩و٣٠و٣١ يناير شغل فى حوش آدم ، والفشن والحلمية وعند والى بك فى

للمغربلين والزقازيق ، والقناطر الخيرية ، ودمياط ، وشربين والعباسية ، وفى الأيام ١و٤و٦و٧و٨و١١و١٧و١٨و١٩ من فبراير شغل عند جمجوم المناديلى ، فى الاسكندرية والمرج وطره والمعادى والمحلة الكبرى والاسكندرية وهناك تمت مقابلة لـبد درويش وعند صالح بك وفرج بك جمجوم .. وفى الأيام ٢و٦و٧و٢١ من مارس شغل فى قليوب والمرج وطنطا ومصر الجديدة وباب البحر وباب اللوق وفى يوم ٢ مارس مقابلة للأستاذ مصطفى لطفى المنفلوطى ، وفى يوم ٢٣ مارس ابتداء شغلى مع الشيخ على محمود وفى أول ابريل و١٢و١٨و١٩ أبريل شغل بشارع خيرت وفى المنصورة والحسين (عند جعفر باشا) والعتبة وفى أول مايو و٢ و٣و٧و٨و٩و١٠و١١و١٦و١٩و٢٢و٢٣و٢٤و٢٥و٢٦ من مايو شغل فى السيدة وتلا ومنيا القمح وحلوان ودسوق وشبرا وسنود وعابدين وباب اللوق وكفر الشيخ والمنصورة والعباسية والمحلة الكبرى وباب الخلق وفى يوم ٥و٧و٨و١٠و١١و١٢و١٧و١٨ من يولية شغل فى العباسية وجزيرة بدران ومع أحمد سكر وعلى اسماعيل وفى المنصورة وعابدين والمحلة وطنطا وسمر عند السيوفى باشا . وفى شهر يوليو لا عمل سوى سهرتين ، واحدة مع الشيخ على محمود وأخرى فى منوف . وفى أول أغسطس و٥و٨و٩ و١٠و١٥و١٦و١٨و٣٠ من أغسطس يكون العمل فى مصر القديمة ودمنهور والمنيا والعباسية والخرنفش والقشن وباب اللوق...الخ.

ويذكر زكريا أحمد فى يومياته أن ١٥ أغسطس سنة ١٩١٦ كان تاريخ ابطاله الدخان وينقطع عن الكتابة فى شهرى سبتمبر

واكتوبر ، ويعود فى نوفمبر وتزيد سهراته فى نوفمبر وديسمبر عن ٣٥ حفلة فى كافة أرجاء البلاد .. الخ .

اما عام ١٩١٧ فيكون العمل فى القاهرة والعباسية والزقازيق وبولاق والزيتون ومصر القديمة والبغالة وعابدين وسوهاج وكوم حمادة ودمنهور والحسين وكفر الشيخ والمنزلة والاسماعيلية وههيا وأسيوط ، وذلك بمعدل عشر حفلات فى كل شهر . من أسوان الى الاسكندرية .

وفى عام ١٩١٨ يزوره محمد عبد الوهاب فى بيته فى ٢ يناير ويقابله سيد درويش فى ٣١ أغسطس ويمتاز عام ١٩ بوقوع أحداث هامة كان لها أثرها فى حياة زكريا أحمد وعن هذه الأحداث يقول : فى ١٩ مارس امتنعت عن الشرب . فى ١٨ مايو سافرت الى السنبلاوين وسهرت عند على أبو العينين . وفى ٢ يونية عرفت أم كلثوم وكانت قد جاءت الى السنبلاوين للاستماع الى ، وسمعتها وهى تغنى مع أخيها خالد ، وعزمتنى عندها فى الريف .. وفى ١٠ يونيو زرت أم كلثوم بطماى الزهايرة وأكلت عندها وزة على الطبلية وفى ٣٠ أغسطس تم زفاف .

ولا تزيد حفلاته فى عام ١٩٢٠ عن ٥٤ حفلة وتتضاعف فى عام ١٩٢١ كما تتعدد مقابلاته لصالح عبد الحى وسيد درويش ويسافر الى المحلة الكبرى فى ١٢ يونية للعمل من أجل شهرة أم كلثوم وينجب بنتا اسمها برلنتى فى ١٤ سبتمبر .. وتموت فى ٢٤ أكتوبر ..

وتزداد شهرة زكريا ويغرد صوته فى عام ١٩٢٢ فى الزمالك

والمعادى ومنشية الصدر عند أعيان البلاد .. ويتعرف الى فاطمة سرى ، وحياة صبرى ويعمل واياهما كما يعمل مع منيرة المهدية وسيد درويش ، ولم يكد ينتهى عام ١٩٢٢ الا ويكون اسم زكريا أحمد على السنة الكثيرين من رجال الفن وسيداته .

لقد أخذ يتعرف الى كبار المطربين والمطربات وأصبحت علاقته الجديدة بهم علاقة زمالة بعد ما كانت فى الماضى علاقات اعجاب ومعرفة من طرف واحد .. واكسبته هذه المعرفة ميزات جديدة .. واكدت له أن الفنان الصادق لا يمكن الا أن يأخذ مكانه فى الحياة ، فمنيرة المهدية التى كانت تعرف فيما مضى باسم زكية حسن .. والتى اكتشفها أحد أبناء الأسرة الأباظية والتى بدأت العمل فى صالة الالدرادو حيث كان يتدفق الذهب من العمد والأعيان ، أصبحت بعد قليل سيدة الغناء العربى وأصبح بيتها ملتقى الشخصيات الكبيرة ، حتى ليعقد فيه حسين رشدى باشا رئيس الوزراء ، مجلس وزرائه فى أخطر فترة مرت فى البلاد فى ابان الحرب العالمية الأولى .

وعلى الكسار الذى كان بالأمس طاهيا والذى لم يعرف الكتابة والقراءة فى صغره ، بل ولا حتى بعد أن كبرت سنه أصبح يمثل بنجاح روايات موليير ويجمع فى مسرحه بين أبطال الفكاهة والغناء ويستأجر كبار الفنانين الايطاليين لرسم المناظر التى يحتاج اليها فى مسرحياته ..

ومحمد عبد الوهاب صبى محمود يوسف الترزى الذى كان يصعد الى المسرح فى الفواصل ليغنى .

انا عندى منجة وصوتى كمنجة
ابيــع واغنى وآكل منجـــة
والذى لم يكن يرتدى سوى جلبابه القصير وفيما بعد البـوه البنطلون القصير .. قد أصبح شيئا يهتم به أحمد شوقى الشاعر الكبير وتهتم به البلد بأسرها .

هذا فى الوقت الذى لم تستطع فيه الأمـوال أن تصـنع من عبد الرازق حجازى بن سلامة حجازى فنانا حتى بالرغم من أنهم كانوا يستأجرون محمد عبد الوهاب ليغنى بدله من وراء ستار ويكتفى عبد الرازق حجازى بتحريك شفتيه . لم يستطع المال .. ولا الجاه .. والاسم الطويل العريق أن يخلق فنانا فى الوقت الذى أصبح فيه صبى الترزى . والطاهى وغيرهما من أقطاب الفنون كل شىء فى دنيا الفنون ..

وبعد سنوات من الكفاح المضنى الشاق المستمر . أحس زكريا أحمد أن قدمه فى دنيا الفنون قد ثبتت .. وبالتالى أن رأسه ارتفع اذ لا شىء يرفع الرأس عاليا ، الا القدم الثابتة ..

اشتغل مقرئا ، فاستطاع أن يبز غيره من المقرئين .. وكان يمتاز عليهم جميعا لا بحلاوة صوته ، بل بسلامة عباراته ومخارج حروفه ، وصدق أدائه واشتغل فى جوقة المقرىء والموسيقى الكبير على محمود ، فسرعان ما ظهر على زملائه ، وتفوق عليهم ولحن للشيخ على محمود ألحانا كانت مثار اعجاب الشيخ على محمود نفسه ، وفى مقدمتها .

« مولاى : كتبت رحمة الناس عليك » .

كما لحن لغيره أدوارا هامة منها ، « ما كانش ظنى فى الغرام ».
ونجحت أغنياته التى لحنها نجاحا كبيرا وبدأت الأيدى تشير اليه ولم يصبه الغرور ولم يتنكر لواحد من أصدقائه ، أو معارفه ، أو جيرانه ، أو أهله كما فعل كثيرون .

وظل يجوب المدن والقرى ، مغنيا ، ومنشدا ، و « صيتا » ولم يرفض أبدا احياء حفلة من الحفلات ، خارج القاهرة حتى ولو كان الأجر المعروض عليه لا يكفى ثمنا لتذكرة السكة الحديد .. لقد كان يرى أن مهمة الفنان ، هى اسعاد الناس فى أى وقت وفى أى مكان وكان يرى دائما عندما يذهب الى بلد غير القاهرة أنه يكسب تجارب ، أكثر مما يكسب مالا .. بالرغم من أن تلك السهرات خارج القاهرة لم تكن سهلة أو ميسورة بالنسبة له أو غيره من الفنانين اذ كانت بحاجة دائما الى أعصاب قوية ، والى فهم صادق ، لأحاسيس الجمهور ..

وانتقل زكريا أحمد الى شارع الفجالة ليكون على مقربة من شارع عماد الدين شارع الفن الذى كانت تتلألأ فيه كل ليلة المسارح ، والمقاهى ، والملاهى ، وقد كانت سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى هى العصر الذهبى لا لشارع عماد الدين فحسب بل للقاهرة والاسكندرية وبعض عواصم الأقاليم حيث شهدت البلاد نهضة مسرحية ، لا مثيل لها حتى ان مسرح البوسفور قد أقيم فى ثلاثة أشهر فقط وراحت الصحف تتهكم على الحكومة لأن هذا المسرح قد أقيم فى ثلاثة أشهر بينما قسلم الرهونات

الحكومى تم تشييده فى سنة كاملة ومصلحة التليفونات فى أكثر من عام ونصف ...

وازداد عدد المسارح وعدد الممثلين وقالت بعض الصحف ان عدد الممثلين سيزيد عن عدد المتفرجين ..

ولم تكن القاهرة والاسكندرية فقط ممتلئتين بالمسارح بل لم تخل أية عاصمة من عواصم الأقاليم من مسرح أو مسرحين على الأقل .

ففى القاهرة ، الأوبرا — والأزبكية — والماجستيك — ورمسيس — وبرنتانيا — ودار التمثيل العربى — وكافيه ريش — والبوسفور .. و .. و ..

وفى الاسكندرية : مسرح محمد على (الهمبرا) وبلفى وكونكورديا و ... و ...

وفى بورسعيد : الأولدرادو ، والجورنوجراف و .. و .. وفى طنطا البلدية والباتيناج .. و .. و ..

وفى المنصورة : مسرح عدن ومسرح البلدية و .. و ..

وكان يشرف على هذه المسارح وزارة الأشغال وبنك مصر والمجالس البلدية وبعض محبى الفنون مثل الحاج مصطفى حفنى ومخالى بوليتى وقلسى اخوان وشارل ماندلقوا وعزيز متولى وعبد الله عبد الغفار وفارس ميخائيل ..

وقد اتخذت بعض الشركات الكبرى كشركات السجاير طريقة جديدة لاجتذاب الجمهور الى بضاعتها ولتشجيع التمثيل فكانت تستأجر الفرقة المسرحية بضعة أشهر وتدفع تكاليفها واجور

الفنانين ويكون الدخول مقصورا على الفائزين فى المسابقات التى تجريها هذه الشركات .

وكانت الروايات التى تمثل فى هذه المسارح تعالج المشاكل الاجتماعية حيث بدأت ، تبتعد عن النقل والاقتباس وتتجه الى تصوير الواقع المصرى تصويرا صحيحا صادقا فنزل الى الميدان كتاب صادقون أمثال تيمور وتوفيق الحكيم وأمين صدقى وبديع خيرى وحامد السيد وأحمد البابلى ، وزكى ابراهيم ، وحبيب جاماتى ، وكانت الفرق التى تتنافس على اخراج هذه الروايات ، فرق على الكسار والريحانى وجورج أبيض وزكى عكاشة ، ويوسف وهبى ومنيرة المهدية وعزيز عيد ، وفاطمة رشدى وصالح عبد الحى و .. و ..

ولم يكن الاهتمام بالفن مقصورا على أبناء المدن وحدهم ، بل امتد هذا الاهتمام الى الريف .. أو بمعنى أدق الى القادرين من أهل الريف .. اذ أن أبناء الريف لا يستطيعون بناء مسارح ، ولا اقامة سرادقات ضخمة ، ولا استقدام كبار المطربين أو المطربات ، الى قراهم .. ولا يستطيعون استضافة بعض الفرق التمثيلية أو الاستعراضية الكبرى ، ولكنهم يستطيعون وخاصة العمد ومشايخ البلاد ، والأعيان ، الذين امتلأت جيوبهم بأثمان القطن ، الذهاب الى القاهرة .. وعواصم المديريات حيث يمتعون أنفسهم بالرقص ، والغناء والتمثيل وحيث يعودون الى قراهم ليمتعوا غيرهم ممن لم تتح لهم فرص مغادرة القرى .. عن طريق الوصف التفصيلى لكل ما شاهدوه فى البندر .

والشيء الوحيد الذى كان غالبية أبناء القرى يقدرون عليه هو استقدام « صييت » من القاهرة ، أو من عواصم المديريات لسد النقص الذى يشعرون به فى قراهم .. وفى أحيان كثيرة كان المقرئون المحليون يقاومون هذه الرغبة ويشكلون أحزابا متعددة، لكى تفسد الليلة ولا تتيح للقادم الجديد — أو بمعنى أدق للضيف المغتصب — فى عرف المقرئين المحليين فرص أداء واجبه كما يجب ، وكثيرا ما كان هؤلاء المقرئون المحليون ، يقولون : ان زائر الحى لا يطرب ، وانهم لو أتيحت لهم فرص الانتقال من قراهم الى المدن لاستطاعوا التفوق على صالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا ، وغيرهما من كبار مطربى ذلك الوقت .

وبالرغم من هذه المؤامرات التى كان يديرها الفنانون المحليون فان النبأ القائل بقدوم واحد من فنانى القاهرة أو المديرية كفيل بحضور أبناء القرى المجاورة ، ومعهم أطفالهم ، ونساؤهم ... ولكى ينجح الفنان الضيف فى أداء مهمته الشاقة ، ينبغى عليه أن يكون قبل كل شىء على قسط كبير من حدة الذكاء ، وسعة الحيلة ثم ينبغى عليه أن يكون بعد ذلك متمكنا من فنه ..

وقد كان زكريا أحمد ، يجمع بين التمكن من الفن وحدة الذكاء وسعة الحيلة ولذلك كان الاقبال عليه شديدا من أبناء الريف ، والمدن الصغيرة .. ولم أجد فى مذكراته التى كتبها مدينة أو قرية لم يزرها ولم يقدم فيها فنه .. ولم يستخدم فيها ذكاءه ...

• • •

ويروى الشيخ زكريا أحمد بالتفصيل قصة ليلة من تلك

الليالى التى اعتاد أن يغنيها فى ريف مصر .. يقرأ .. ويطرب ، وينشد ، فيقول : دعيت لاحياء حفلة عند حسين باشا أحد أعيان المنوفية ومن هواة الموسيقى وقد كنت أحسب أن مدعويه يشبهونه فى حب الاستماع فوطدت العزم على أن أغنى لونا من ألوان الغناء التى تحتاج الى مجهود واتقان .

واستقبلنى الباشا عند محطة القطار « بالركايب » حتى وصلنا الى قصره ووجدنا الطعام والشراب فى انتظارنا ، فاسترحنا قليلا ثم تناولنا الطعام .

وقدمنا الباشا الى كبار المدعوين من باشوات وبكوات وأعيان وكانوا جميعا يظهرون سرورهم بمقدمنا وكل منهم يؤكد أنه هو الذى أشار على الباشا باستحضارنا دون غيرنا .. وكنت أعرف أن هذا الكلام مجاملة لأن صاحب الليلة صديقى يحب لون الموسيقى الذى أمارسه .. وقد تأكدت أننى سأحسن بعون الله الغناء فى تلك الليلة وليس أحب الى الفنان المخلص من أن يوفقه الله ...

ولم يوجه الباشا الدعوة الى هؤلاء وحدهم بل الى سكان القرية جميعا وعلى حسب العادة فى الأرياف أقبل أهالى القرى المجاورة يشاركون جيرانهم فى أفراحهم ..

وجاء وقت الشغل وبدأنا نغنى اللون الذى يحبه الباشا .. ولاحظت عليه علامات الطرب .. والانسجام .. وفى الوقت ذاته لاحظت وجوه الغالبية العظمى من الجمهور يعلوها الوجوم والاستنكار .. فقلت فى نفسى « لعلى غير موفق » .. وأخذت

اهتم بالغناء والباشا ومن معه يطلبون الاستزادة .. وتساءلت فيما بيني وبين نفسي ، ما دام الباشا ومن معه منسجما وسعيدا الى هذه الدرجة فما الذى جعل الوجوم يخيم على بقية الضيوف .. وقلت لعل هذا اللون لا يعجبهم .. فقدمت لهم لونا آخر ، فلم يعجبهم — واخذت أقلد كل من أعرفهم من فحول الغناء واحدا واحدا ..

غنيت لعبده الحامولى ..

الله يصون دولة حسنك　　على الدوام من غير زوال
ويصون فؤادى من ...　　ماضى الحسام من غير قتال
أشكى لمين غيرك حبك　　أنا العليل وانت الطبيب
اسمع وداوينى بقربك　　واصنع جميل اياك أطيب

وغنيت لمحمد عثمان ..

خليلى أنا عبدك　　وسايق لك بالاحسان
وشايفك خلاف عهدك　　وخايف يكون هجران

والنبى ترحم

احبك ولو تهجر　　واكره عزولى فيك
واشكى ولم تعذر　　وسقمى كمان يرضيك

والنبى ترحم

وغنيت لمحمد سالم العجوز ..

الأمر أمرك مش قايلك من زمان ، شوف الأدلة
روحى فى ايدك وهبتها لك بس الأمان من دى المذلة
يا قلب تعرف خلاصك

وغنيت للشيخ على محمود ولسلامة حجازى ، ولسيد درويش وكل ما جال فى ذهنى من كبار الموسيقيين لعلى أكتشف اللون الذى يعجبهم بدل اعراضهم واستكارهم بما تطمع اليه نفسى من رضاه وسعادة ..

ولكن هذه الجهود ضاعت أدراج الرياح لأن السميعة لم يعجبهم العجب .. ولما طال الوقت وبدأت أشعر بهمهمة السامر دعوت الله أن يسعفنى بما يرضى هؤلاء السميعة ..

وبعد انتهاء الوصلة الأولى استأذنت من الباشا واصطحبنى وهو يطيب خاطرى ويظهر سروره لتلبية دعوته .. غير أننى فاجأته بأن طلبت أن يحضر لى واحدا من المغنين الناجحين فى هذه المنطقة وتشبثت بهذا الطلب ولحسن الحظ كان أشهر مغن فى المنطقة حاضرا فى السامر فأرسل الباشا فى استدعائه وقدمه لى فطلبت منه أن يغنى لى قليلا لأننى أريد الاستماع والاستمتاع بفنه والحقيقة اننى كنت أريد أن أعرف ما يعجب هؤلاء السميعة من ألوان الغناء.

فلم يبخل الرجل وغنى .. فاذا به لا يصنع شيئا أكثر من الصراخ والزعيق و « المأمأة » فأدركت السر وفى الوصلة الثانية بدأت صارخا زاعقا على طريقة المغنى اياه فاذا بالأصوات ترتفع « الله الله ياشيخ زكريا » أيوه كده امال « وظللت هذه الليلة أصرخ وأزعق فسروا جميعا الا الباشا والنفر القليل الذين كانوا معه والذين كانوا معجبين بغنائى الأول — فقد لاحظت أنهم كانوا يتأففون ويتألمون ، فلما كان الصباح قال الباشا وهو يودعنى : « ماعرفناش نتمتع بك ياشيخ زكريا ان كان على كده صاحبك

(يشير الى المغنى المزعقاتى) كان فيه الكفاية ، فقلت له : أعمل ايه ياباشا ، أنت كنت عاوزهم يضربولى » .. وقال الباشا : « معلهش تتعوض فى المرة الجاية » .. فقلت : « بس ما تكونشى عازم دول ».

وأثبت زكريا أنه الى جانب تمكنه من فنه فانه عالم بنفسية الجماهير .. وعندما يصل الفنان الى هذه المرحلة — مرحلة التمكن من الفن .. والتمكن من فهم الجمهور — يكون قد قطع شوطا كبيرا فى الوصول الى المجد .. والشهرة .. وقد بذل زكريا فى سبيل الوصول الى هذه المرحلة الكثير من الجهد والعرق .. والأخطاء .. وكانت ميزته الكبرى قدرته على الاستفادة من أخطائه ومن أخطاء الغير ، ولذلك سرعان ما أخذ مكانه بين الفنانين الأصلاء .

عش الزوجية
(أربعون عاماً من الزواج والحب)

بدأ زكريا أحمد .. بخطو خطوات جبارة نحو الشهرة والمجد .. وبدأت الحفلات تنهال عليه من كل مكان في القطر .. وبدأت الجنيهات الذهبية تجرى بين يديه .. وأخذ الشيخ — بحكم عمله — يقضى معظم وقته بين الفنانات وفي المسارح .. واجتمعت الأسرة في أكثر من مؤتمر — مؤتمر الطبلية المستديرة — وكان البحث يدور دائماً حول زواج زكريا .. وكان الوالد ، وقد بلغت سنه أكثر من تسعين عاما حريصا كل الحرص على أن يتزوج ابنه ليستريح ويستقر ، وينشىء أسرة طيبة يخيم عليها الهدوء . لقد امتازت هذه الفترة بالقلق ، كان يحلم في الماضي بالمجد .. وها هو ذا المجد قد أصبح قاب قوسين أو أدنى منه .. وكان يحلم بالمال .. وقد أضحى المال بين يديه .. وقد تغير كل شيء بالنسبة له : الوجوه التي كانت فيما مضى لا تلقاه الا عابسة أو شبه عابسة .. أصبحت اليوم لا تمتد للمصافحة بقدر ما تمتد للأحضان. والبيوت التي طالما أغلقت أبوابها في وجهه وهو في محنته فتحت اليوم أبوابها ، ونوافذها ..

حتى الأب الذى طالما سخر بابنه وبالاتجاه الذى سار فيه

والذى طالما أشبعه وأشبع زملاءه « ترقة » ونكاتا .. أضحى اليوم يفخر بابنه وبالاتجاه الذى سار فيه ..

والأسرة الصغيرة التى كانت لا تطلق عليه الا لفظ « الخايب النايب » أصبحت اليوم لا تلقاه الا بالاحترام والتبجيل ...

ولكن زكريا بالرغم من ذلك كله بل ربما بسبب ذلك كله ، لايبدو سعيدا ولا مطمئنا ، فبالرغم من أنه لا يخلو الى نفسه أبدا، وبالرغم من أنه لا يفارق أصدقاءه أبدا ، وبالرغم من أن الابتسامة الحلوة لا تفارق شفتيه أبدا .. وبالرغم من كل ذلك فانه شعر بضيق ووحدة .. وكآبة .. فقد كان يحس دائما بأنه فى حاجة الى شىء ما ، ولا يستطيع أن يجزم بحقيقة هذا الشىء ..

الفراغ العاطفى يكاد يقتله ..

والجوع الروحى يوشك أن يقضى عليه ..

والحياة التى يحياها طولا وعرضا وشمالا وجنوبا يشعر دائما كأنها ليست حياته هو .. وليست له هو ...

والجذور التى تربطه بالأرض الطيبة التى أنبتته تبدو له أنها من الضعف بحيث ان أى نسمة من هواء تذهب بها .. وتستأصلها.

وقرر — بعد تفكير شاق عميق — أن يتزوج .

وبحث طويلا عن عروس المستقبل .

بحث عنها فى دنيا الفنون التى سيطرت عليه ، وأخذته طائعة مختارة فلم يجدها هناك .. وجد صديقات .. وأخوات .. وزميلات .. ولكن ليس من بينهن من تصلح له زوجة ويصلح لها زوجا .

وبحث عنها فى الأسرة الكبيرة التى يحيى أفراحهـا والتى يشاركها اما بحكم العمل أو بالعواطف آمالها وآلامها ، ولكنه لم يجد الا تلك التى تريده لشبابه .. وفقط لشبابه .. وتلك التى لا يطمع فيها أحد الا لمالها .. وفقط لمالها .

وبحث عنها فى أسرته الصغيرة سواء فى القاهرة أم فى الفيوم ولكنه لم يجد من تصلح له .. ولم يجد من يصلح لها وفى الحق كان مطلبه عسيرا .

انه يريد زوجة من طراز جديد ..

يريدها .. أما وأبا ، وأختا ، وأخا ، وزوجة ، وعشيقة ، يريدها ذات قلب كبير ، واحساس كبير ، وايمان كبير .. انه يريدها تقف دائما الى جانبه ، سواء أكان يتربع على عرش المجد ، أم يهوى فى القاع ، وسواء أكان يملك مال قارون أم لا يملك شيئا على الاطلاق .

انه بحاجة الى امرأة تثق فيه جملة لا تفصيلا .. لا تسأله أين ذهب ؟ .. أو لماذا غاب عن منزله ؟ .. ولا تستجوبه عمن كانت معه بالأمس ، ولا تقلب البيت مأتمـا اذا ما سألت عنه احداهن بالتليفـون ..

يكفيها أنه سيكون لها ، ولها وحدها ، من اليوم الى آخر يوم ، لن يخونها لن يضن عليها بشىء ولن يحاول أبدا أن يسىء اليها أو يسمح لأحد بالاساءة اليها .. وهو بحاجة الى عجينة طرية يسهل تشكيلها وتكوينها .. وتلوينها ..

والغريب انها كانت أمامه وهو يبحث عنها ، تقدم له الشاى

لماذا أصبح .. وتقدم له الغذاء على المائدة . وتسهر واياه الى الوقت الذي تنام فيه . واستغرب من نفسه كيف لم يفكر فيها من قبل وتذكر المثل : « ابنى على كتفى وأدور عليه » .

وكانت لا تتعدى الحادية عشرة من عمرها صغيرة ساذجة ، لا تعرف ماذا يدور حولها ؛ بل لا تعرف ماذا يدور من أجلها ..

وكانت شقيقة زوجة أستاذه الأول درويش الحريرى .

وتحدث فى أمر الزواج مع أستاذه الشيخ درويش ورحب به كما رحبت ، وبدأ عام من الترقب والانتظار .

وذات يوم سمعت الطفلة الصغيرة أصوات طبل ومزمار وغناء فوق السطوح حيث تعودت الأسر أن تقيم أفراحها .. وتظاهرت بأنها سوف تصعد الى السطوح « لتلم الغسيل » .. وبالرغم من أن الملابس لم تكن قد جفت بعد .. فقد أذنت لها أختها الكبيرة ، وجلست هانم بين المتفرجين لتمتع نفسها بالرقص البلدى ، والغناء البلدى .. وأعجبها قول المطرب :

« طلعت فوق السطوح بودع الأحباب
لاقيتهم سافروا ومقفلين الأبواب
حطيت ايدى على عقلى لقيته غاب
وحطيت ايدى على قلبى لقيته ، داب
ما يدوّب القلب الا فرقة الأحباب »

ونسيت الطفلة الصغيرة البيت .. والغسيل .. وموعد عودة الخطيب ، وجاء زكريا احمد الى البيت وكعادته دائما سأل : أمال فين هانم ؟ .. وقالت له أختها « دى فى الحمام » .. وبدا على

الشيخ انه اقتنع .. وخرج لقضاء مهمة فى الخارج .. وبينما هو فى طريقه الى الشارع سمع صوت قبقابها وهى تنزل من فوق السلالم ..

وجاءت هانم ومعها الغسيل فتضايقت أختها من تأخرها وقالت لها : « كويس .. أهو خطيبك جه ، وسأل عليك وأنا كذبت عليه وقلت فى الحمام علشان ما يزعقش لك .. ؟ » .

وعندما رجع زكريا جلس مكتئبا على مائدة العشاء .. وكان الطعام الرئيسى سمكا مقليا .. وهانم تحب السمك المقلى .. غير أن حكاية السطوح والحمام والكذبة التى اقترفتها أختها الكبرى قد سببت لها ضيقا شديدا جعلها لا تجلس الى مائدة الطعام .

وبعد انتهاء العشاء .. سأل زكريا — بعد أن انفرد بخطيبته — عن المكان الذى قصدته عندما جاء ولم يجدها .. فقالت له : « كنت فى الحمام » .. وضربها بالكف على وجهها .. وأمرها بأن تقول الحق . وقالت الحق .. وابتهج زكريا بكلمة الحق .. وصالحها وأحضر لها قدرا كبيرا من الحمص والفول السودانى ، والهريسة.. وقال لها : « أوعى تكذبى مرة ثانية .. أنا ضربتك مخصوص علشان ما تعلميش الكذب » . ولم تكذب مرة أخرى طول حياتها..

وذات يوم طلب زكريا أن يأكل « عجة» من صنع يد خطيبته.. ولعله أراد أن يمتحن مقدرتها على الطبخ .. وذهبت هانم الى أختها لتلقى على يديها درسا فى صنع « العجة » .. وبعد أن انتهت الأخت من شرح الدرس .. سألتها هانم : « بس ازاى الواحدة تعمل وش العجة أحمر » . وقالت الأخت الكبرى « لازم الواحدة

تشعل ورق من فوق الحلة » وذهبت هانم الى المطبخ وعملت « المحبة » وجمعت كل ما تركه خطيبها من أوراق وجرائد ونوتات موسيقية كان يحتفظ بها لأهميتها القصوى عنده — واتخذت من هذه الأوراق الهامة مادة « لتحمير » المحبة .. وشاطت المحبة ..

وضاعت الأوراق الهامة ..

وكان يوما ...

وفى ٢٠ أغسطس ١٩١٩ تم الزواج . وكانت حفلة الزفاف بسيطة للغاية . أقيمت فى حى الأزهر ، وحضرت الحفل قوة من رجال الجيش لأن زوج أخت الشيخ زكريا كان ضابطا برتبة صاغ ... وأحيت الحفلة العالمة المشهورة « فلة » وكان يطلق عليها لقب « 'سطى » ويعاونها بعض السيدات يمسكن بالطبلة ، والطار ، والرق ، والعود .. وغنت فلة ..

بنى يا سمك بنى   يا منقرش ومحنى
طول ليلى وأنا باموت   وحاملة راسى على التابوت
باستنى حبيبى يفوت   لأجل يروح الزعل منى

واشترك فى فرح زكريا أحمد ، عدد كبير من مشاهير الموسيقيين ، والمطربين .. والمنشدين وطالب الجمهور زكريا أن يغنى شيئا ما .. ولكنه اكتفى بأن قرأ الفاتحة .

وانتهت حفلة الزفاف فى مطلع الفجر ...

وأصبحت له زوجة ، كما يحب ويرضى ...

وأصبح هو لها ، كما تحب ، وكما ترضى ...

وابتهج والد زكريا بزواج ابنه .. وابتهج أكثر عندما علم أن

زوجة ابنه حامل .. وصار يزورها كل يوم حاملا معه الهدايا .. والأحجبة والبخور .. والدعوات .. وكانت دعوات الشيخ آناء الليل وأطراف النهار أن يرزق ابنه زكريا ولدا يحمل اسم الأسرة.. غير أن الله لم يلب دعاءه فلقد كانت القادمة بنتا فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢١ وغضب الوالد الكهل وقاطع بيت ابنه .. وتزوج وهو الذى جاوز التسعين من عمره فتاة فى السابعة عشرة من عمرها .. واختار لنفسه سكنا فى مكان ناء يصعب الوصول اليه ..

وذهب زكريا وزوجته الى الوالد فأبى أن يكلمهما وابى أن يستقبلهما فى منزله ..

وماتت الطفلة برلنتى بعد شهر ونصف شهر من ميلادها وكان الشيخ زكريا قد أطلق على ابنته اسم برلنتى كريمة السيوفى باشا وكان الشيخ يعطيها درسا فى الموسيقى ..

وابتهج الشيخ العجوز بالقدر الذى ابتأس به الشيخ الشاب ..

وبدأت قدم الشيخ العجوز « تدب » فى دار الموسيقار الشاب وعادت الابتسامة الى فم الكهل الذى لم يعرف الابتسام منذ أن رزق الله ولده زكريا بأنتى .. ثم تحققت للشيخ الكهل أمنيته عندما رزق الله ابنه زكريا بمولود أسماه يعقوب ..

ابتهج الشيخ أحمد صقر بهذا الحدث الفخم فى تاريخ الأسرة ووزع الصدقات وأقام فى البيت « رابعة » اشترك فيها أكثر من عشرة فقهاء .. وتفرغ لتربية الطفل الصغير ..

ثم طلق زوجته الجديدة ، ابتهاجا بمقدم الطفل الجديد ...

وكان والد زكريا ، لا يرتاح الى انسان قدر ارتياحه لزوجة

ابنه ، كانت بنتا له .. وزوجة لابـه ، وكانت أكثر الناس اهتماما بشأنه واعزازا له ...

وكان زكريا قد ابتدأ يجد سعادة لا مثيل لها فى البيت الهادىء والنموذجى . ولكن الخصوم — خصوم زكريا — أبوا الا أن يحشروا أنفسهم بخبث ومكر وحقد بين زكريا وبين زوجتـه .

وقد اتخذ هؤلاء الخصوم سلاحا جديدا لاشـعال النـار فى بيت زكريا .. فلعل اشعال النار فى هذا العش الهـادىء .. يعوق زكريا عن مواصلة النجاح .. والانطلاق ..

●●●

ولنبدأ القصة بشىء من التفصيل ...

أغرمت المغنية (س) بزكريا أحمد ، غراما لا حد له وراحت تباهى ، بأنه يحبها .. وأنها تحبه .. وأرسلت الوفود تلو الوفود الى الزوجة المخلصة الوفية تحمل اليها أنباء الغرام الجديد ..

واتفقت (س) مع خادمتها على أن تذهب الى هانم زوجة زكريا كل يوم ، وتطلعها — خلسة — على صور زكريا مع المغنية كما تحمل اليها فى الوقت ذاته أخبارا عن علاقة زكريا بها وعن زياراته المتكررة لها فى منزلها ، وعن هداياه التى يحملها لها كل يوم وعن الأيام التى يقضيها هو وهى خارج القاهرة وعن ... وعن ...

والزوجة الشابة ، هادئة ، لا تثور ، ساكنة ، لا تتحـرك ، تبتـسم للأنباء الجديدة وترجو للمغنية المحبة الهداية والتوفيق ...

وهى فى الوقت ذاته ، لا تتوانى عن اسداء النصح الى الخادمة

وتعطيها كل ما هى فى حاجة اليه ، وتغمرها بحبها ، وعطفها وحنانها ...

ونشرت مجلة المسرح فى أول نوفمبر ١٩٢٦ ، تحت عنوان « مذابح الغرام » مقالة على صفحة كاملة جاء فيها ..

« اذا كان القراء يذكرون فلا أظن أنه غاب عنهم أننا فى يوم ما أشرنا الى وجود علاقة حب قائم بين صديقنا الشيخ زكريا أحمد الملحن وبين السيدة المغنية المعروفة وقد اقترحنا اذ ذاك أن يتحد الاثنان فهو يلحن لها وهى تغنى ألحانه فيكون ذلك أنجح من الوجهة المادية .. قلنا ذلك منذ حين ، فقام الشيخ زكريا ينكر هذه العلاقة ، ويقول ان صلته بها لا تتعدى صلة العمل أو المعرفة المجردة من كل صداقة أو رابطة أخرى مجهولة ...

ونحن لا يهمنا بحال من الأحوال أن تكون بينهما علائق أو لا يكون وانما يهمنا أن نروى خبرا فلا يكون كاذبا ولا يقوم دليل ينقضه .. لأن من عاداتنا ألا ننشر خبرا قبل أن نتثبت من صحته ، وقبل أن تجتمع لدينا الأدلة وتتوافر البراهين على صحة ما نروى حتى اذا كلفنا يوما ما بالاثبات كنا على استعداد تام .

وقد قلنا ان الشيخ زكريا قام اذ ذاك ينكر دعوانا واليوم جاءنى سائل يذكرنى بهذه الحادثة ويقول انه سمع الشيخ زكريا ينكر معرفة السيدة (...) فى محل عام .. ويطالبنى هذا السائل : اما أن اثبت وجود العلاقة كما سبق أن ذكرت واما أن أقدم بيانا وتكذيبا لما نشرته سابقا ...

ازاء ذلك وازاء الحاح السائل لم أجد بدا من نشر هذه الصور

بعلى هذه الصحيفة فالصورة العليا تمثل السيدة (...) المغنية المعروفة وبطلة هذه الوقائع ولا لزوم للحديث عنها فى هذا المجال الضيق ، والصورة الوسطى تمثل الشيخ زكريا وقد وقف الى جانب السيدة (...) ولا أحدثك عن ملامح الوجه ولا خلجات النفس ، البادية على المشاعر .

أما الصورة الثالثة فهى رسم قلب فى أعلاه الشيخ زكريا أحمد وفى وسطه السيدة (...) وهى تفكر فيه طويلا ..

هل تريدون اثباتا أكثر من هذا ... ؟ » .

ولم أنشر هنا اسم المغنية المعروفة .. أما نشر الموضوع فقد أحدث دويا فى الوسط الفنى وراح كثيرون يتصرون لزكريا .. وآخرون ينتصرون لهجوم المجلة على زكريا .. وتوقع كثيرون أن تحدث زوبعة عنيفة فى منزل زكريا أحمد .. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث على الاطلاق ... وكان أن اعترفت (س . ف) خادمة المطربة المعروفة لزوجة زكريا أحمد ، وروت لها القصة من ألفها الى يائها .. وكيف كانت سيدتها تدفعها لمقابلتها حاملة معها كل يوم الأخبار الكاذبة والصور الكاذبة ... وروت لها أيضا أنها لم تر زوجها زكريا فى بيت المطربة مرة واحدة .. وقد قدرت هانم زوجة زكريا للخادمة هذا الصنيع .. وساعدتها على أن تعتزل الخدمة وتتفرغ للفن الذى كانت تميل اليه .. وقد تفوقت على سيدتها .. وأصبحت الخادمة بعد سنوات قليلة نجمة من نجوم الفن ... فى الوقت الذى انزوت فيه سيدتها ...

وجاء الى زوجة زكريا فيما بعد من يعترف لها . بأن الصور

التى نشرت فى مجلة المسرح .. كانت صورا مزورة ، وأن القصة كلها لم يكن لها أساس من الصحة ...

وقد ارتاحت الزوجة لظهور الحق .. وان كانت لم تشك لحظة واحدة فى زوجها ...

وانتصرت الزوجة الصابرة على كل الأقاويل والاشاعات وبقيت لزوجها .. وبقى زوجها لها ...

لقد كانت زوجة مثالية تقدر تمام التقدير رسالة الفنان ورسالة زوجة الفنان ...

لقد عاشت هانم الى جوار زكريا تحتضن أحلامه .. وتقفز معه أسوار الزمن وتنتقل فى ذكاء عبر المراحل التى قطعها الشيخ زكريا من عضو فى بطانة الشيخ درويش الحريرى والشيخ سكر الى ملحن يتقاضى عن الأغنية الواحدة ٧٥٠ جنيها .. وكما تطور الشيخ زكريا تطورت هى فى مداركها وفى أفكارها وفى ظروف حياتها .. كانت تجلس مع أصدقائه ، وزوجات أصدقائه وتتحدث فى الفن والشئون العامة تماما كما يتحدثون .. نفس المستوى من اللباقة والذكاء وخفة الروح .. وكانت العواصف تهب على حياة زكريا بين الحين والحين .. كان يملك العشرات فى يوم ثم يضيعها فى اليوم الذى يليه .. وذات يوم قال لها الحاج محمود المرشدى أحد أصدقاء زوجها . « يا بنتى الشيخ زكريا ايده سايبه ، اعملى حسابك لليوم الأسود .. ووفرى القرش الأبيض » وعملت الزوجة الذكية بالنصيحة ...

وعرف زكريا لها هذا الصنيع الذى وفر عليه كثيرا من المشقات

وجنبه كثيرا من المآزق فقد وجد فى الأيام السود ما يحفظ كرامته..

واذكر انى زرت زكريا فى لحظة كان قد هجر فيها الدنيا ... ترك تلحين الأغانى وابتعد عن أهل الهوى من الأصدقاء والزملاء .. وكنت أريد أن أنفذ الى السبب الذى يختفى وراء هذه العزلة ... ثم عرفته ..

كانت زوجته مريضة . وقد آلى على نفسه ألا يغادر البيت الا بعد شفائها التام وهكذا حبس زكريا أحمد نفسه أسبوعين كاملين لم يكن يغمض له فيهما جفن ..

وعندما تم شفاء زوجته خرج الى الأهل والأصدقاء يصافح الدنيا وكأنه ولد من جديد . والشيخ زكريا الرجل العنيد .. والمعتز برأيه فى كبرياء ... الرجل الذى وقف بكل ايمانه وتحديه فى وجه أربع صحف كبرى وفى وجه الاذاعة وهى مصدر رزقه لم يكن يستطيع أن يجد فى نفسه القوة لمواجهة زوجته فى رأى تراه خاطئا وخاصة اذا اتصل ذلك بصحته .. نعم كان الشيخ زكريا يخاف زوجته ، كان خوفا مصدره الحب .. ومبعثه الاشفاق ... نصحه الأطباء بعدم التدخين وألح عليه أصدقاؤه ونصحوه بأن يكف عن هذه العادة التى تضر بصحته ولكنه أبى .. كان يدخن أمامهم علانية فاذا ما ذهب الى البيت وأشعل سيجارة وعرفت زوجته دبرت وأولاده مكيدة للشيخ : أعدوا العدة لأن تضع أمامها فنجانا من القهوة حتى اذا جاء الشيخ أشعلت سيجارة وراحت تدخنها .. حسبوا أنه لابد أن يثور فتقول الزوجة .. ولماذا تدخن أنت ؟ كما حسبوا مرة أخرى أن النتيجة ستكون هى

اقلاع الشيخ عن التدخين وعاد الشيخ زكريا ورأى فنجان القهوة أمام زوجته والسيجارة بين أصابعها فلم يثر .. فقال بلهجته الحلوة :

ألم أقل لك ان طعم السجاير لذيذ ... ؟

واعترفت الزوجة ... واعترف الأبناء بخطتهم ، أو مكيدتهم وضحك الشيخ زكريا واقلع عن التدخين ...

• • •

ولا شك أن السر فى نجاح زكريا أحمد يعود الجزء الأكبر منه الى هذه السيدة ... الذكية ، المتطورة التى ترعى الحياة للفنان بقلبها الكبير ، وتسدد خطاه بتضحيتها وايثارها ، وتصعد معه من السفح الى القمة بعزيمة لا تضعف وارادة لا تلين .

والزواج الناجح مهمته عسيرة بالنسبة لكل امرأة .. انه فى حاجة الى كفاح ووعى وبذل وتضحية ... هذا اذا تزوجت المرأة من رجل عادى فما بالك اذا كان الزوج عبقريا لا يخضع للنظام ولا يرتضى التقاليد ويأبى أن يطوى جناحيه فى قفص حتى ولو كان هذا القفص من الذهب الخالص ...

ان مهمة المرأة فى هذه الحالة ستكون أصعب وأشق .. سيكون عليها أن تقف فى وجه طبيعتها كأنثى ، تغار على زوجها وتثور لأنوثتها .. وتغضب لكرامتها ...

ان بيت الفنان هو دائما كعبة تتطلع اليها أنظار المعجبين والمعجبات وهو يستقبل كل يوم وفى كثير من الأحيان كل ساعة

اعدادا كبيرا من الناس من بينهم نساء قادرات على ادارة الرموس وتغيير مجرى الحياة ...

وعلى الزوجة أن ترى كل هذا وتسكت ... بل عليها الا تكتفى بالسكوت ... بل أن ترحب ..

والفنان بحكم عمله أو بحكم الظروف التى تحكم هذا العمل يسهر خارج البيت ويتناول طعامه بعيدا عنه ... وعلى الزوجة أن ترضى بكل هذا ولا تتكلم ... بل عليها الا تكتفى بالاعتراف للزوج بهذا الحق ...

وهكذا يكون العبء الذى يقع على زوجة الفنان ثقيلامرهقا.

ولذلك كان نجاح الزواج فى الوسط الفنى ، نادرا أو أقل من النادر ...

وقصة زوجة زكريا أحمد وزواجه هى احدى القصص النادرة فى بيوتنا الفنية انها قصة زواج ناجح فى بيئة عاصفة قل أن ينجح فيها زواج ...

لقد سمعناها أكثر من مرة ، تروى الأيام التى عاشتها معه والتى كانت لاتجد فيها الدواء للاولاد ... والتى كانت لا تجد فيها القوت الضرورى ... وهى تعلم أن كبرياء زوجها هو الذى سبب ذلك كله ... وهى تعلم أن حرص زوجها على كرامته هو الذى أثار هذا كله ... ومع ذلك لم تقل له كلمة .. تسفه فيها رأيه ... أو توجه اليه لوما ما ...

كانت دائما الى جواره فى السراء والضراء والغنى والجوع... والصعود والهبوط ، اذا تنكر الناس له جميعا بقيت هى ... واذا

خاصمه الناس جميعا فالها وحدها تصالحه ... واذا أقفرت يده من المال .. فان لنظرة واحدة اليها تمنحه السعادة ...

ولهذا فقد دام الزواج بل دامت قصة الحب التى ربطت بين الزوجين أربعين عاما كاملة ... كان أول يوم فيها تماما كآخر يوم .. سعادة .. وانسجام .. وحب قوى .. ذكى ..فعال .

الفن فى ثورة ١٩١٩

فى خلال الحرب العالميـة الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) بذلت بريطانيا كل ماتملك من جهد وأموال ومؤامرات للقضاء على كل مقـومات البـلاد .. وجعلها قطعـة لا تتجزأ من الامبراطورية البريطانيـة التى لم تكن الشمس تغرب عن ممتلكاتها وقتئـذ واستوزرت بريطانيا عددا من الشخصيـات التى اتسب بعضها زورا وبهتانا الى مصر وكان رئيسهم « صاحب عطوفة » فاصبح يحمل « صاحب الدولة » وكان الوزير يحمل « صاحب سعادة » فأضحى « صـاحب المعالى » ... ومن طريق هؤلاء تم اعلان الحماية البريطانية على مصر ، واعلان الأحكام العرفية للانتقام من شعب مصر .. كما تم تخويل القوات البريطانية حقوق الحرب فى الأراضى والموانى المصرية ونفذت بالقوة والعنف الرقابة على الصـحف وقوانين منع التجمهر وملا الوزراء المصريون السجون والمعتقلات بالأحرار من المواطنين المصريين وحشدوا ١٫١٧٠٫٠٠٠ مصرى فى تلك الفرقة التى سموها فرقة العمال والجمالة ... وجمعوا من الريف المصرى ١٢٫٠٠٠ مصرى ساقوهم الى الميدان بلا غذاء ولا دواء ولا غطاء ... ودفعوهم فى مقـدمة القوات المحاربة ... ثم أهدى هؤلاء الحكام ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات الى

الحكومة البريطانية التى بادرت ففرضت حمايتها على مصر ... وتنازلت وقبلت أن نحتلها ، وتستنزف دماءنا وأموالنا ...

ولم يستقل احد من الوزراء أو كبار الموظفين أو اعضاء الجمعية التشريعية احتجاجا على هذه الأعمال العدوانية وعاش الوزراء المصريون وكبار الموظفين ينعمون بكل شيء فى ظل الاحتلال البريطانى نعموا بالمرتبات المغرية ... والمناصب الكبرى... عاشوا وماتوا .. بل ماتوا قبل أن يعيشوا ... عاشوا اسما ... وماتوا فعلا ... خونة ... خونة .

ولم تستطع وسائل الكبت والضغط والارهاق التى استخدمتها سلطات الاحتلال ان تقضى على كل منفذ من منافذ حرية الشعب ... كما لم تستطع الوسائل التى استخدمها دعاة الاستعمار ، وأذنابه ، لتضليل الشعب ونشر راية اليأس فى كل مكان ، لم تستطع كل هذه الوسائل القضاء على مقومات شعب مصر وامكانياته ، والحيلولة دون تحرره وانطلاقه ... وكان الفن نافذة من النوافذ التى فتحها الشعب يستنشق منها الهواء الطلق الحر ، وعرف سلطات الاحتلال ، مدى أهمية هذه النافذة الهامة فبذلت كل امكانياتها لاغلاق هذه النافذة ... واستولت على كشكين للموسيقى فى الازبكية كانت الجماهير تلتف حولهما فى المواسم والاعياد للاستماع الى بعض الوان الموسيقى ... بل استولت على حديقة الأزبكية نفسها . وكانت أهم رئة للفن فى ذلك الوقت وخصصتها طوال مدة الحرب للجنود الانجليز ... ثم اغلقت معظم محال الغناء والرقص ، والملاهى وفرضت اقامة اجبارية على

بعض المطربين ، والمنشدين ، من المصريين ووضعت رقابة شديدة وسخيفة على كل الأغانى والروايات والفكاهات ، وعندما غنى سلامة حجازى فى رواية شهداء الغرام :

« زمن يعلمنا الفجور ملوكه فيه وآثام الخنا ملكاته .. »

قامت ضجة عنيفة وهددت الحكومة الشيخ سلامه حجازى فى حريته كما هددت باغلاق مسرحه الى أن تم تعديل البيت على النحو التالى :

زمن يعلمنا الفجور شيوخه فيه وآثام الخنا ساساته

وعندما ما عزلت بريطانيا الخديو عباس حلمى ، وولت مكانه عمه السلطان حسين غنى الشيخ سلامه حجازى فى رواية هملت :

عم يخون وأم لا وفاء لها أم ولكن بلا قلب ولا كبد

واستدعى سلامه حجازى الى البوليس للتحقيق معه وطلبوا منه استبعاد هذا البيت من الرواية وقد تم ذلك فى الليلة التالية .

وعندما قدم على الكسار وأمين صدقى رواية « ليلة ١٤ » لاجازتها ، تدخلت الرقابة بصورة سخيفة وجعلت اسم الرواية « القضية رقم ١٤ » ويصف الدكتور فؤاد رشيد هذه الفترة فيقول : لقد فرضت قيود شديدة على الاضاءة وحددت الساعة الحادية عشرة مساء كأقصى ميعاد للعمل بالمسارح والملاهى وامتلأت الشوارع بالجنود البريطانيين وفرضت رقابة شديدة على الصحف والروايات المسرحية كما حذفت كثيرا من المشاهد فى كثير من الروايات بحيث تركتها مبتورة لا تصلح للعرض وخلال

تلك الظروف اضطربت النفوس وتهيب الناس السهر وتوقع الجميع للمسرح كسادا كبيرا » .

ثم قامت ثورة ١٩١٩ لتحرر البلاد من الاحتلال .. والظلم.. ولتزيح الكابوس الذى ظل جاثما فوق صدور البلاد قرابة أربعين عاما ... ولتقضى على الولاء للاجنبى الذى صار شعار الحاكمين ، وبعض المحكومين ، ولتنقذ البلاد من الفساد الذى أصبح الطابع المميز لكل ناحية من نواحى الحياة ولتحرر البلاد من الذل والنفاق الذى امتزج بالدم واللحم .. ثم لترد للبلاد هيبتها التى ضاعت وحقوقها التى اغتصبت وكرامتها التى ديست .. ووصفت السيدة روزاليوسف أثر هذه الثورة فى الفن فقالت : « تتابعت الأحداث وكان اعتقال السلطة الانجليزية لسعد زغلول ونفيه الى مالطة القارعة التى هزت كل انسان ... فأغلقت الحوانيت وأضربت المواصلات من الترام الى الحمير التى كانت وسيلة شائعة من وسائل الانتقال .. وانطلقت المظاهرات من كل مدرسة وكل وزارة وكل شارع تهتف كلها بالاستقلال التام وبحياة سعد وبدت البيوت كأن أهلها هجروها الى الصمصمة كلها مغلقة صامتة تحمل على أبوابها وجدرانها ، نقوشا تمثل العلم المصرى وشعارات تصرخ بحياة الاستقلال وسقوط الانجليز .. وزحف الجنود الانجليز بأسلحتهم وخوذاتهم الى كل حارة من حوارى القاهرة وأصبح الصوت الرتيب فى شوارع القاهرة هو صوت طلقات النيران .. ومضت المسارح تمارس عملها فى هذه العاصفة ووقف الممثلون على

المسرح يؤدون أدوارهم وأصوات الرصاص والقنابل فى الخارج تغطى عليهم والصالة ليس بها الا متفرج أو اثنان وقد ينفتح الباب فجأة ويندفع الى الداخل شبان من الثوار يسرعون الى الاختفاء من مطاردة الانجليز فى حجرات الممثلات وخلف ستائر المسرح .. ويحتفظ الممثلون بهدوء أعصابهم لمقابلة الجنود الانجليز واقناعهم أن أحدا لم يدخل .. وقرر الفنانون يوما أن يقوموا بمظاهرة أسوة بسائر الطوائف فى مصر .. كانت المظاهرات ممنوعة ولا تقابل الا باطلاق النار .. وكانت كل مظاهرة تخرج ، وقد استعدت للعودة بعدد من القتلى والجرحى وفى الساعة المحددة خرجت كل فرقة من المسرح الذى تعمل فيه .. وقد حملت علما كبيرا ، والتقت الفرق كلها فى ميدان الأوبرا أمام فندق كونتننتال .. وكان فى السائرين جورج أبيض وعبد الرحمن رشدى وعزيز عيد ونجيب الريحانى وزكى طليمات ومحمد عبد القدوس ومحمد تيمور وكل من كان يعمل فى المسارح ممثلا أو مخرجا أو عاملا وكان بعضهم يلبس ملابس عربية وبعضهم يلبس ملابس فرعونية.. وتقدمت المظاهرة عربة حنطور تركبها الممثلتان الوحيدتان فى المظاهرة الممثلة الناشئة تحمل علما والممثلة مارى ابراهيم ومعها فى العربة الأستاذ عبد الحليم المصراوى المحرر بالأهرام ، وكان مديرا لمسرح برنتانيا .

وتجمع حول المظاهرة خلق كثير .. وسارت تقطع ميدان الأوبرا ومن حولها تسمى جنازات الشهداء وصيحات الجماهير وتحت تمثال ابراهيم باشا مباشرة رأت الممثلة الناشئة جنديين

[illegible] .. وقد نزف منهما دم غزير .. واتجهت المظاهرة الى شارع عدلى .. ولم تكد تسير فيه حتى تصدى لها جنديان انجليزيان ومشت المظاهرة .. ورفع أحد الجنديين بندقيته وصوبها الى الفانة الناشئة حاملة العلم وتجمدت الفنانة الناشئة من الرعب.. وشعرت بسخونة تغمر جسدها .. واحست كأن رصاصة قد انطلقت واخترقت ظهرها فعلا فتشبثت بالعلم وكأنها تستند اليه .. ولم يكن قد أصابها فى الواقع شىء من هذا الذى صوره لها الفزع .. وقد تبينت فيما بعد أن الجندى الانجليزى لم يكد يرفع بندقيته حتى عاجلته رصاصة من أحد الثوار المصريين كان مختبئا فى شارع جانبى صغير متفرع من شارع عدلى ..

وأسرعت المظاهرة الى مسرح برنتانيا » ..

ولم تكن الممثلة الناشئة التى أشارت اليها روزاليوسف فى كلمتها الا روزاليوسف نفسها ، اذ كانت فعلا وقت الثورة ممثلة ناشئة .. !!

• • •

ولعل أجمل ما كتبه زكريا فى حياته تلك الكلمات النابضة بالحياة التى حلل بها دور الفن فى ثورة ١٩١٩ — قال زكريا بعد أن كتب مقدمة رائعة عن الفن فى ثورة سنة ١٨٨٢ .

« كان طبيعيا أن يكون أهل الفن فى مصر من أسبق المواطنين الى مكافحة الاحتلال الأجنبى والى الثورة ضد الطغيان أيا كان .. ذلك لأن الفن — فى أى زمان وأى مكان — من لوازمه الحرية الكاملة ولا حياة له الا بها .. ولأن الفنان بطبيعة عمله أرهف

حسا ، وأعمق شعورا بمضاضة الظلم وآلام القيود . وهو لذلك أسرع ضيقا وتبرما بكل ما يعوق انطلاقه ، وبكل ما يمس مقدساته من المبادىء والمثل العليا ..

وفي تاريخنا الحديث ، صفحات لا يحصى عددها ، سجلت فيها مواقف ومآثر لطوائف الفنانين ، تعد مثلا في قوة الوطنية وصدق التضحية والعمل بحماسة لاعلاء كلمة الحق ، وانقاذ الشعب من سالبي حريته ومستغليه ...

كان للفن « مثلا » دور كبير في ثورة عرابي ضد استبداد الحكام الدخلاء وآكلهم حقوق الشعب بالباطل ثم ضد التدخل الأجنبي المسلح الذي انتهى بالاحتلال البريطاني البغيض ...

تجلى ذلك في الصور والرسوم الفنية التي ملأت بيوت أفراد الشعب وملأت عيونهم وقلوبهم اعجابا بقائد الثورة وايمانا ببطولته وزعامته .. وتجلى في الأناشيد والقصائد والمواويل والأزجال الحماسية ، التي وضعها شعراء الثورة ورددها المنشدون والمغنون في مختلف أنحاء البلاد وسرعان ما رددها معهم عشرات الألوف من المواطنين المتحمسين الذين تطوعوا للجهاد تحت راية الثورة وبايعوا قائدهم على الاستماتة في الدفاع ..

ولم يقف أثر الفن عند هذا الحد ، حد استثارة الهمم والعزائم للتطوع في جيش الثورة والتبرع له بل جاوزه الى ميادين المعارك المديدة بين جند الثورة وجند الاحتلال .

كان الشعب في خطوط القتال وفيما وراءها يغنى أناشيد الثورة وأهازيجها فتزداد روحه المعنوية قوة على قوة وتشتد همته

بنفسه كما يشتد سخطه على الاحتلال وأعوانه .. فالفلاحون فى حقولهم والعمال فى مصانعهم والطلبة فى مدارسهم وغيرهم وغيرهم من أفراد الشعب يتغنون بلحنها الشجى السهل كالزجل الذى يقول فيه :

بدال ما أقلد أوربى   فى أكلى وشربى
كانت بلادنا لنا جنة   ولهـا شـنة ورنـة
صبحت لأهليها نيران

وكان جنود الثورة ينزلون الى ميادين القتال وقد تزودوا الى جانب أسلحتهم البسيطة بذخيرة قوية لا تنفد مما استمعوا له من ترتيل آيات القرآن المجيد التى تحض على الجهاد وتبشر المجاهدين بأعظم الدرجات عند الله . ومن انشاد القصائد الدينية والوطنية بأصوات بعض اخوانهم المتطوعين :

وفى كل مكان من أنحاء البلاد كانت مواكب الشعب الثائر لا ينقطع سيرها ، ولا ترديدها الهتافات المدوية الملحنة ، تمجيدا لأبطال الثورة والدعاء لهم بالنصر على الأعداء كقولهم :

يا عـرابى   الله ينصـرك
بجيش المؤمنين
يا عـرابى   بكره عسكرك
يكيدوا المجرمين

وحينما انتهت ثورة عرابى تلك النهاية الأليمة بسبب الغدر والخيانة وبعد أن أمن المحتلون وأعوانهم فى التنكيل بقادة الثورة وجنودها بقى كثير من الفنانين يؤدون دورهم الكبير فى تضميد

جروح الشعب وتعبئة قواه من جديد ضد أعدائه فمن مواويل تغنى على الأرغول تحدث بقصة الثورة وبطولة قادتها ومن قصائد تنشد فى حلقات الأذكار وغيرها لتذكير الناس بحقوقهم الضائعة ولعدادهم للثأر والانتقام ومن ذلك قصائد حماسية للبارودى والنديم وأحمد عبد الغنى وأحمد المليجى ويعقوب بن صنوع وغيرهم ، وللأخير قصيدة سماها « القول الوجيز فى دخول الانجليز » نشرها فى مجلته « أبو نضارة » ولحنها الشعب وغناها .. وفيها يقول :

يا راوى الدهر حدث عن أبى العجب
واندب زمان التصافى يا أخا العرب
ما بين جهل وحقد ضاع سؤددنا
واستأصلتنا يد الارزاء والكرب
هذا العزيز تخلى عن سيادته
للانجليز ولم يقبض سوى الكذب
مصر الفتاة أبو سلطان سلمها
والما سلم الاسلام بالذهب

وحينما قام الزعيم الشاب : مصطفى كامل مطالبا بجلاء المحتلين منددا بأعمالهم الوحشية فى دنشواى كان الفنانون من الأدباء والشعراء والزجالين والملحنين والممثلين فى مقدمة من هبوا لتأييد دعوته وترسم خطاه فى مكافحة الاحتلال وأذنابه وتأليب الشعب ضدهم ثم كان انتصاره على كرومر عميد الاحتلال وكان اخراجه من مصر فرصة طيبة لمضاعفة كفاح الفنانين فى سبيل الحرية

والاستقلال . فلما اختار الله مصطفى الى جواره كان موته بعثا للامة كلها من مرقدها ، ونهوضا بها من كبوتها .. وفى موت الزعيم وسيرة حياته أنشئت قصائد ومواويل وأزجال وقصص منظومه وتبارى الفنانون فى تلحينها وانشادها وحفظها وترديدها بحماسة واعجاب فى مختلف المناسبات .

وأحد المواويل التى حفظها الشعب منذ ذلك الحين يعزو — فى صراحة مؤكدة — موت مصطفى كامل الى تأثره بسم قاتل وضعه المحتلون ليتخلصوا من الحاحه فى مطالبتهم بالجلاء .. ومن اللهار العالم كله على فضائحهم ومخازيهم الاستعمارية .. ولا تزال لهذه الاشاعة السياسية المقصودة مكانة الحقيقة الراسخة عند كثيرين من أفراد الشعب لكثرة ما سمعوه وتأثروا به فى استماعهم لذلك الموال وفى ترديدهم اياه ..

وقيام الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ هيأ بدوره للفنانين المصريين فرصة لتهيئة الشعب وتعبئته للقيام بثورة سنة ١٩١٩ .

لقد زادت مصائب الاحتلال ونكباته ورزاياه خلال تلك الحرب فأعلنت بريطانيا حمايتها على البلاد وفرضت الأحكام العرفية والعسكرية وجند أكثر من مليون مصرى وسيقوا كالبهائم ليناضلوا من أجل الامبراطورية البريطانية وليبذلوا شبابهم رخيصا بل ليبذلوا حياتهم كلها جوعا وعريا ومرضا جزاء لهم على ذلك النضال الذى أرغموا عليه ارغاما وقيل كذبا وبهتانا انهم متطوعون..

ولم يكتف المحتلون بذلك فأخذوا فى نهب أقوات الأهلين وسلبهم ماشيتهم مما زاد فى فداحة الغلاء ومرارة الظلم والحرمان

ثم لم يكفهم هذا أيضا فتوالت اعتداءات جنودهم على الآمنين والآمنات من المواطنين والمواطنات ..

في تلك الفترة الخطيرة من تاريخ مصر الحديثة كانت أفواه الشعب مكممة وأقلامه محطمة فالجمعية التشريعية معطلة وكذلك أكثر الصحف الوطنية والرقابة الصارمة مفروضة على ما بقي منها والاجتماعات ممنوعة .

ولكن عمال السلطة أنفسهم لم يعدموا فنانين شعبيين من بينهم عرفوا كيف يصوغون تلك المظالم التي يقاسونها في أناشيد رائعة المعاني والتلحين سهلة الأداء في مقدمتها :

يا عـــزيز عيـــني ... أنا بدي أروح بلدي
بلـــدي يا بلـــدي ... السلطة خدت ولدي

ونشيد شعبي آخر يقول : —

يا عـــزيز يا عـــزيز ... كبه تاخـــد الانجليز

وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى انطلق الشعب في ثورة وطنية عارمة مناديا بالاستقلال التام أو الموت الزؤام وتوالت الاضرابات والمظاهرات والاحتجاجات وعمد المحتلون الى وسائل البطش والقمع والارهاب والخداع محاولين اطفاء نيران الثورة التي اندلعت ضدهم في كل مكان .. فأطلقوا نيران المدافع على المتظاهرين وحرقوا قرى بأكملها وكثرت الاعتقالات والمحاكمات الصورية وأدت المحاولات الغادرة والدنيئة للتفريق بين عنصري الأمة : المسلمين والأقباط ولكن الأمة المؤمنة الثائرة مضت في ثورتها وصممت على بلوغ أهدافها وتحقيق مطالبها ...

وكان دور الفنانين فى ذلك الكفاح عظيما حقا اذ انهم لم يكتفوا بالمشاركة فى المظاهرات والاجتماعات المتتالية فى المساجد والكنائس بل أخذوا على عاتقهم مع ذلك مهمة أجل خطرا وأعمق أثرا هى مهمة اذكاء تلك الروح الوطنية الثائرة وتزويدها بوقود من الفن الموجه المتغلغل فى النفوس .. ففى المسارح القليلة التى سمح الاحتلال باستمرارها فى العمل كانت شخصية المحتل الغاصب البغيض تبدو فى صور فنية مختلفة تثير حماسة الشعب ضده وضد كل ظلم واستبداد واستغلال . وكانت الألحان الوطنية ، القوية التى وضعها الموسيقار المصرى العبقرى الشيخ سيد درويش ما تكاد تردد على المسرح حتى يحفظها جمهور المتفرجين لسلاستها وبساطتها وقوة تعبيرها وفى الوقت نفسه كان الشيخ سيد ولفيف من الممثلين والمنشدين يؤلفون من بينهم فرقا عدة تمضى النهار أو أكثره فى الطواف بأنحاء العاصمة للاندماج مع الشعب فى مظاهراته واجتماعاته وتلقينه تلك الألحان وفى مقدمة ألحان الشيخ سيد التى ظهرت فى السنة التالية لقيام الثورة من تأليف الأستاذ بديع خيرى ، اذكر منها :

قوم يا مصرى	مصر دايما بتناديك
خد بناصرى	نصرى دين واجب عليك
رد سعدى	قبل ما يروح من ايديك
أوعى مجدى	يروح هدر قدام عنيك
دول جدودك	فى قبورهم ليل نهار

وغيرها من الألحان التى كان الشعب يحفظها عن ظهر قلب ، ويرددها فى مظاهراته وكل غدواته وروحاته ...

واحب أن أسجل أن كثيرا من الفنانين فى ذلك الحين ، كانوا أعضاء فى الجمعيات السرية التى تكافح المحتلين ، ومن هؤلاء الأستاذ بديع خيرى . وكان يقوم بطبع المنشورات الوطنية التى توزع على الشعب فى مطبعة سرية كان مقرها فى بلدة محلة حسن، بضيعة أحد الأمراء السابقين ، .. ذرا للرماد فى عيون الجواسيس ..

وكثيرا ما حدث أن فاجأه الانجليز برصاص المدافع والمتراليوزات أثناء ذهابه الى الجمعية أو رجوعه منها .. وقد اضطر مرة الى البقاء عشر ساعات كاملة مختبئا فى صندوق القمامة .. للنجاة من رصاص الانجليز ...

وكان سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ يعرف لبديع فضله فى تأييدها ، وقد زاره مرة فى المسرح ومعه المرحوم محمود صدقى زوج شقيقة قرينته المرحومة أم المصريين ، والمرحوم سعيد عنانى، وبعد أن شاهد الرواية التى كانت تمثل فى تلك الليلة ، أثنى عليه كثيرا وأفاض فى تقدير وطنيته ... » .

• • •

ولم يشأ زكريا أن يشير الى الدور الذى قام به — كشاب — فى ثورة ١٩١٩ لقد انغمر زكريا فى أتون الثورة ولئن كان دوره فيها غير قيادى فقد كان فى الواقع جنديا مخلصا للثورة ، صفى أعماله ، ولم يقبل الارتباط بأعمال جديدة منذ ٩ مارس سنة ١٩١٩ . وفى المرات التى سافر فيها الى الأقاليم لم يكن

الغرض من السفر قراءة القرآن أو قراءة قصة المولد النبوى ، أو الغناء ، بقدر ما كان يقوم بحمل بعض الرسائل من ثوار القاهرة الى ثوار الأقليم والعكس . وكانت هذه الرسائل تحمل فى طيات شال العمامة . وعندما كان يقرأ القرآن فى القاهرة أو فى الأقاليم كان يختار الأيات التى تحض على الاستبسال فى الدفاع عن الأوطان والجهاد فى سبيل الله .. وأكثر من مرة .. وفى أثناء وزارة يوسف وهبة باشا التى تولت الحكم رغم أنف الساسة الوطنيين ورغم اجماع الأمة على مقاطعة الحكم . كان يقرأ وسط الشبان الوطنيين الثائرين قول الله تعالى :

« اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم » .
وكان يقرأ هذه الآية بالسبع قراءات مرة .. وبالأربع عشرة قراءة مرات أخرى .. وأكثر من مرة اشترك فى اجتماعات الأزهر والقى خطبا وأناشيد وأغانى كانت تقابل من الجمهور بالتصفيق والهتاف ..

ولحن زكريا أحمد فى هذه الفترة ألحانا سرت فى الشعب سرى النار فى الهشيم ومنها ما قد غناه عبد اللطيف البنا « قال يا سعد مين غيرك زعيم »و«يا مصر دى أيام أنسك»و«لمصر فيك يا سعد » ، ومنها ما قد غناه زكى مراد كنشيد « مصر أولادها رجال » « ونار الوطنية فى القلب » وكان لزكريا أحمد نشيد اسمه نشيد « سعد زغلول » كان يلقى فى بداية العمل بمسرح الماجستيك حيث كان الجمهور والمنشدون والمطربون يرددونه جميعا وقوفا ..

لقد اتصل زكريا كفرد من أبناء الشعب بثورة الشعب .. وبذل أقصى ما يستطيع بذله لانجاح هذه الثورة ، لم يفعل ذلك رغبة

فى منصب أو مال ، أو وسام وانما فعل ذلك ايمانا منه بأن واجب المواطن أن يقف على وطنه ، دمه ، وجهده وروحه ، وكل ما يملك ... ولذا كان زكريا جنديا مجهولا ، فى هذه الثورة . فما أكثر ملايين الجنود المجهولين ... ولذا كانت الثورة قد أضاعتها فيما بعد الاتهامات .. والانحرافات ، فحسبه أن أدى واجبه .. وحسب الثورة أن الوفا من أمثال زكريا أحمد كانوا من صنع هذه الثورة .. لقد انطلق زكريا أحمد فى أعقاب الثورة .. انطلق ليرفع راية الموسيقى العربية .. انطلق ليجعل من الفن أداة طيعة لخدمة الوطن فى شتى مجالاته ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية ..

تلاحين زكريا

(٥٦ أوبرا و "أوبريت" من تلحين زكريا)

ثلاث محاولات هامة فى تاريخ مسرحنا العربى لها الفضل فى وجوده ، المحاولة الأولى كانت على يد مارون النقاش فى لبنان حيث تجرأ فى نهاية عام ١٨٤٧ على تمثيل رواية « البخيل » . .

كان مارون النقاش هو مؤلف الرواية وملحنها ، وكانت أسرته تقوم بالتمثيل معه .. وكان بيته هو المسرح ، فلما رضيت الحكومة عن تمثيله ، صدر فرمان عال بانشاء مسرح بجوار بيته ، وقد تحول هذا المسرح عملا بوصية مارون الى كنيسة .

أما المحاولة الثانية فقد كانت فى مصر وقام بها يعقوب بن صنوع المعروف باسم « أبو نظارة » الذى أنشأ فى عام ١٨٦٩ مسرحا للجمهور المصرى ، وسط حديقة الأزبكية وقد استطاع أن يحصل على اذن من الخديو اسماعيل بتمثيل رواية كتبها فى فصل واحد ، باللغة العامية وأدخل فيها بعض الأغانى الشعبية الشائعة . وقد نجح يعقوب فى تحفيظ الرواية لعشرة من الشبان الأذكياء اختارهم من بين تلاميذه وتزيا أحدهم بزى امرأة وقام بدور العاشقة ونجحت المسرحية .. ونجح مسرح يعقوب بن صنوع

— موليير مصر كما أطلق عليه وقتئذ — فى أن يلعب دورا خطيرا فى تهيئة الرأى العام ..

وكانت المحاولة الثالثة ، عندما قدم الموسيقار الشيخ أحمد أبو خليل القبانى — كما يقول الأستاذ زكى طليمات فى مقال له عن المسرح العربى الحديث ، نشره بمجلة الهلال — الى مصر على رأس فرقة تمثيلية ، من دمشق هاربا من تعسف الأتراك وقدم لونا جديدا من المسرحيات يتسم بسمات جديدة أهمها أن المسرحية على يده بدأت تنهج نهجا جديدا يخالف مسرحية النقاش المترجمة. ومسرحية أبو نظارة المقتبسة . وذلك من جنب مواطن الاستلهام فقد كان القبانى يستلهم موضوعات مسرحياته من التاريخ العربى والاسلامى ، ثم من حيث انه جعل الغناء والعزف عنصرا هاما فى المسرحية ، كما أدخل الرقص الايقاعى العربى فى بعض مشاهد المسرحية ، فالقبانى هو بحق أبو المسرحية التاريخية العربية والمبتدع للمسرحية الغنائية الأوبريت فى مرحلتها الأولى .

وقد عمل سلامة حجازى مع القبانى ، طويلا ، وتأثر بمنهجه للتمثيل والموسيقى فلما اتيح له أن ينشق عن جوقة اسكندر فرح فى فبراير سنة ١٩٠٥ ويؤلف فرقة خاصة به ، انطلق يعلى من البناء الذى شاده القبانى ، بل لقد استطاع أن يخلق مسرحا غنائيا، اعتمد أولا وقبل كل شيء على صوته كمغن ، ومنشد وفى ذلك يقول الأستاذ زكى طليمات : —

« لقد امتاز العقد الأول من القرن العشرين بذيوع المسرحية الغنائية على حنجرة الشيخ سلامة حجازى ، وبارتقاء المسرحية

[illegible] الإخراج على يد عزيز عيد الذى نعتبره شيخ
المخرجين [illegible] حجازى على صوت فريد فى جهارته
[illegible] وصداه [illegible] الى القلوب بحيث يضفى بهاء على ما ليس
[illegible] بهاء الا انه كان يعمل فى مسرحيات لم تستوف حقها من شرائط
[illegible] التى يجب توافرها فى الرواية الغنائية (الأوبريت) كما
ان سلامة حجازى لم يكن يعنى بالتلاحين الجماعية ، قدر عنايته
بالتلاحين الفردية ، ولم تعالج هذه التلاحين الصيغة المحلية لأنها
واردة فى مسرحيات مترجمة أو معربة على أن ما قدمه سلامة
حجازى يعتبر تمهيدا وافيا الى ما قدمه الموسيقار سيد درويش
من تلاحين ذات صبغة محلية واضحة تشدها وحدة موسيقية وذلك
فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعد ثورة ١٩١٩ اذ نبض الوعى
المصرى نبضا دافقا عمل بثورته على استخلاص ذاتية مصرية ،
سرعان ما شملت جانبا كبيرا من نتاج الأقلام المصرية فى التاليف
للمسرحى » .

لقد كان واضعو المسرحيات التى كانت تقدم قبل ثورة ١٩١٩
— أو معربوها أو مقتبسوها — يتعمدون وضع الأغانى والأناشيد
كيفما اتفق ، لجذب الجمهور الذى لم يكن يقبل الا على
المسرحيات الغنائية ..

ثم جاء سلامة حجازى ، فطور الغناء فى المسرحية المترجمة
أو المؤلفة الى اتجاه يقربنا من الواقع المصرى .. ففى مسرحية
شهداء الغرام — مثلا — يغنى سلامة حجازى :

عليك سلام الله يا شبه من أهوى
ويا حبذا لو كنت تسمع لى شكوى
اذن لشكا قلبى اليه غرامه
وبثك ما يلقى من الوجد والبلوى
أتانى الهوى من قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلبا كان قبل الهوا خلوا

وفى نص الرواية يغنى سلامة حجازى :

سلام على حسن يد الموت لم تكن
لتمحوه أو تمحو هواه من القلب
سلام على غصن ذوى فى رياضه
على حين جرى الماء فى الغصن الرطب
سلام على بدر هوى من سمائه
وما كان عهد البدر يغرب فى الترب
سلام على شمس توارت فأسبلت
دموعى ولا بدع فذى عادة السحب
سلام على قلب بحبى قضى أسى
وها أنا أقضى الآن من ذلك الحب

• • •

أجولييت ما هذا السكوت ولم أكن
لأعهد فيك الصمت عنى فى قرب
لمائتة أنت نعم ، لا ، فأنت لا
تموتين بل تحيين منى فى قلبى

وعما قليل سوف أقضى وعندها

تموتين اذ لابد يقتلني كربي

وكان لداوود حسنى فضل كبير فى تلحين مسرحيات لعبت دورا كبيرا فى نهضتنا الغنائية ، وفى مقدمتها « صباح » التى ظلت تعرض على مسرح الأزبكية أربعة شهور متتالية ، ومنها معروف الاسكافى والشاطر حسن و ... و ...

ثم كانت الثورة الكبرى على يد سيد درويش . اذ لحن لفرقة جورج أبيض « فيروز شاه » ، ولحن لفرقة عكاشة « هدى » و « الدرة اليتيمة » ، و « عبد الرحمن الناصر » كما لحن لفرقة منيرة المهدية ، رواية « كلها يومين » ، والفصل الأول ونصف الثانى من رواية كليوباترا ثم تقاسمت فرقة الريحانى وفرقة على الكسار الجزء الأكبر من نشاط سيد درويش ، فكان من نصيب الريحانى . « ولو — اش ، قولوا له ، .. فشر ، العشرة الطيبة » ، ولحن لفرقة الكسار سبع روايات تعتبر من أثمن الذخائر فى تاريخنا الفنى ومنها : راحت عليك ، ولسه ، وأم أربعة وأربعين ، الهلال ، البربرى فى الجيش ، ومرحب ، والانتخابات » ولحن سيد درويش لفرقته الخاصة ، مسرحيتين غنائيتين هما « شهرزاد » و « البروكة » وقد وصف الأستاذ توفيق الحكيم أول مرة رفع فيها الستار عن رواية « البروكة » فقال :

« لا أنسى أبدا تلك الليلة التى ظهرت فيها البروكة لأول مرة ، ورفع الستار وجرت الألحان تصور مختلف المناظر والمواقف والعواطف من نشيد الجنود الظافرة مثل لحن « املا الكاسات »

الى الاحتفال بالانتصار الى وصف الريف ، بمباهجه وخرافه فى لحن « أحب خرفانى السمان » خرجنا من تلك الرواية فى شبه ذهول وكان الليل قد انتصف ، ولكننا لم نذهب الى بيوتنا أو نأو الى فراشنا فذاك عهد قد ولى ... جلسنا فى قهوة ، مجاورة لدار التمثيل العربى وما لبث سيد درويش أن أقبل علينا مع الصديق المرحوم عمر وصفى وقد نفض عنه ثياب التمثيل وهو يقول يا رأيكم ؟ لم يخطر فى بال الفنان المسكين أن يسألنا عن رأينا فى كساد الحفلة وخواء الصالة ، ولا خطر فى بالنا أن يسألنا فى ذلك، فقد كنا ندرك أن الرأى المطلوب هو أجل من ذلك عنده وأسمى، لا لأنه كان يريد الافلاس ، أو يكره المال بل لأن فرحة الفنان بفنه يهمه أكثر من المال .. وأن النشوة التى تبعثها خمرة الفن تذهب دائما بلب الفنان أول الأمر فتذهله عن كل شىء . أدركنا ما يريد فقلنا .. لست أذكر والله ما قلنا ولكن الذى لاشك فيه أنه قرأ فى وجوهنا الجواب انه قد انتصر .. » .

على أن للجو الاجتماعى والفنى الذى عاش فيه زكريا أحمد ، أعوام حياته الفنية الأولى ، كان له الأثر الكبير على أعمال الفنان الشاب . والذين زاملوا زكريا أحمد ، واتصلوا به عن قرب يعرفون حق المعرفة أن زكريا كان أكثر الناس اعجابا ، وفهما لسيد درويش ، ولفن سيد درويش ، وكان يحفظ كل أعمال سيد درويش ، ويرى فيها قمة المجد الفنى الذى وصل اليه الفنان الشعبى سيد درويش .. ولست أبالغ اذا ما قلت ان زكريا أحمد تأثر فى تلحينه الروايات المسرحية ، والغنائية الى

حد كبير بسيد درويش ... وأعود بعد تلك المقدمة ، لأتحدث عن زكريا أحمد وعلاقته بالروايات الغنائية ، والمسرحية ...

فى بداية الحياة الفنية لزكريا أحمد ، وحوالى سنة ١٩١٦ ، فكر لفيف من طلبة المدارس الثانوية من هواة التمثيل ، فى انشاء جمعية مسرحية ، وكان فى مقدمة هؤلاء الطلاب حسين رياض ، وحسن فايق وحسن لاشين ، وكانت أولى ثمرات هذه الجمعية اقامة حفلة تمثل فيها رواية « فقراء نيويورك » .. وقد تكفل أعضاء الجمعية وحدهم بكل تكاليف الحفلة ، ووزعت التكاليف عليهم بالتساوى ، كما وزعت عليهم أيضا بالتساوى تذاكر الحفلة كمقابل لهذه التكاليف .. وكما قال حسين لاشين « كل واحد وشطارته ، الذى يوزع تذاكر أكثر هو الذى سيسترد بعض ما دفعه من تكاليف الحفلة ، أو كل ما دفعه ، والذى سيتباطأ فى توزيع التذاكر ستكون خسارته فادحة » ..

واتفقت الجمعية مع عزيز عيد ، والممثلة الناشئة — روزاليوسف — على أن يتقاسما البطولة فى الرواية .. وغنى حسن فايق فى هذه الحفلة :

هيئوا الطعام ، واحضروا المدام فهو لذتى وكل بغيتى

خمرة وعود ، احفظوا العهود .. وانشدوا الألحان !!

وقد دفع أعضاء الجمعية ستة جنيهات ، لتأليف الأغانى ، وتلحينها على أن تقسم بالتساوى ، بين المؤلف والملحن ، غير أن المؤلف — كما قال زكريا — أخذ المبلغ كله وحرم زكريا من ثمرة جهوده الأولى ..

واقطع زكريا أحمد عن تلحين الروايات بعد ذلك الفصل البارد — كما قال — وطال انقطاعه عشرة أعوام كاملة الى أن طلب منه علي الكسار تلحين رواية « دولة الحظ » وزكريا كان في عام ١٩٢٤ الملحن الأول الذى خلف سيد درويش ، ونجحت « دولة الحظ » وتلاها زكريا برواية « الغول »..وبعد الاقبال على هاتين الروايتين تعاقد زكريا للعمل كملحن بفرقة الكسار ثم اشتغل للفرق المسرحية كلها كفرق نجيب الريحاني ومنيرة المهدية وفاطمة رشدى و ... و ... و ... وكي تكون دراستنا لهذه المرحلة من مراحل تطور الفنان زكريا أحمد وافية وعميقة ، يجب أن ننقل بعض الألحان المسرحية التى قام زكريا أحمد بتلحينها ، والتى تعتبر بحق صورة من صور الحياة الاجتماعية في مجتمع ما بعد الثورة .

في رواية دولة الحظ تفتح الستار عن المجموعة تغنى :

خدوا بالكم يا جماعة	لحسن سمعنا اشاعة
ان أميرنا باباظ الأول	ألف اسم الله عليه
نزل من قصره متخفى	ولا حدش عارف ليه
يتحرش باللى فايتين	اللى رايحين واللى جايين
ما حدش عارف غرضه ايه	ويتجس علينا ليه

وفي نفس الرواية لحن عن الحب ، جاء فيه :

كل نظرة من عيونها	فيها وعد لمهجتى
كل ابتسامة منها	زى بوسة لشفتى
ليه بقى ما أدوبش فيها	وقلبى مكتفى بكده

مهمـا أقاسى فى هـواها — من جفا ومن بغددة
الحب دا شىء لابد منه — ما فيش لقلوبنا غنى عنه
حتى الهمج دول حتى الوحوش — اللى فى الجبال ما يجهلوش
حاجة اسمها حب والا غرام — ما دام باخلاص وائتلاف
مبنى على الشرف — وعلى العفاف

وكان اللحن العاشر والأخير

تقول الجوقة :

نعنشم أميرنا — واصرفوا الكرب عنه
بالحانكم اطربوه — بكلامكم فرفشوه
الصدق فينا اللى يظهر — قوته وفنه

يقول الأمير :

أيوه غنوا لى واطربونى — يمكن أنسى
ووانسونى واشغلونى — بالمجانسه

الجوقة :

سيد من يجانسك — وبآنسك يا أميرنا
انت سيد الكل — فينا انت كل خيرنا
افرح بقى زأططـ بقى — مالهم عينين جلالتك كده ميرقة

الأمير والفلكى :

سيبك ما دام — قسمتنا التا تروق
روحوا افرشوا قرافتنا — واقلبوها لنا بزفة

الجوقة :

زفتكم حاتكون أبهة — مالهاش مثيل ولا ثمن

لازم لهتم لكم جمــــا يا مرحــــومين مقــــدما
الله يرحـــــم مــــولانا كان راجــــل عادل محــترم
كان زى الرجــل الخــدلانة ولا فيش زيه فى الأمـــــم

الأمير والفلكى :

الضــــابة حظــونا شــــوية وخشــوا بنــا فى خــد وهات
جيبوا لنــا كاسين شمبانيــة وهــاتوا لنــا الرقاصــات

ويقول زقزوق فى نهاية الرواية :

يا فرحتى مين فى غرامه شاف هنا
فى كل تاريخ اللى حبوا زى أنا
انت مــلاكى ومــين ســـواك
يحتكـــم فى مهجــــتى

وترد الأميرة :

انت حبيبى ونصــــيبى القــــرب منـــك جنتى

زقزوق :

لمتى تتهـــنى ونـــود ونطفى نـيران الجـــوا
ايه العــزول ايه الحســود ما دمت أنا وانت ســـوا

الأمــيرة :

بس آه لو كنت زيى ابن أمير كانت كملت فرحتى وهان العسير

زقزوق :

دولة الحب يا روحى جمهورية مافيهــــاش أبــدا كبير
يجتمع فيها الملوك ويا الرعية الفقــير وابن الأمــــير
العــبرة ما هش باللقــب والا النياشـــين والرتب

الراجـــل اللى بهمتـــــه وعلو نفســـه ونخـــوته
من غـير لقب من غـير رتب يجعـــل له شان فى أمتـــه
ان عاش يعيش عرضه نضيف وان مات يموت حـر وشريف

ويكون اللحن الختامى للرواية :

غنـــوا لنـــا يا بنـــات وهـــاتوا لنـــا الكاســـات
وان جـه المـزول قولوا له أبوك الســـقا مـــات

سيد من يغنى ، ويهيص ويهنى ، هيص يابو سمرة وارقص وبلاش تخبى ، الله ارقصم وغنوا ، واتبجبجم وهنوا ، الحظ ده حياتنا مالناش غنى عنه .

ومن لحن الساكين فى رواية « أنوار » :

أما عجيبة عليكى يا دنيـا عنـدبه وليكى منفـــارقات
أبصر ليـــه تخلقى بالعنيـــه من مـــاه الـــردين شـــربات
حد يقول يا اخـوانا يا صوه القصر ده يـــكنه زقـــزوق
وبرنـــات يجـــوا يالـــوه بعـــد ما كان مهزاه للســـوق
بين البســـارية وبين الشــلبة والأراميـــــــــــــــط
ونهـــار ما ياكل مش وحلبــة كـــان يزيـــــــــــط
صـــبح بقـــا جنـــابه ألفرلكه تفولتى متربى فى أتينـــا
يغلب المســـيو كذا يشكا فى ســكة الشوكة والســكينة
ولا هش مكرهـــه فى حيـــاته الا مــــــــــــــراته
غجربة ودون من عنـــد طالون قد ما يمدنها برضه هيه بمينها
واخـــده عا التحيش اياه بالمشنة وهيه وراه يجرى تجرى
قوموا سندوه أرموط العترة وصـــلوا بينا عالنبى يا خلايق

ما عمركوش دقتـوا الكترة   الا ف زمـانه الحـلو الرايق
ديم الحظ يا رب لسيدنا ، واحنا بيوم الهنا ترعـدنا روق بالنا
واحيى أمانا واهلك أعدانا وحـادنا

وفى افتتاح « رواية السفور » تنشد البنات :

التقـــة المصـــطفاوى   ما بقـاش حاجـة اليهـا
والطـــرز الأوربــاوى   بــوظ دلوقتى عليهـــا
الناس قبـله كانوا تتــابله   قطـع المـــاضى وزمانه
قومى يا هبـلة سيبى الطبـلة   واتمـــدلى دقى بيـــانو
وامشى بحسب العصر بتـاعك   والشعر قصيه آلا جرســون
والرجـل تاخـديه فى ذراعك   يرقـص وياك الشارلســتون

وفى هذا اللحن تنادى البنات :

ولا برقـع ولا حـبرة   ولا يشـة ولا ملاية
الشرق نايم والزمــان   عمـــال بـــدور
واتغــيرت واتبـدلت   ويـــاه آمـــور
والبنت لمـــا اتعلمت   والعــــلم نــور
طالبت بحريتهـــا   فى عهــد السـفور ..

ومن رواية « أنا وانت » نختار لحن « هيلا هيه هيلا هيه » :

عا الجمناستيك ياعه بنا   أدى دفـتر الاكـرسيز
واحنا سور وفى آلعابنا   بنفـوق على بنت باريز
رجلينـــا وايدينـــا   زى اللـى بزمبـلكات
تلوحهـــا نطوحهـــا   كده حسب الحركات
آن   دى   ترواه

وما سبق ذكره من أغان وأدوار ، وديالوجات كان بحق محاولة ناجحة لتصوير أوضاعنا الاجتماعية والسياسية ، لمجتمع ما بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، ولم يخل هذا التصوير من نقد هادىء فى بعض الحالات ، ونقد مر عنيف فى كثير من الحالات .. والظاهرة التى تميزت بها الروايات المسرحية والغنائية التى قدمت على مسارحنا فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ أن مؤلفى هذه الروايات خوفا من بطش السلطات الحاكمة ، وخوفا من الرقابة المتعنتة قد لجأوا الى دنيا الخيال .. ففى هذه الدنيا ، يستطيعون أن ينقدوا ما يريدون انتقاده ، وفى هذه الدنيا يمكنهم أن يقولوا « للأعور فى عينه يا أعور » ، وهذه بعض نماذج للحياة فى دنيا الخيال !!

فالأستاذ أمين صدقى — مؤلف رواية دولة الحظ — « يصنع من أفغانستان وكردستان ومورستان دولة خيالية ويختار ، باباظ الأول أميرا لأمرائها .. ومن عادة أمير الأمراء هذا أن يسلى شعبه فى عيد ميلاده السعيد باعدام رجل من المجرمين بآلة الخازوق .. ويحدث أن يجيء عيد الميلاد السعيد ، وليس فى سجون المملكة الباباظية واحد من المجرمين .. ويقع أمير الأمراء فى ورطة .. كيف يستطيع أن يسلى شعبه فى يوم عيد ميلاده .. يتخفى أمير الأمراء وينزل الى صفوف الشعب متنكرا ، لعله يجد شخصا ما يطعن فى جلالته أو فى حكومة جلالته .. ويتصادف أن يجد أمير الأمراء تاجرا مصريا ، اسمه عبد الباسط البربرى ، وقد جاء الى المملكة الباباظية ومعه صبيه زقزوق المصرى ، وسأل أمير الأمراء باباظ الأول

التاجر عبد الباسط البربرى ، رأيه فى باباظ الأول وحكومته وراح عبد الباسط البربرى يلعن باباظ الأول وحكومته .

وابتهج باباظ الأول لهذه المناسبة السعيدة وأعد العدة لاعدام عبد الباسط البربرى ، وبينما القوم آخذون فى اعداد الخازوق ، للبربرى ، وبينما أمير الأمراء فى أشد حالات الابتهاج اذا بمرزلخان فلكى الدولة وموضع ثقة أمير امرائها يبلغ جلالة باباظ الأول ، انه بينما كان يرصد طالع هذا البربرى وجد أن حياة أمير الأمراء ، مرتبطة بحياة هذا البربرى ، ومعنى ذلك اذا ما أعدم البربرى ، فسوف يموت باباظ الأول بعد اعدامه بأربع وعشرين ساعة .. وأمر باباظ الأول ، بتغيير الخازوق « بهودج ملوكى » ونقل عبد الباسط البربرى الى القصر الملكى محاطا بكل أنواع التبجيل والاحترام .. وانتهز عثمان فرصة احتفاء أمير الأمراء به فطلب منه تزويج صبيه زقزوق المصرى باحدى الفتيات التى أحبها ، ولم تكن هذه الفتاة سوى خطيبة أمير الأمراء أرسلها أبوها ، بصحبة أحد سفرائه متنكرة ..

ولما لم يكن باباظ الأول يعلم قصة هذه الفتاة فقد أصدر تعليماته بأن يهرب عبد الباسط البربرى وصبيه ، ومعهما الفتاة ، وأخيرا علم الملك قصة الفتاة كاملة ، وعرف أن السفير قد أطلق النار على عبد الباسط البربرى ، الذى مات غرقا فى بحيرة القصر .. واستسلم أمير الأمراء لليأس ، وأخذ ينتظر مصيره .. ثم فكر فى أن يزف الى الفتاة ليتمتع بها قبل وفاته .. وبينما الجميع يعدون معدات الزفاف الملكى جاء الفلكى ، ليخبر باباظ

الأول أن الساعة الرهيبة قد جاءت وعليه أن يستعد للموت ..
ويركع الجميع احتراما لرهبة للموت .. وينتهز عبد الباسط البربرى الفرصة — ولم يكن قد غرق كما أشيع — ويظهر للجميع مدعيا انه روح المرحوم عبد الباسط البربرى .. ثم يطلب من أمير الأمراء باباظ الأول ، أن يسمح لصبيه زقزوق المصرى أن يتزوج من الفتاة واسمها الأميرة شمس الدين .. ويتم زواج الأميرة شمس الدين بأحد أبناء الشعب .. الذين لم يجر الدم الأزرق فى عروقهم .. وتنتهى الرواية » .
وفى رواية على بابا يعمد الأستاذ توفيق الحكيم الى تصوير حياة حطاب بائس ، لم يستطع أن يدفع ايجار منزله ، يستصدر صاحب هذا المنزل — وهو ابن عم على بابا — حكما من القاضى بدفع المتأخر ، أو بيع المتاع بالمزاد .. وتضيق الأحوال بعلى بابا ، ويذهب الى الخلاء ، ومعه حماره ، ويحاول الانتحار ، فيضع حبلا حول عنقه وتنقذه جارته مرجانة ..
وفجأة بينما هو فى الخلاء يسمع أصواتا ، فيختبىء فى مغارة.. ويسمع على بابا صوتا يقول : « افتح ياسمسم » فتنفتح صخرة كبيرة يدخل فيها عدد من اللصوص ، يضعون أمتعتهم ثم ينصرفون، ويخرج على بابا بعد ذلك ويردد كلمة « افتح ياسمسم » ، فتنفتح المغارة ، ويرى ما بها من كنوز ، فيحمل منها الكثير ويعود الى بغداد حيث يدفع ايجار مسكنه ، ويرتدى أفخم الملابس ويسكن فى قصر فخم .. وبينما كان على بابا يروى لمرجانة سر هذا الثراء المفاجىء كان ابن عمه قاسم ، يتسمع لهذا الحديث ، ويعرف السر

ويذهب قاسم الى الكنز .. ويحمل ما استطاع حمله من ذهب وفضة وجواهر ولكنه ينسى كلمة السر ، فيقبض عليه اللصوص . ويحاولون اعدامه ، غير أن أحدهم ينقذه ويضمه الى العصابة وتذهب زوجة قاسم الى ابن عم على بابا راجية منه أن يبحث عنه ، فلما ذهب على بابا الى أبواب المدينة وجد هناك ملابس قاسم ، فاعتقد أنه مات ، وأقيمت المآتم ، وأعلن الحداد .. ويحاول رئيس العصابة أن يعرف سر على بابا ، وكيف استطاع أن يسرق الكنز فيرتدى ملابس تاجر زيت ويذهب الى على بابا .. وتعد مؤامرة لاغتيال على بابا ، ويكون تنفيذها عن طريق وضع علامة على باب منزله ليراها اللصوص فى الليل فيدخلوا المنزل ، ويقتلوه ..

وتكتشف مرجانة السر فتضع العلامة على عدد من البيوت المجاورة فلا يتعرف اللصوص على بيت على بابا ويعد اللصوص مؤامرة أخرى لاغتيال على بابا فيدخلون عددا من الرجال فى «زلع» على أنها مليئة بالزيت وتحمل «الزلع» الى منزل على بابا فى الليلة التى حددها لزفافه بزوجة ابن عمه قاسم .. وتكتشف مرجانة سر الرجال الذين وضعوا فى « الزلع » . وبعد أن ينتهى الرقص تحاول احدى الراقصات وهى خليلة أحد اللصوص اغتيال على بابا فتمسك مرجانة يدها ، وتنقذه مرة أخرى ، ويقبض على اللصوص . ومن بينهم قاسم ابن عم على بابا ، الذى يعلن عن قصه .. وتعود زوجة قاسم اليه .. ويتزوج على بابا من مرجانة » .

وفى رواية « ياسمينة » التى ألفها بديع خيرى ، وكان مسرحها بغداد ، يكون بطلها بائع فاكهة تمنى لو أصبح أميرا للمؤمنين لكى يتمكن من مجازاة الظالمين ، بما اقترفوه من آثام .. ويستيقظ بائع الفاكهة هذا ليجد نفسه فى قصر ضخم ، وقد أصبح « أميرا للمؤمنين » ، وكذلك قصة « البلابل » التى ألفها أيضا بديع خيرى ، ووقعت أحداثها فى الهند ، وبطلة القصة فتاة هندية مات أبوها عن ثروة اغتصبها ابن عم له ، فلما ترعرعت وكبرت وعلمت بحقيقة الأمر تنكرت فى زى شاب ، وجمعت حولها عصابة ، أمعنت فى تخريب أملاك عمها ، وتلتقى الفتاة بشاب تحبه — وهى لا تدرى أنه ابن عمها وعن طريق هذا الحب ، تحصل على حقوقها المغتصبة . وتنتهى القصة بزفاف العروسين ، وإيقاف متاعب والد العريس ، وعم الفتاة ..

وروايات قليلة جدا ، هى التى كانت تصور الجو المصرى . ففى رواية « مين فيهم » من تأليف بديع ، وتلحين زكريا ، وتمثيل فرقة الكسار ؛ فتى وفتاة تحابا ، ففر الشاب من الاسكندرية الى القاهرة وتبعته الفتاة التى تخفت فى زى شاب وأقامت هى الأخرى فى نفس الفندق الذى أقام فيه الفتى واستخدمت نفس الخادم الذى استخدمه الفتى ، والفتى لا يدرى والفتاة أيضا لا تدرى ، وتتجلى الحقيقة فى آخر الأمر ، ويظهر شقيق الفتاة الذى اعتبره حبيبها فى عداد الأموات .. ويعم الفرح ، والحبور .. وترتفع الرايات ويتمنى الجمهور للعروسين ، البنين والبنات ..

واذا كانت هذه الروايات — كما سبق أن ذكرنا — تمتاز

بالاغراق فى الخيال ، والبعد عن الواقع ، والاعتماد على الأساطير، لامكان تسلية الجماهير ، فقد كانت تمتاز أيضا بالنهايات السعيدة، اذ لابد من أن يتزوج البطل والبطلة فى نهاية الرواية ، والا فان الجمهور سيضرب الممثلين والممثلات وسيحطم كراسى المسرح ، وسيصر على أن يسترد ما دفعه من نقود ، لقد جاء الجمهور الى المسرح ليسرى عن نفسه ، وليبعد عنه الهموم والأحزان ، فلا يقبل ابدا ان تنتهى السهرة بموت البطل والبطلة أو بحدوث شقاق بينهما ..

وظاهرة أخرى تمتاز بها هذه الروايات وهى الاعتماد على الاغانى ، فلا تمثل مسرحية ما دون ان تعتمد على سبعة الحان أو ثمانية، وأحيانا احد عشر لحنا كما فى رواية «على بابا .. والسبب فى ذلك ان الجمهور كان يقبل على الاغانى أكثر من اقباله على التمثيل .. وكما يفعل مخرجو السينما اليوم — أو بعضهم على الاقل — عندما يحشرون بعض الرقصات لجذب الجمهور الى افلامهم ، كان مخرجو الروايات المسرحية بعد ثورة سنة ١٩١٩ يعمدون الى الاغانى والاناشيد والطقاطيق لجذب الجمهور أيضا الى مسرحياتهم ...

وكانت الاغانى اقرب الى تصوير الاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ونقد ما بها من اخطاء ، وتشجيع ما فيها من لمسات طيبة ، وقد امتازت بعض الاغانى — وخاصة فى الفترة التى تلت ثورة سنة ١٩١٩ وقبل أن تفرض الرقابة على الاغانى — بميلها الى التحرر والانطلاق . ففى رواية دولة الحظ « ترقية على

جلالة الأمير باباظ الأول » فعينا جلالته « مبرقة » و « جلالته زى الرجل الغدلانة » و « دولة الحب يا روحى جمهورية » و « العبرة ليست باللقب ولا بالنياشين ولا بالرتب .. والراجل بهمته وعلو همه ، ونخوته » ..

وفى رواية الغول حكم ومواعظ ، و « ترقة » ونقد عنيف — فمثلا :

حط فى بالك لأجل تعيش لازم تحنى وتطاطى
والرزق يحب التهويش يضمه ، وسبحان العاطى
دى اللقمة هى اللى تجوّع خليك واد حلنجى ملوع
تلهط فى بلوظة وتكون على كل الألواع تتنوع
أوعى تحبرش بص وغطرش واعمل اطرش
الحق فى الأيام دى جريسة اللى يقوله يدبقوه
لكن دولته دولة عظيمة منصورة مهما يعاكسوه

وفى رواية «أنوار» توصف الدنيا ، بأنها «عندية» أى تميل الى العناد وهى تخلق من الفسيخ شربات ، وفى الرواية دروس لاولئك الذين نبتوا من صفوف الشعب ثم تنكروا بعد أن تم لهم الثراء ، للشعب ولابناء الشعب .

وفى رواية « الوارث » ، نجد نقدا عنيفا لنظام القرعة حيث كان الاحتلال يعمد الى ابعاد الشبان عن الجندية بتنظيم البدل العسكرى ، وحيث كانت معاملة الجنود من أشق ما يمكن وذلك ليكره الناس الجيش ، ويعملوا على الفرار منه .

وفى روايتى « السنور » و « انا وانت » حملة على الدقة

القديمة ، ودعوات متكررة للانطلاق والتحرر من البرقع والحبرة والبيشة ، والملاية اللف ، وعتاب مر للشرق الذى « نام بينما الزمان عال يدور » .

وفى رواية أبو زعيزع نجد من يقول عن الدنيا :

شروقها يصبحنا وغروبها يمسينا
وساعة تفرحنا وساعة بتعزينا
يروح قديم ويجى غيره جديد وكله كاين مش بالايد
حال النهاردة خلافه لمبارح وكل يوم للناس مواليد

وتصور الرواية عزة النفس والأنفة والكبرياء عندما يقول البطل فى نفس الرواية :

كله هين الا تحكيم العدا يستحيل الحر يرضى الذل ده

والشىء الجدير بالذكر أنه بالرغم من عدم وجود الراديو فى هذه الفترة وبالرغم من عدم وجود تليفزيون ، وبالرغم من عدم وجود أجهزة تسجيل ، فقد كان اللحن ينتقل من مكان الى مكان بسرعة لا مثيل لها ..

روى لى الفنان رضا أن سيد درويش غنى بالاسكندرية ، لأول مرة : « زورونى فى السنة مرة » وتصادف أن جاء الى القاهرة بعدها بأيام قليلة .. وبينما كان فى زيارة لحلوانى سمع خادمة تغنى الأغنية ، وتعجب سيد درويش ، كيف جاء اللحن من الاسكندرية الى القاهرة ، وانتقل الى شفتى الخادمة بهذه السهولة ، وسأل الخادمة فقالت له .. « كنت فى الاسكندرية وسمعت هذه الأغنية من أفراد الأسرة التى كنت أعمل عندها وحفظت اللحن من أول

مرة ، وجئت الى القـاهرة ، مع الأسرة ، وهأنذا أغنيه ، للمرة الثانيـة !!

ولعل السـر وراء سرعة حفظ هذه الألحان الناجحة وترديدها يعود الى أنها كانت نابعة من حياة الشعب ، بل لقد كانت قطعة حية من حياة هذا الشعب اذ لم يكن المؤلف ، ولا الملحن يؤدى عندما يؤلف أو يلحن واجبات روتينية ولم يكن الملحن مثـلا يكتفى باقتباس الموسيقى الغربية ظنا منه أن أحدا لن يفطن الى معرفة أصول الحانه ، وموسيقاه .. بل كان الملحن ينصهر فى اللحن ، يحيا فيه بكل ما فى كلمة الحياة من معنى .. يضع فى خدمة اللحن، كل أحاسيسـه وكل عواطفه وتكون النتيجة أن يخرج اللحن قطعة من هذه الأحاسيس ، وهذه العواطف .. ولهذا نجح زكريا أحمد فى أن يلحن فى هذه الفترة : ١٩٢٤ , ١٩٣٠ — أجمـل ألحان الروايات المسرحية .. لحن زكريا أحمد لفرقة على الكسار « دولة الحظ » فى نهاية عام ١٩٢٤ ، ولحن فى عام ١٩٢٥ روايات «الغول» و « ناظر الزراعة » و « عثمان حيخش دنيا » و « الطنبورة » و « الخالة الأمريكانية » و « ابن الراجا » .

وفى عام ١٩٢٦ لحن روايات « ٢٨ يوم » و « أنوار » و « آخر موضة » و « نادى السـر » و « الكرنفال » و « أبو زعيزع » و « الوارث » و « حكيم الزمان » — وكلها لفرقة على الكسار . و « على بابا » و « الأستاذ » « لفرقة زكى عكاشة » .. ولحن فى عام ١٩٢٧ لفرقة على الكسار « ملكة الجمال » و « قنشتك » و « ابن فرعون » و « زهـرة الربيع » و « حـلم ولا علم »

و « الساحر أبو فصادة » و « السكرتير » و « غاية المنا » و « بدر البدور » و « خمسة مليون » كما لحن فى عام ١٩٢٨ « ياسمينة » لمسرح الريحانى ، و « البلابل » و « الكنوز » لفرقة على الكسار ، وفى سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠ لحن لفرقة على الكسار « العروسة » و « الحيلة » و « مين فيهم » و « ما فيش منها » و « ابن الأومباشى » و « طاحونة الهوا » و « ملكة الغابة » .. ولفرقة صالح عبد الحى «قاضى الغرام» .. و رواية «عيد البشاير» و « الهادى » .

وزاد عدد ألحان هذه الروايات على ٥٠٠ لحن ، بلغت أغلبها قمة النجاح والشهرة ، ذلك لأن زكريا وضع فى هذه الألحان قصارى جهده ، وفنه وعاش فيها ، كلها ، لحنا ، لحنا ، بعواطفه وأحاسيسه ، وعبقريته حتى استطاعت أن تخرج للناس فى أوضاع فنية جديدة أجبرت الكثير من خصومه على الاعتراف له بالزعامة الفنية بعد وفاة سيد درويش !!

سمعت زكريا أحمد يقول :

« مات أبى قبل أن أضع اللحن الأخير فى رواية الغول .. وتركت جثمان أبى فى أيدى من يغسلونه ، كما تركت مهمة اعداد المأتم للأصدقاء ، وصعدت الى حجرة الغسيل ، فوق السطوح ، وحبست نفسى ساعات طويلة ، ورحت أغنى وأدندن ، وفى الوقت الذى تم فيه اعداد كل شىء .. وتأهب الجميع لنقل الجثمان الى المسجد ، كنت قد انتهيت من نصف اللحن .. وفى الجنازة كنت

سارحا فى بقية اللحن ، وفى السرادق المقام بجوار منزلنا ، وبينما أنا أستقبل المعزين وأودعهم شاكرا لهم مجاملاتهم لى ، وعزاءهم فى أبى ، وبينما كنت أستمع الى كبار المقرئين الذين تطوعوا لقراءة القرآن مجاملة لى ، وبينما كنت أتبادل عبارات المجاملات الروتينية ، التى لا يخلو منها مأتم من المآتم كنت أعيش فى بقية اللحن .. وعندما بدأ العمال يزيلون أقمشة السرادق ، وأخشابه كنت قد انتهيت من اعداد اللحن كله .. » .

وفى مذكرات زكريا أحمد ، قصة لحن واحد من الألحان التى وضع فيها روحه .. والهامه .. وشبابه ، قال زكريا أحمد :

« من عادتى دائما فى الألحان التى أقوم بتلحينها أننى اترك للمجتمع الذى أعيش فيه نائما فى فراشه ، ثم أمضى أفتش فى نفسى من شخصيات المغنين والمؤلفين ، أقلب كلماتهم وأهز أوتار حناجرهم ثم أخلق من ذاتى ذات المغنى وجوه ثم أعلم المغنى اللحن .. وأتركه يغنى وأصفق له اذا أجاد ، اننى أتعرى من شخصيتى هذه المرئية وأروح ألبس شخصيات الممثلين والمغنين وغيرهم .. ولا يعنى اننى أخضع لهم ولكن يعنى أننى مستودع من البشر مملوء باختلاف العواطف والقوى ، فكلما احتجت الى فرد من الأفراد مددت يدى الى قلبى وأخرجت منه نغمة تختلج ثم تتدفق فى منافذ قلوب الناس ، أذكر مرة طلب منى الأستاذ على الكسار لروايته « أبو زعيزع » لحنا يغنى والعفاريت والسحرة والأشباح على المسرح ، وكانت ليلة حالكة ممطرة ارتديت فيها لباس المجانين : « كلوش » برجلى وجلابية كستور ، وفوقها بالطو

سموكن وعلى رأسى « لاسة » وركبت تاكسى من ميدان ابراهيم باشا الى سفح الهرم قرب أبى الهول . وما أدراك ما أبو الهول . وما يضمره فى الظلمة والمطر من روعة ورعب وأشباح تأكل الأشباح ورمال تتمايل كأنها أرواح الشياطين .. وجلست أمثل « الجنون » وجلس حولى مع الليل العاصف السحرة والعفاريت وورقة عليها كلمات الأغنية ، وكان معى مصباح كهربائى صغير أستعين به على تلمس الكلمات ، وفيما أنا غارق فى المعانى مأخوذ فى نشوة عميقة، اذا بالحارس يتقدم منى وينهرنى قائلا : « بتعمل ايه هنا ياجدع انت » وأمسك بتلابيبى فحاولت أن أقنعه بأنى ألحن فهزأ بى قائلا « لحن ايه .. انت مجنون .. اللى بتقوله كلام فارغ يللا بينا على القسم » ، فقلت له « أنا زكريا أحمد وده اسمى مدقوق على زندى » . فقال « بلاش أونطه » وأضاءت له المصباح ووجهته الى الذراع وتفتحت عينا الجندى خوفا وهلعا وظن أنى نقشت اسمى على يدى فى تلك اللحظة ، وقال لى مرة أخرى « بلاش أونطه » وراح الجندى يسألنى عن صناعتى واقامتى فقلت له « ملحن فنان » ، وغضب الجندى وقال : « وهو فيه شغلانة اسمها ملحن وفنان يللا بينا على القسم » . ولما كان لابد من الذهاب الى القسم، وما كدت أدخل بلباسى هذا حتى حام حولى أفراد القسم يتأملون .. ويضحكون ، وبقيت فى القسم حتى الصباح حيث اتصلت بعلى الكسار وصديقى الشيخ على محمود تليفونيا لاثبات شخصيتى ، وتم الافراج عنى بعد أن اعتذر رجال القسم وبعد أن ولد اللحن.. فى الجو الذى خلقته وعشت فيه » .

وبالرغم من انني أحس بأن هذا الفصل قد طال أكثر من اللازم الا أنني أرى ضرورة اختتامه بقصة طريفة ، رواها زكريا أحمد ، وكانت هذه القصة قد حدثت في أول يوم عرضت فيه فرقة علي الكسار رواية « دولة الحظ » التي لحنها زكريا أحمد ، وكانت فاتحة المجد الفني لزكريا أحمد :

قال زكريا :

« في يوم اتصلت بي السيدة فاطمة سري وأفهمتني أن الأستاذ علي الكسار يرغب في أن ألحن له روايات لفرقته ، وذهبت معها الى الكسار ، وهناك اتفقنا على أجر أعتبره عظيما بالنسبة لي ولسواي في ذلك الوقت ، وبدأت ألحاني برواية «دولة الحظ» وفي أول يوم من عرض الرواية حضر الي شخص قال انه موفد من لدن سيدة تنتظر في الخارج وتود رؤيتي فتوجست خيفة من هذا الطلب وذهبت الى حيث تنتظر السيدة ، فوجدت عند باب المسرح عربة مطهمة يجرها جوادان وقبل أن أدنو من السيدة : أصلحت دون وعي مني عمامتي وقفطاني ثم انحنيت نصف انحناءة ومددت يدي الى السيدة فراعني أن أرى يدا بضة تمتد الي وتسلم علي وارتسمت على وجهها ابتسامة خلابة ، ثم ضحكت من ارتباكي وقالت : أهلا بالأستاذ العظيم .. أنا سعيدة جدا لرؤيتك .. وأجبتها وأنا أجتهد في مداراة ما أحس به من خجل :

— هل من خدمة يا سيدتي ؟

فقهقهت قهقهة طريفة سلبت البقية الباقية من عقلي وقالت :

— يا أستاذ تفضل معي وأنا أقص عليك ما أريد ..

وبان التردد على وجهى وحاولت معرفة تلك السيدة خاصة وان صوتها كان يشبه صوت سيدة أعرفها .. وابتدرتنى قائلة :

— انى أراك متخوفا .. لا تخش شيئا وتفضل ..

وبلباقة مدت يدها وسحبتنى وأنا فى لجة من التفكير العميق واخذت مقعدى بجوار السائق .

أمرت السيدة السائق بالسير الى جهة حدائق القبة ، وكانت طول الطريق لا تنفك تردد على مسامعى حوادث طريفة .. ومسلية وكلما انتهت من احدلها لجأت الى الأخرى وهكذا حتى وصلنا أمام منزل ناء تبدو عليه الأبهة والفخامة ..

وهكذا بدأت اشعر بحرج مركزى اذ كيف أدخل منزلا لم تغشه قدماى من قبل ، وكأنها لحظت ذلك فعادت الى الضحك معى وتقدمت نحوى وتأبطت ذراعى فتبعتها وأنا صامت ، وما احتوتنا غرفة الاستقبال حتى طلبت منى أن أنتظر ريثما تبدل ملابسها ثم اختفت من أمامى وتركتنى فى حيرة أفكر فيمن تكون هذه السيدة ، وما الذى تريده منى ؟؟ وفيما أنا على ذلك الحال اذ بها تدخل وقد ارتدت فستانا زادها جمالا فوق جمال ، بدت فيه أشد فتنة مما رأيتها حين تقابلنا ، فجلست بجوارى وراحت تتفكه معى فى الحديث ، وكلما زادت فى مداعبتها شعرت بالخوف خاصة عندما اقتربت منى وبينما نحن كذلك اذا بثلاثة رجال أشداء يدخلون .. فصعقت وتملكنى رعب شديد وارتجفت أوصالى لهول المفاجأة .. واخذت أحملق فى وجوههم ثم احتبس لسانها عندما قال لها أحدهم :

— ضبطتك ياخاينة أنت وذلك الوغد ، وسأريكما كيف تنتهكان حرمة المنزل وكيف تخلين بقواعد شرف الزوجية .

ثم التفت الى زميل له قائلا :

— يا عثمان بك أرجوك ابلاغ البوليس حالا ، لقد جاءت الساعة التي كنت أنشدها لأطهر للملا مخاطبه زوجتي من خسة ..

والتفت الى قائلا :

— أما أنت أيها الرجل فجزاؤك عندى شديد وسترى بعينيك الآن ..

وهنا شعرت بالدموع تجرى فى مآقى وأحسست أنى أكاد أختنق لحرج الموقف فجعلت أنظر اليهم والى المرأة التى كانت سببا فى كل ذلك ، واحترت كيف يكون حالى لو علم والدى وأهلى بالقصة وكيف تكون فضيحتى خصوصا اذا وصل الأمر الى البوليس وهو أهم ما كنت أخشاه .

وأخيرا تشجعت وقلت للرجل أنا لم أفهم السبب الذى من أجله تقول لى هذا الكلام ، فقد حضرت هذه السيدة وطلبت منى أن أرافقها لأنها تنوى اقامة سهرة ، وبما انى رجل موسيقى فقد أجبتها الى طلبها وجئت معها ، فقهقه الرجل لكلماتى وقال ساخرا :

— ما شاء الله تريد أن تدفع التهمة عن نفسك ، خير لك أن توجه هذا الكلام للبوليس ...

وهنا دخل الرجل الذى كان قد خرج لابلاغ البوليس وبصحبته أحد الضباط وتقدم منى وقبض على كتفى بقوة وقال :

— أستاذ معمم وتنتهك حرمة المنزل بهذا الشكل .. وفي الوقت المتأخر من الليل .. ليلتك سوده يا سيدنا الشيخ ..

ثم أضاف قائلا في قوة :

— ياللا بنا يا خفيف ...

وراح الضابط يوجه الى أقذر العبارات والشتائم وأنا أحاول بكلمات مهزوزة ، التدليل على براءتي من تهمة دخول منزل أجنبي ، وأقسم بأغلظ الايمان انني ضحية مؤامرة دبرتها لي هذه السيدة ...

وضاعت مجهوداتي أدراج الرياح ...

وأخيرا تشجعت وقلت لهم :

— ها أنا تحت تصرفكم فافعلوا بي ما تشاءون .

وعقب جملتي هذه ابتسم الجميع وراحوا يضحكون وراحت السيدة التي قادتني تضحك هي الأخرى للمرة الأولى .. وزاد ذلك من ارتباكي وقلت لنفسي :

— كيف تسنى لها أن تضحك وهي شريكتي في الجريمة ..

وما كان أشد دهشتي حين رأيت ذلك الضابط المزعوم ينزع ملابسه ويظهر لي أنه صديقي الأستاذ حسن لاشين . وابتدأت أفهم « الملعوب » الذي جاز علي ، فقد كان اليوم أول يوم في أبريل ، وضحكت لفرط غباوتي وقضينا الليلة على أحسن ما يكون من الصفاء والود والفرفشة .. بعد أن اعتقدت فترة طويلة انني سأقضيها في التخشيبة » .

كما أنني لابد أن أشير — ولو اشارة عابرة — الى قصة

أعنف امتحان تعرض له زكريا أحمد ، عندما طلب منه — دون علم — أن يلحن أغانى رواية « على بابا » ، وعندما طلب من كامل الخلعى—دون علم من زكريا أحمد—أن يلحن نفس الأغانى:

قال بديع خيرى يروى قصة هذا الامتحان :

« لقد بدأ المرحوم طلعت حرب يهتم بالمسرح .. وقد احتضن اولاد عكاشة وشجعهم بكل وسائل التشجيع وأعطاهم دار الأزبكية. وأغدق عليهم الأموال حتى يستطيع الاخوة الثلاثة . زكى وعبد الله وعبد الحميد أن يوجدوا مسرحا عربيا ، يضارع أعظم المسارح .. واختار أولاد عكاشة رواية « على بابا » التى نقلها الى العربية الأستاذ توفيق الحكيم ، وطلب منى عمل الأزجال لهذه الرواية ، وقد ألفت الأغانى وأذكر منها :

الدنيـا دى عشرة ضمنه   يسـلك فيها الحـريف
وابن الأشراف والأمنـا   يحتـار جنب الخطيف

وقد أعطيت أغانى الرواية لزكريا أحمد ، لتلحينها ، وأعطيت فى الوقت ذاته لكامل الخلعى ، دون أن يعلم زكريا ، ودون أن يعلم أيضا كامل الخلعى بأن الألحان أعطيت لزكريا أحمد .. وكان الحكم فى الموضوع عمر وصفى الذى سمع ما لحنه زكريا وكامل الخلعى واختار تلحين زكريا أحمد ..

وأعد طلعت حرب المسرح بكل ما يحتاجه من اضاءة فخمة ، واكـوار من الطراز الأول ، ونجحت شركة ترقية التمثيل العربى (عكاشة اخوان) فى أول يناير سنة ١٩٢٦ فى أن تقدم رواية

على بابا — اوبراكوميك من أربعة فصول . واشترك فى هـذه الرواية علية فوزى فى دور مرجانة .. وعمر وصفى فى دور قاسم ، وعباس فارس فى دور شيخ المنصر .. وكان التلحين كله لزكريا أحمد .. ومثلت الرواية فى القاهرة والاسكندرية ونجحت نجاحا ساحقا .. لم تحققه أية رواية أخرى حتى هذا التاريخ ... » .

بين سيد درويش
و
زكريا أحمد

من ميزات ثوراتنا وانتفاضاتنا الشعبية الأخيرة أنها استطاعت أن تخلق من بين صفوف الشعب شخصيات بارزة تمكنت من أن تلعب أدوارا خطيرة فى تطوير بلادنا والانتقال بها من عهود الظلم والظلام والاحتلال ، الى عهود العدالة والمساواة والتحرر .. ومن هذه الشخصيات من حمل المدفع والبندقية والقنبلة ، والقلم ، دفاعا عن حقوق الوطن وذودا عن كرامته وحريته ومنها من اتخذ من الفنون الشعبية كالموسيقى والغناء والتمثيل ، أسلحة يحارب بها العدو ، فى قوة وضراوة ، ليدك بها حصونه ومعاقله وليقضى بحزم واصرار على كل آثاره وبقاياه ..

ومن الظواهر التى استرعت انتباه الدارسين لتاريخنا وجود تشابه غريب بين بعض الشخصيات البارزة التى تكمل الواحدة منها الأخرى .. ففى دنيا السياسة — مثلا — نجد مصطفى كامل ومحمد فريد . الأول هو باعث الحركة الوطنية فى بداية القرن العشرين والثانى هو حامل شعلة التحرر والانطلاق التى سار من خلفها الملايين .

وفى دنيا الموسيقى نجد سيد درويش وزكريا أحمد ، بمثابة

التوأمين فبينما يفجر سيد درويش الثورة الموسيقية العربية ، ينجح زكريا أحمد قرابة الأربعين عاما فى أن يكون الحارس الأمين للموسيقى العربية الأصيلة يذود عن حياتها ، ويدافع عنها ، ويضم الى كنوزها — بكثرة — تحفا من روائعه .. ولم تخل جلسة من جلسات زكريا دون أن يشيد بفضل سيد درويش على الموسيقى العربية ، ودون أن يؤكد ما كان يجمعهما من اخوة ، وصداقة ، وزمالة ، وفى أحسن الحالات النفسية لزكريا أحمد ، كان يغنى لسيد درويش الكثير من الأغانى والألحان التى كانت بالنسبة له أعذب الأغانى ، وأجمل الألحان ...

وعندما بدأت أكتب قصة زكريا أحمد ، روى لى زكريا بنفسه كيف تم اللقاء بينه وبين سيد درويش .. ونشرت ملخصا لهذا اللقاء فى عدد المصور الصادر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٣ جاء فيه :

« تصادف أن ذاع فى مصر اسم موسيقار صعد الى قمة الشهرة وهو الشيخ سيد درويش ، فنقل السميعة الى الشيخ زكريا بعض أعمال الشيخ سيد ففتن به ، وقرر أن يسعى اليه فى الاسكندرية لينعم بسماعه .. كان سيد درويش وقتئذ يغنى فى أحد المقاهى البلدية مقابل خمسة عشر قرشا كل ليلة ، فلاحظ أحد أصحاب الملاهى الأجنبية بميدان المنشية أن الموسيقار العربى يجتذب الناس من كل حدب وصوب ، فأرسل يعرض عليه الغناء فى ملهاه مقابل ثلاثة جنيهات ذهبية كل ليلة ، فرفض سيد درويش وبرر رفضه بأنه ينسجم فى الغناء بين أبناء البلد لأن هناك تجاوبا بينه وبينهم .. ولكن صاحب الملهى وسط لديه الشيخ زكريا ،

وكان قد أصبح من المقربين اليه ، فما زال به حتى قبل وذهب الى الملهى وغنى ليلة نجح فيها ، ولكنها كانت الليلة الأخيرة ، فقد رفض سيد درويش أن يغنى فى ملهى بعد ذلك . وقال ان الاعجاب الذى أحاطه به المستمعون لم ينفعل به ولم يشعر بأى أثر فى نفسه ولذلك فضل أن يعود الى المقهى البلدى الذى يتقاضى منه ١٥ قرشا على أن يغنى فى الملهى الأجنبى الذى يدفع كل ليلة ثلاثة جنيهات ذهبية » . وقلت فى ختام المقال : « وفى اليوم التالى كان زكريا فى محطة السكة الحديد يقطع تذكرتين درجة ثالثة واحدة له والثانية للموسيقار الشاب سيد درويش ، وفى القاهرة تلألأ الموسيقار الشاب » ..

ولم أتلق بعد نشر هذا المقال سطرا واحدا ينفى ما جاء فيه .. ثم كان أن نشر الأخ محمود السعدنى قبل وفاة زكريا أحمد بفترة غير قصيرة مقالا فى مجلة روزاليوسف عن زكريا أحمد قال فيه :

« وزكريا أحمد هو أول من اكتشف سيد درويش ، وهو الذى سحبه من يده كما فعل مع أم كلثوم بعد ذلك وحضر به الى القاهرة .

ذهب الشيخ زكريا الى كوم بكير ، واخترق الأزقة المظلمة والحارات الموحلة حتى وصل الى ملهى الشيخ سيد درويش .. وعندما دخل الشيخ زكريا الملهى فوجىء برجل عريض طويل ، يرتدى ملابس المشايخ ويجلس بين أفراد التخت يغنى فى عصبية ،

بينما المستمعون منصرفون عن غنائه الى الطاولة والكوتشينة وكان الشيخ سيد يغنى لحنا بسيطا عميقا جليلا :

أنا مالى هيه اللى قالتلى

روح اسكر وتعالى ع البهلى

وكان أبرز ما فى اللحن بساطته ، يمكن أن يغنيه كل انسان من سيد درويش الى صبى المقهى ، وعندما انتهى سيد درويش من الغناء قدمه رجل اسمه طلبة الى زكريا أحمد ونظر الشيخ سيد الى زكريا وقال فى صوت رهيب :

— قوم بينا ...

وقام الشيخ زكريا مع الشيخ سيد ودخلا بيتا وصعدا الى الدور الرابع وعلى ضوء الكلوب الباهت راح الشيخ سيد يغنى أحدث ألحانه ، وتاه الشيخ زكريا فى غيبوبة ونطح الحائط برأسه أكثر من مرة ، ثم أفاق من غيبوبته على ضوء باهر ، فظن أن الشيخ سيد استعان بكلوب آخر ، ولكنه فوجىء بالشمس تطل عليه من الأفق ، وانه قضى مع الشيخ سيد عشر ساعات كأنها عشر دقائق ولا تزيد ... !!

ولم يبت الشيخ سيد بالاسكندرية بعد ذلك ، هجر كوم بكير وجاء مع زكريا أحمد الى القاهرة .. وفى مثل هذه الأيام فى رمضان منذ ٤٢ عاما ، كان رجلا اسمه سى محمد عمر ، يحيى ليالى الشهر المبارك فى أحد مسارح عماد الدين ، وفى أول يوم سى عبده واليوم الثانى سى محمد عثمان واليوم الثالث صالح عبد الحى ، واليوم الرابع الشيخ يوسف المنيلاوى والخامس والسادس ،

وكل عباقرة ذلك الجيل احتشدوا فى مسرح سى عمر لاحياء شهر رمضان ، وعندما استمع محمد عمر الى سيد درويش أفسح له مكانا بين العمالقة الكبار .

ولكن سيد درويش هجر القاهرة بعد أن جرب حظه على مسرح محمد عمر وعاد مرة أخرى الى كوم بكير .. والسبب أن محمد عمر ناوله خمسة عشر جنيها آخر الليل..فقذف سيد درويش بالجنيهات الذهبية على الأرض ولطش محمد عمر قلما وضربه بعصاه الغليظة على رأسه ، وقال فى ثورة عنيفة :

— بأه تدى ابن عبد الحى « صالح عبد الحى » ١٠٠ جنيه وتدونا خستاشر .

وعاد سيد درويش الى كوم بكير يعمل بـ ٧٥ قرشا كل ليلة !
ولكن زكريا أحمد ذهب الى كوم بكير مرة أخرى وعاد به واشتغل الشيخ سيد مع الريحانى وقبض ١٠٠٠ جنيه ذهبا فى شهر واحد وأنفق كل ما ربحه حتى آخر قرش » .

● ● ●

ولم يتحرك أحد للتعقيب على ما جاء فى مقال السمدنى ، وفى عدد المصور الصادر فى ٢٨ يوليو سنة ١٩٦١ قلت :

« ولم يكن زكريا أحمد رجلا فرديا فى تفكيره ، لقد كان منشدا مغمورا فى تخت الشيخ اسماعيل سكر ، فأظهره للجمهور الشيخ اسماعيل سكر ...

وكان « ترسا » فى ماكينة للشيخ على محمود واستطاع أن يجعل من هذا الترس « موتورا » جديدا ...

فلماذا لا يقوم هو بمقام الشيخ سكر والشيخ على محمود .. ؟

لماذا لم يكتشف هو الآخر خامات جديدة لعلها تحدث انقلابا فى عالمى الموسيقى والغناء ... ؟

لماذا لا يضع هذا الهدف فى ذهنه وفى قلبه ... ؟

ولماذا لا يحاول باستمرار فلعله يوفق ... ؟

وبدأ بعد ذلك للمهمة الكبرى التى ألقاها بنفسه على عاتقه ... مهمة اكتشاف العناصر الطيبة ...

فقد تصادف أن سمع زكريا أحمد عن موسيقار شاب يغنى بعض الأغانى التى يلحنها وسمع لأول مرة أغنية امتازت بلحنها الشعبى :

وسأل عن صاحب الأغنية فاذا به موسيقار لا يغنى فى الأفراح ، بل يغنى فى أحد المقاهى البلدية بالاسكندرية مقابل خمسة عشر قرشا كل ليلة » ..

ورويت القصة التى سبق أن نشرتها بالمصور .

وفى اليوم التالى تلقيت كثيرا من الرسائل ، يعقب فيها أصحابها على ما جاء فى هذا المقال ، وكان من أبرز هذه الرسائل ، رسالة من الأخ محمد ابراهيم — صديق سيد درويش وزكريا أحمد — وقد جاء فى هذه الرسالة ما يلى :

« أما قصة اكتشاف زكريا لسيد درويش ، فلم أسمعها منه مطلقا وان الحقائق تثبت بأن مكتشف سيد درويش هو أمين عطالله ، حيث ساقته الظروف الى استماعه وهو يغنى للعمال من فوق السقالة ، فكانت سببا فى سفره لأول مرة الى سوريا ١٩٠٩ ،

مع فرقة أمين وسليم عطا الله .. وقد حدثني المرحوم مصطفى رضا، فقال ان هذه القصة ولو انها حقيقية الا أن الذي يعتبر المكتشف الحقيقي لسيد درويش هو الشيخ سلامة حجازي مستشهدا على ذلك بأنه كان في صحبة سلامة حجازي حيث ذهبا الى استماع سيد درويش في قهوة شيبان بالاسكندرية سنة ١٩١٠ وكان يردد في ذلك الوقت ألحان سلامة حجازي ومحمد عثمان وعبده الحامولي .. وقد غنى في هذه الليلة الكثير من ألحانه ، وشكا للشيخ سلامة اعراض الجمهور عنها ، ولكن الشيخ قال له مشجعا وقد كان يعتز برأيه :

— سر في طريقك ولا تغن الا ألحانك ، فان لم تتذوقها الجماهير الآن فسوف تفرض نفسها عليهم مستقبلا ..

كما أن الشيخ سلامة حجازي قدمه ذات مرة ليغني بين الفصول في رواية « غانية الأندلس » قائلا للجمهور :

— هذا هو خليفتي ..

وفاضت عبقرية سيد درويش بعد وفاة سلامة حجازي بعد أن قام بتلحين روايات عديدة لفرق نجيب الريحاني وعلى الكسار ومنيرة المهدية وأولاد عكاشة وفرقته الخاصة .. بينما بدأت ألحان زكريا في الظهور بعد وفاة سيد درويش بعامين أو ثلاثة .. ؟ فكيف اذن تم اكتشاف الشيخ زكريا لسيد درويش .. ؟؟

وعموما فان العظيم يلاقي عقبات تصد عن المسير يقطع شعابا ويعاني صعابا حتى يرقى ذروة المجد ، ويتسنم شاهق العزة ،

وتتفتح أمامه السبل ليصل الى المكان الذى هيأته له الأقدار .. وهكذا كان سيد درويش وصنوه زكريا .. والا فمن يكون اذن قد تم على يديه اكتشاف زكريا أحمد ؟؟ .. وهل زكريا أحمد قبع فى داره منتظرا من يكتشفه ؟؟ .. !!

وكتب الأستاذ عبد الفتاح محمد يقول :

« أما عن اكتشاف زكريا أحمد لسيد درويش رحمهما الله.. فان المعروف للجميع أن صاحبى الفضل الأول فى اكتشاف سيد درويش هما الأستاذان أمين عطاالله وسليم عطاالله اللذان رحلا بسيد درويش الى الشام فى رحلتيهما عام ١٩٠٩ وعام ١٩١١ ، ويمكن التأكد من هذه الحقيقة بالاطلاع على مذكرات الأستاذ أمين عطاالله التى اشترتها وزارة الثقافة والارشاد . وبالرجوع الى مذكرات الأستاذ نجيب الريحانى التى نشرتها دار الجيب والتى أعدها للنشر الأستاذ بديع خيرى والأستاذان ابراهيم العشماوى وأنور عبد الله ، نلاحظ أن الأستاذ جورج أبيض هو أول من أحضر سيد درويش من الاسكندرية الى القاهرة ، وكان سيد درويش يعمل مغنيا فى مقهى صغير بحى كوم الدكة (مسقط رأسه) وكانت له صلات ببعض الممثلين فلما وصلت فرقة جورج أبيض الى الاسكندرية ذهب سيد اليها ليزور بعض أصدقائه من ممثليها .. وفى فترة الاستراحة سمعه حامد مرسى فأعجب بصوته وعرض الشيخ سيد على حامد أن يغنى مقطوعة لحنها له خصيصا وهى « زورونى فى السنة مرة » ونالت الأغنية نجاحا كبيرا وكانت فرقة أبيض فى حاجة الى ملحن فعرضت على الشيخ سيد أن ينضم اليها ... » .

وقد قلت تعقيبا على رسالة الأخ عبد الفتاح محمد التى نشرتها بالمصور فى العدد ١٩٢٥ أول أغسطس ١٩٦١ :

« ان سفر سيد درويش الى الشام فى جوقة عطا الله ليس معناه أن صاحبى هذه الجوقة هما اللذان اكتشفاه ، فكثيرا ما يعمل الفنان فى فرقة لا تعرف قدره حتى تهيأ له ظروف من يكتشفه ويقدمه للجماهير وقد أعان زكريا صاحبه سيد درويش على سلوك الطريق المؤدى للجماهير .. » .

والحديث عن اكتشاف سيد درويش ، قد تناوله الكثيرون . ومنهم الأستاذ يونس القاضى الذى كتب يقول فى العدد ١٨٢٥ من المصور الصادر فى ٢ اكتوبر سنة ١٩٥٩ :

« فى سنة ١٩١٤ كنت على صلة بزكى افندى صالح معاون مكتب بريد باب الخلق ، وكان يؤدى لى بعض الخدمات ، فقد كنت أوثر ان يحتفظ لى بخطاباتى فى مكتب البريد حتى أمر عليه لاتسلمها بين يوم وآخر ، وحدث مرة أن طلب منى أن أكتب أغنية لمطرب (غلبان) يعرفه فى الاسكندرية اسمه الشيخ سيد درويش..!!

حاولت أن أتهرب منه ، لكنه ألح بشدة ، ولم أجد بدا من كتابة الأغنية .. وخشية أن يعود فيطالبنى بأغان أخرى تعمدت ان اكتب له أغنية ظننت أن الشيخ لن يغنيها ، فقد كانت عبارتها مكشوفة .

وظننت ان الأمر انتهى بينى وبين المطرب الاسكندرانى الغلبان ولكننى فوجئت بالناس بعد أربعة أيام يرددون هذه الأغنية .

لم يكن هناك اذاعة ولا دور سينما ، ولكن الشيخ سيد وضع للأغنية لحنا تناقله الناس من الاسكندرية الى حلوان فى أربعة أيام .. !

واسرعت الى الاسكندرية ، وبحثت عن الشيخ سيد فى كل مكان ولكنى لم أجده .

وأرهقنى البحث فجلست فى أحد المقاهى ، وفجأة أقبل رجل مفتول الشارب والعضلات وسألنى عدة أسئلة دقيقة ، وكأنما هو يحقق معى ورأيت أن أحسم المناقشة فقلت له :

— اذا كنت تعرف الشيخ سيد فمن أرجوك تسلم له الكارت ده ...

وغاب الرجل قليلا ثم عاد ليقودنى الى المنزل ، ولم أعرف ان كان ملهى عاما أو بارا أو مطعما ، فقد كان عامرا بالنساء والرجال.. ووقفت قليلا ثم أقبل رجل عريض المنكبين ظننت أنه أحد فتوات الاسكندرية ، ودون أن ينطق حرفا سحبنى من يدى الى حجرة داخلية ، وفجأة أسرع نحوى يعانقنى ويغمر وجهى بقبلاته .. وسألته :

— لم كل هذا الغموض ؟ ولماذا تحتجب عن الناس .. ؟

— كله من البنت (بنت الـ ...) أصلنا مسكنا فى بعض .. وأنا مش عايز أرجع لها ...

— مين هيه ... ؟

— جليلة ... حبيبتى ...

ودعاني الشيخ سيد لتناول الغداء ، وقبل أن نبلغ المطعم تركني ودخل الى محل رهونات وخلع خاتمه الذهبي من أصبعه وساعته ، وأسرعت اليه أمنعه من رهنهما ، وأكدت له أن في جيبي ٢٥ جنيها وهو مبلغ يكفي ولكن الشيخ سيد ثار قائلا :

— حتيجي في اسكندرية وتصرف من جيبك ... مستحيل ...

وما كدنا نفرغ من طعامنا حتى رأيت الشيخ سيد وقد تسمرت عيناه فجأة ، وقبل أن أسأله أقبلت علينا حسناء رائعة الجمال ، ووقفت قبالتنا وقالت والغضب يتلظى لهبا في عينيها :

— حضرتك الشيخ يونس اللي من مصر .. ؟ مش كده .. ؟! تسمح كلمة !!

ولأول وهلة أدركت أنها جليلة حبيبة الشيخ سيد .. ووجدتني أمضي معها جانبا واذا هي تقول لي :

— أنا مش عايزه أبهدله قدامك علشان انت ضيف . وانت طبعا ما يرضكش انه يهزأني وانا اللي اسكندرية كلها بتعمل لي حساب .. !!

— هوه عمل ايه ياست جليلة ؟ ..

— سايبني والناس شمتانة فيه .. أنا عايزاه يرجع معايا دلوقت وبعدين أهزأه قدام الناس ، واكرشه ، بس أبقى انا اللي كرشته ، مش هوه اللي سايبني !!

وعادت بي الى مكان الشيخ سيد وقالت له :

— قوم يا سيد .

وقام الشيخ سيد ومرت ساعة ، وساعتان ، ولكنه لم يعد بعد ، فبعثت اليه هذا الزجل ...

م الساعة سبعة لتسعة ونص   وعيني عليك لايده بتبص
وتجيني يا أخي حبك برص   والنبي ما اخدك على فترة

ولما لم يعد سيد ذهبت الى منزل جليلة ، فوجدتهما يجرعان كئوس السعادة ، لم تضربه ، ولم تطرده ، ولم يهرب منها كما وعدنني ، لقد كانت جليلة ملهمته التي كانت توحي اليه بأروع الألحان ، وعندما أفاق لنفسه في صباح اليوم التالي أسرع بالحضور الى الفندق الذي كنت أقيم به واتفقنا على السفر معا الى القاهرة ولكن خوفا من أن تعرف جليلة اتفقنا على أن أسافر وحدي ثم يلحق بي في قطار آخر ... » .

وفي البحث الذي نشره الفنان أمين فهمي عن زكريا أحمد ، جاء ما يلي :

« مزية أخرى عرفها في زكريا كل من عرفوه ، تلك هي فرحته الفطرية الشديدة ، بكل موهبة يعرفها في سواه ، وبذله كل جهده في الاشادة بهذه الموهبة والعمل على ابرازها وفسح المجال أمامها ، من ذلك — مثلا — ان زكريا وهو في بدء حياته الفنية بالقاهرة سمع لحنا جديدا قيل ان الذي أبدعه شاب يعمل مطربا في مقهى متواضع في الاسكندرية ، فسافر الى هناك فورا وذهب الى المقهى حيث استمع الى ذلك الشاب وما أشرقت شمس اليوم التالي حتى كانا في طريقهما الى القاهرة معا وبقي فيها الشاب الاسكندراني ، منذ ذلك حيث لمع اسمه وذاعت ألحانه ، وأصبح

بفضل عبقريته التى اكتشفها زكريا وآمن بها الملحن الأول فى البلاد .. ولعل القراء قد عرفوا أن ذلك الفنان السكندرى الشاب لم يكن الا المرحوم الشيخ سيد درويش ، ورغم أن حياة الشيخ سيد درويش لم تطل بعد ذلك أكثر من خمس سنوات فقد ظل زكريا وفيا لعبقريته النادرة ، لا يترك فرصة الا انتهزها للاشادة بفنه الخالد ، وترديدها كما سمعها منه احياء لذكراه وبعثا لما قدم لموسيقانا ... » .

• • •

وبالرغم من الآراء المتضاربة فى اكتشاف سيد درويش ... فانا أومن بأن الرواية التى قصها علىّ زكريا أحمد فى صيف ١٩٥٣ ، عندما كان يروى لى قصة حياته ، هى أصدق الروايات ، لقد كان زكريا أحمد ، مريضا وكان يقص قصته بكل ما فيها من عيوب ومآخذ ، كانما كان يلقى شهادة أمام محكمة التاريخ .. وفى أكثر الأحيان ، وعندما كان يروى مسائل خاصة ودقيقة ، ومحرجة للغاية كنت أسمع صيحات أولاده تنطلق من كل مكان ، « هو دا كلام تقوله يابابا » ... « الحاجات دى راحت من زمان » ... وكان زكريا يصر على أن يروى قصته — ومنها معرفته بسيد درويش — كما هى — بلا مبالغة ، ولا « تزويق » ، لا ينقص حرفا ولا يزيد حرفا ...

لقد التقى زكريا أحمد ، عشرات المرات بسيد درويش ، ذهب اليه فى الاسكندرية أكثر من مرة قبل عام ١٩١٦ ... وروت

مذكرات زكريا التى لا تكذب أبدا قصة لقائه به فى عام ١٩١٦ وكيف كان يشكو من سوء الحال ، وبعد عام ١٩١٦ وكانت ظروف سيد درويش — فى بداية حياته — أقسى مائة مرة من ظروف زكريا أحمد .. فزكريا ولد ، وعاش فى العاصمة منبع الفن.. ومركز السلطة ، ومقر الحكم .. والمجال الطبيعى للشهرة . وسيد درويش ، ولد وعاش فى العاصمة الثانية حيث الثقافة الأجنبية ، والفن الأجنبى ، والعنصر الأجنبى ، فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، له السيطرة ، والنفوذ ، وليس هناك ما يمنع من أن سيد درويش قد استفاد من صلات زكريا أحمد ، وبمعارفه .. والذين التصقوا بزكريا أحمد ، ودرسوا طباعه من معارفه — بل ومن خصومه — لا ينكرون أبدا كيف كان زكريا عاملا مساعدا فى تقدم أى فنان التقى به حتى لو كان ذلك التقدم على حسابه هو .. فزكريا لم يكن يحقد أبدا ، ولا يحمل للناس جميعا الا الحب كله ، والود كله .. وبالنسبة للفنانين كل الفنانين لا يحمل الا أصفى أنواع الحب ... وأخلص درجات الود ...

ولعلنا لا نكون مبالغين اذا قلنا أن انبهار زكريا أحمد بعبقرية سيد درويش ، وتمجيد زكريا أحمد ، لفن سيد درويش ، واعجاب زكريا أحمد بالمدرسة الموسيقية التى جدد كيانها سيد درويش ، واعتراف زكريا أحمد بالزعامة الفنية لسيد درويش كان ذلك كله من العوامل الهامة التى ساعدت على ازدهار هذه الموهبة الفذة فى أيامها الأخيرة .. وعندما يكون الفنانون فنانين بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، يكون التعاون بينهم صادقا والتكامل بينهم ،

منتجا حيث لا مجال للحقد ، ولا للمنافسة غير الشريفة ، ولا مجال للهبوط الى مستوى الصراع الهدام .

لقد كان عمر سيد درويش الفنى ، وعمره الزمنى يسبقان عمر زكريا أحمد ببضع سنوات ، ولكن اتصالات زكريا ، ووجوده فى قلب العاصمة ، وعدم انطوائه على نفسه أتاح لزكريا فرصا لم تتح لسيد درويش .. ثم أتيح لسيد درويش فرصة ، ثورة ١٩١٩ التى اشترك فيها الشعب كله ، والتى قدم فيها الآباء والأجداد أرواحهم الطاهرة الزكية ، بلا مقابل .. كانت ثورة شعبية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .. الفلاح الذى لا يملك الا بندقية يصعد الى نخلة مرتفعة ، لكى يصطاد احدى الطائرات البريطانية المسلحة المهاجمة .. والعمال والفلاحون يهاجمون بفئوسهم القطارات المسلحة البريطانية ، ويفقدون فى كل معركة مئات منهم فلا يخشون مهاجمة قطارات أخرى والرجال والنساء والأطفال من يقيمون فى المدن ، ومن يقيمون فى القرى والنجوع والكفور يضعون أرواحهم على أكفهم ، مشتركين فى هذه الثورة بكل ما يملكون من قوة .. وجهد .. ومال .. وأرواح.. وكان تأثر سيد درويش — لسبقه الفنى والزمنى — بالثورة أكثر من تأثر زكريا أحمد .. ولعل القدر أراد أن يعدل بين العملاقين فمنح سيد درويش عبقرية قصيرة تلألأت دفعة واحدة ، بسرعة لفتت الأنظار ، ومنح زكريا أحمد ، عبقرية طويلة الأجل ، ظلت تتلألأ شيئا فشيئا ، الى أن بلغت القمة بعد وفاة سيد درويش فى أغسطس سنة ١٩٢٣ ...

انطلق سيد درويش — متأثرا بالثورة — انطلاقة كبرى لفترة لا تتجاوز خمس سنوات ، ثم أسلم الشعلة لزكريا أحمد ، لفترة لا تقل عن ثمانية وثلاثين عاما ..

وكان زكريا أحمد ، امتدادا لسيد درويش ، وكانت مجالات التقدم والتطور بالنسبة لزكريا أحمد ، أوسع منها بالنسبة لسيد درويش ...

• • •

وسارت الأمور بالنسبة لزكريا أحمد بعد وفاة سيد درويش، هينة ، لينة ، ليس فيها ما يسبب الضيق أو التعب ، وليس فيها ما يعوقه عن التقدم نحو الشهرة والمجد بخطوات سريعة ، وثابتة .. لقد استطاع فى سنوات قلائل أن يحتل المركز الذى كان يشغله بجدارة سيد درويش .. واستطاع أن يشغل مكان الملحن الأول ، تنطلق أغانيه ، بسرعة البرق ، الى جميع أرجاء البلاد ، وتتهافت عليه أصحاب شركات الاسطوانات لكى يؤلف ويلحن ، ويغنى ... وبما عرف عنه من سماحة ، واتقان واخلاص ، ومحبة للغير ، استطاع أن يجتذب اليه الكثير من المعجبين والأنصار .. وهو فى الوقت ذاته ، ينعم باستقرار عائلى لا مثيل له فى دنيا الفنون ، لذلك انطلق بسرعة كالصاروخ وهال ذلك بعض الخصوم الذين ساءهم أن يبرز واحد منهم هذا البروز الجبار .

وبدأت حملة من أقسى الحملات الفنيــة التى تعرض لها فى تاريخنا الحديث فنان من الفنانين ..

كانت منذ بدايتها — وحتى نهايتها — قوية وعنيفة ومنظمة ..

وكانت تمتد دائما وأبدا ، على بعض أصدقاء الشيخ المقربين الذين أكلوا معه كما قال « عشرات الأرادب من الخبز ، ومئات الأرطال من الملح » ...

وكان ميدانها الأول مجلة المسرح ، أولى مجلاتنا الفنية وأكثرها انتشارا والتى سبق أن قالت فى عددها الصادر فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٥ « ان الشيخ زكريا الملحن الوحيد فى مصر اليوم الذى يستطيع أن يصنع شيئا من الابتكار ويسمو به الى درجة الابداع وسيكون لحامد مرسى وزكريا أحمد أثر خالد فى النهضة الفنية »» ثم انضمت اليها طبقا لخطة موضوعة ، صحيفة كوكب الشرق أولى صحفنا اليومية الحزبية ، ثم انضم اليهما بعض هواة الهجوم فى كثير من صحفنا اليومية والأسبوعية التى تقرؤها آلاف الجماهير، أو التى لا يقرؤها الا أصحابها والمشرفون عليها ..

واستخدم المهاجمون كل سلاح .. ولم يتورعوا أبدا فى استخدام ما لا يليق استخدامه من الأسلحة ...

وتكهرب الجو .. .. ..

وبدأ الناس ينفضون من حول الشيخ .... وبدأت أعماله الفنية التى انتشرت وازدهرت ، ودخلت كل بيت ، وكل مسرح ، وكل صالة ، تتعرض للذبول والضياع .

وبدأ الشيخ يشعر بالمرارة .. مرارة الهجوم .. ومرارة الدفاع

ومرارة الناس الذين أوشكوا أن يتأثروا بالهجوم دون الدفاع ..
التليفونات التى كانت تدق كل صباح ومساء ، والتى لم تكن تسكت أبدا عن الرنين ، والضجيج ضعف صوتها أو كاد — والرسائل التى كانت تتوالى كل يوم مع كل صباح ، حاملة الاعجاب والتقدير .. والزوار الذين لم ينقطعوا يوما ما عن زيارته والالتفاف حوله ، والسمر دواما فى موكبه ، قد تقلص عددهم بصورة لفتت أنظار الأطفال الصغار .. !!

وكلما ظهرت مقالة عنيفة يخيل لقارئها أن الشيخ قد انتهى ، انتهى موكب المنافقين والمطبلين والمزمرين ...

وكما ظهرت مقالة دفاع قوية ، متينة ، عادت الأجراس الى الرنين ، والرسائل الى الوصول .. والزيارات الى ما كانت عليه أو الى شبه ما كانت عليه من الكثرة والوفرة .

ولم تكن محنة الشيخ فى أصدقائه الذين قادوا ضده الهجوم بأقل من محنته فى أصدقائه الذين انفضوا من حوله بعد أن بدأ ضده الهجوم ..

ولقد سمى الشيخ هذا الصنف من الناس الذين لا يعرفك الا اذا كنت غنيا ، أو مشهورا ، أو صاحب نفوذ ، « بأنهم بنى آدم قش » يظهرون مع الخير ويختفون عند بوادر الشر . ولا يعرفونك أبدا الا اذا كانت لهم عندك حاجة .

بدأت الحملة بكلمة نشرتها مجلة المسرح بعددها الصادر فى ١٠ مايو سنة ١٩٢٦ تحت عنوان «أتعرفون الشيخ زكريا أحمد؟».. وقد جاء فى هذه الكلمة ما يلى :

« أتعرفون الشيخ زكريا أحمد .. ؟ هل سمعتم عن الملحن المصرى ؟ هل سمعتم ألحانه فى رواياته الأخيرة ؟ التلحين فوضى فى مصر .. وهذه الفوضى لا ضابط لها .. ولا قانون يسرى دائما . ويظهر فى وسط هذه الفوضى شخصيات تشق لنفسها طرائق الى عالم الشهرة والمكانة الحسنة بين الناس من بين هؤلاء الملحنين الشيخ زكريا أحمد المعروف الذى لحن عدة روايات ..

وقد اشتغل فى المدة الأخيرة بتلحين رواية لمسرح الأزبكية اسمها « على بابا » .. ولا يعلم الا الله متى تظهر .. !! » .

واحتار القراء كما احتار الفنانون وتساءلوا لمصلحة من تنشر هذه الكلمة تحت صورة للشيخ زكريا أحمد ، وما هى المناسبة التى دفعت كاتب هذه الكلمة ليقول هذا الكلام الذى لا يعرف أحد ما المقصود به ، ولكن الشيخ زكريا باحساسه الطيب وصدق فراسته ، التى لا تخطىء عرف كاتب الكلمة ، عرف الهدف من وراء هذه الكلمة ..

وتوقع زكريا أحمد أن وراء هذه الكلمة المسمومة ما وراءها.. وبدأ يتأهب فعلا لمعركة جديدة ..

وكتب محمد البحر — نجل الشيخ سيد درويش — فى مجلة المسرح بتاريخ ١٩ يوليو سنة ١٩٢٦ ، وبعد شهرين وأسبوع من تاريخ نشر تلك الكلمة ما يلى :

« اطلعت يوما على اعلانات بمدينة الاسكندرية فحواها أن السيدة فتحية أحمد ستحيى حفلة طرب بتياترو الهمبرا ١٠ الجارى، فتاقت نفسى الى أن أحضر تلك الحفلة .. وابتدأت الآلات تعزف،

وابتدأت السيدة تغني وسمعت ضمن ما قالته السيدة قطعة مطلعها:
أدي رقت البرنيطة بلا دوشة بلا زيطة
الغنم يسبوا لك ، اعمل قصك حيطة
وما كانت تستقر في ذهني حتى اعترتني دهشة وخاصة عندما قيل لي ان هذه القطعة من تلحين الأستاذ زكريا أحمد ، فعجبت ما الذي حدا بالأستاذ المذكور أن يتخذ لنفسه صناعة غيره ، فهل يقصد بذلك أن يرمينا بالجهل والغباوة ، وانا لا نميز بين الألحان المتشابهة ، أليست هذه القطعة على قد لحن من ألحان رواية « الباروكة » وهو « شوف كيفك » ...

فضلا عن أن الشيخ زكريا أحمد سبق أن لحن قطعة أخرى وهي « ارخي الستارة اللي في ريحنا » وكانت على قد لحن « ألفين حمد الله » .

وأغضينا النظر عنها مؤملين أنه قد لا يعود الى هذا العمل .. وحيث انه تكررت منه هذه الفعلة للأسف نضطر الى أن نهتف بشدة في وجه الأستاذ المذكور راجين الا يعاود الكرة مرة ثانية والا فسنضطر الى فعل ما هو أشد وأقوى ... » .

ويمضي محمد البحر مهددا زكريا أحمد ، وزملاءه الذين يسرقون ألحان والده باتخاذ وسائل أخرى منها الكشف عن كافة السرقات التي قام بها الملحن المذكور أو غيره ...

وقرأ زكريا أحمد الكلمة وكتب الرد بالتالي :

« صديقنا الأستاذ عبد المجيد أفندي حلمي .. اطلعت على ما جاء بمجلتكم القراء تحت عنوان « سرقة » بامضاء محمد

البحر ، ولولا مكانة مجلتكم ما أعرت قوله التفاتا لأن جهله بالفن واضح جدا ، ولعلمي أنها مناورة المقصود منها معلوم ، فبالاختصار أكتب هذه الدعوى تكذيبا تاما وأطلب من مدعيها اثباتها » .

وطلب زكريا احمد بأن ينشر محمد البحر النوتة الموسيقية فى مجلة المسرح ، لينشر هو الآخر النوتة الخاصة ، بلحنه ، وانهى زكريا كلمته بقوله : « واذا لم ينشر النوتة فهذا أكبر دليل على كذبه .. » .

ولو أن الأمر كان طبيعيا لما ترددت المجلة فى أن تعلن أسفها لنشر رسالة محمد البحر ، الذى لم يكن قد تجاوز بعد الخامسة عشرة من عمره ، وأن تعلن فى الوقت ذاته ثقتها وتقديرها للشيخ زكريا أحمد ، غير أنها قالت تعقيبا على خطاب الشيخ « انه دفاع واه ضعيف لا يبرر موقفه ، ولا يخرجه من الورطة التى أوقعه فيها محمد البحر ... » .

ويكتب محمد دواره مدير فرقة تمثيل كوم الدكة ، ولم يكن قد تجاوز فيما يقول — الخامسة عشرة من عمره — خطابا الى الشيخ زكريا عن طريق مجلة المسرح يطالبه فيها بأن ينشر أولا نوتة « آدى وقت البرنيطة » ثم علينا بالطبع أن ننشر نوتة « شوف بختك » « فأنت ملحن بامكانك عمل اللحن فى ساعات ، أما نحن فلا نعرف شيئا عن ذلك .. أليس كذلك .. ؟ » .

وكتبت المجلة تحت صورة للشيخ زكريا أحمد قائلة بمناسبة الضجة القائمة حول تلحين الشيخ زكريا أحمد وهل هو مبتكر أم

يترسم أثر غيره ننشر له هذه الصورة .. وهى آخر صورة له أخذت من شهرين تقريبا ...

وتنشر المجلة « مجلة المسرح » أيضا أن الشيخ زكريا كان مرتبطا مع فرقة الماجستيك بعقد شهرى قدره ٢٥ جنيها ولكن الشيخ زكريا طالب بزيادة هذا المبلغ فرفض طلبه ، وبذلك انفصل نهائيا عن مسرح الماجستيك » .

ورد زكريا أحمد على ذلك بقوله :

« انه لا صحة اطلاقا لما نشرته مجلة المسرح واننى ما زلت متعاقدا مع المسرح المذكور لتلحين رواياته عن السنة القادمة أيضا ... »

وتنشر المجلة التكذيب فى مكان وتنشر فى مكان آخر خبرا ، يكذب التكذيب .. وهكذا .

ويفصح الشيخ يونس القاضى عن دوره فى هذه الحملة فيقول فى نفس المجلة :

« وأنا أقسم بمن خلق الشيخ زكريا أحمد وحكم على شمس سمعته بالغروب اننى ما خرجت من صفوف المتفرجين الا فى هذه الكلمة ... »

ويمضى قائلا انه ما فعل ذلك الا ليكون عند سوء ظن الشيخ زكريا أحمد به .. ويكتب مرة أخرى سلسلة من المقالات عن الشيخ زكريا كلها طعن فيه وفى فنه — وقد سبق الاشارة اليها — ويكتب مرة أخرى تحت عنوان « ليهدأ زكريا » :

« مساء الأحد الماضى قصد زكريا حديقة الأزبكية وجلس فى

البوفيه يتزلف الى فهمى أفندى أمان رئيس جوقة الملحنين بفرقة السيدة منيرة المهدية ورجاه فى أن يحكم بأن دخول « ارخى الستارة » يخالف دخول « ألفين حمد الله على سلامتك » ودفعا لهذا اللبس أقول ان زكريا أحمد أول يوم أخذته لتلقين السيدة فاطمة سرى ، قطعة ارخى الستارة كان معانا محمد أفندى عوض العواد الكبير وتوفيق أفندى الرقاق وصديقى المحترم الحاج أحمد المرشدى ، وصديق زكريا فكان التلحين عند ابتدائها همزة . ارخى ممدودة ، أو هكذا ارخى الستارة ، فلاحظنا عليه ملحوظة أن مد الهمزة لا يليق فقال نخطفها فخطف الهمزة كما خطف اللحن من صاحبه ثم زدت له سطرا يا مفرقشين يا احنا .. ومضى الشيخ يونس يقول .. أما طلب الشيخ زكريا أحمد نشر النوتة فهذا يحتاج الى سؤال الملحن اللاحق هذه الأسئلة والاجابة عليها ، وآنا أتبرع بحفر الكليشهات الخاصة بالنوتة على حسابى — واليك الأسئلة :

— على يد من تعلمت الموسيقى ؟
— هل تعرف النوتة الموسيقية ؟
— هل يصدق الشيخ درويش الحريرى اذا قال انك بتهبش كالغـريق ؟
— والشيخ على محمود اذا قال انك فاضى ؟ هل لم تتفق مع أحد أصدقائك على انك تأخذ الحركات التى أهملت وتذيبها لتحييها من جديد ؟

حسبك اليوم هذه الأسئلة ومتى أجبت عليها رجوت البحر أن يعتبرك موسيقيا وينشر النوتة ... » .

وينهى الشيخ يونس كلمته بقوله « وليكن عند حسن ظنى بفكره ولا داعى للتبجح وليسكت .. » .

وفى العدد ٣٠ أغسطس سنة ١٩٢٦ ، وتحت عنوان « زكريا أحمد فى الميزان » نشرت مجلة المسرح كلمة لمحمد البحر قال فيها :

« اننى مستعد لاجابة طلبكم وارسال النوتة اذا ما أجاب الأستاذ الملحن ، والفنان العبقرى مع ملاحظة أنه اذا لم يجب بنوع خاص على السؤال الأول من أسئلتكم ، وهو على يد من تعلمت الموسيقى بصدق وأمانة « فسأكون مضطرا الى ذكر الحقيقة وبيان من منا يكون لدى قراء المسرح الجاهل الكذاب على أنى من الآن أعد حضرة الملحن وعدا صريحا بأن أكف عن نشر ما لو ظهر بعده لكان كافيا لاسقاطه فى هوة لا يجد له مخرجا منها بعد .. نعم أعده من الآن بذلك اذا نشر على صفحات المسرح أنه لا يمكنه أن يلحن الا ما توحى به روح والدى الفقيد وأن يعتذر عما فرط منه من وصفنا بالجهل والكذب .. » .

وتمضى مجلة المسرح فى الهجوم بلسان الأديب محمد محمود دواره لتقول :

« المدافعون عن الشيخ سيد درويش رحمه الله أربعة : رجلان ويافعان أما الرجلان فهما الشيخ محمد يونس القاضى والشيخ محمد على خاطر ، وأما اليافعان فهما محمد أفندى البحر نجل الفقيد وكاتب هذه السطور ، وليس معنى هذا أن هؤلاء الأربعة

لا غيرهم الذين يدافعون عن العقيد ، فكل غيور على الفن يعمل ذلك ولكن أقصد أنهم المطلعون على كل شيء .. » .

هذه مقدمة أكتبها بمناسبة علمي أن تقولا أفندي الملا الذي هو صديق الشيخ زكريا أحمد الوحيد في الاسكندرية جاءه خطاب الشيخ زكريا يقول فيه « الرجا اسكات محمد البحر ومحمد دوارة عني مع التحري عن المدعو دواره هل هو رجل كبير السن أم هو شاب صغير مثل البحر ، لا تخف يا شيخ زكريا فسني زائد سن البحر يساوي عمرك ...

وقال في الخطاب أيضا انه يريد الاتفاق مع عائلة العقيد على أن يشتري روايتي الباروكة وشهر زاد ، وأن يأخذ الأديب محمد افندي البحر كمساعد له ويعلمه الموسيقى والتلحين ...

يا شيخ زكريا بدلا من أن تعلمه ، تعلم أنت ! ، ولما ذهبت لمقابلة تقولا افندي الملا ، جرى الحديث بيني وبينه أقتطف منه هذه الأجزاء على سبيل الفكاهة لا غير ..

هو : اسمع يابني انت صديق البحر فعليك بنصيحة ، قل له لا تثق بالشيخ يونس فكلامه مجرد كلام وبين له فوائد اتفاقه مع الشيخ زكريا . تعرف يا بني ده الشيخ زكريا سيدفع مبلغا عظيما ثمنا لروايتي الباروكة وشهر زاد دول ستين جنيه مش لعبة ..،

أنا : أستأذن يا خواجة .. عال جدا ، سعيدة يا مسيو .

ثم انصرفت جاريا ...

اذن الشيخ زكريا سارق بدون شك ولكن سرقاته لا يعرفها

القليل لذلك فأنا على أن أذكره بالمسروقات ليعلم أننا نميز بين
هان ولسنا بجاهلين وليكون الجمهور على بينة .. ف رواية
مبورة لحن مسروق من الشيخ سيد .. وف رواية الغول
، من مبدئه الى منتهاه مسروق أيضا .. والغريب المدهش من
يا أن يجعل اللحن الأول من روايته مسروقا بحذافيره ، أليس
' أن يسمى الموسيقار النابغة ... ؟ هل يعترف الشيخ زكريا
كه أم لضطر الى التسبة وعمل أشياء أخرى . ملاحظة : ليعلم
يخ زكريا أن كلامى يجمع بين رأى صديقى الحميم البحر ورأيى
ر على نفسه تحمل الرد على شخصين فليجب اجابة شفوية
بدة » .

وتمضى المسرح فتقول :

« وصلنا بعد هذا الى حد يجب أن يتكلم معه الشيخ زكريا ..
الأديب محمد أفندى البحر فقد فعل كل ما يستطيع ف سبيل
فظة على سمعة والده ، ودعم آثاره ومخلفاته ، وأما الشيخ
يا فلم يصنع شيئا غير قوله « انشروا النوتة » ...
بقيت المسألة الثانية التى جاء بكشفها الأديب دواره ف رسالته
، صحت كما رولها فهى سبة ف حق الشيخ زكريا بل هى
ح سقوطه الأدبى والفنى أيضا اذ أنها تعد اقرارا منه بالفشل
جهة ، وبأن كل ما أسند اليه من التهم صحيح لا شك فيه ..
فماذا يقول الشيخ زكريا .. ان كان يعتقد أن الصمت منجاة له
مخطىء لأن الصمت لا يصلح وسيلة لرد الهجوم ف كل
لات . لو كانت التهم الموجهة اليه شخصيا لأقررناه على

صمته .. أما وهى تهم فى صميم عمله ولم توجه اليه اعتباطا وانما قامت واستندت على أدلة وبراهين فلا محل للسكوت .. اذن وللمرة الرابعة فليتكلم الشيخ زكريا » .

وفى عدد ٦ سبتمبر ١٩٢٦ نشرت المسرح أيضا تحت عنوان « أنصار الشيخ زكريا كيف يدافعون عنه » كل الناس يعرفون الشيخ حامد مطرب فرقة الماجستيك ولكن قليلون من يعرفون أخلاقه وحقيقة نفسه ، والحديث جرى بين حامد ومحمد البحر وصديق له :

حامد : ايه يا ابنى الفضجة اللى انت عاملها ضد الشيخ زكريا ؟

البحر : ضجة هيه (باستهزاء) مش حاجات حقيقية كلها ...

حامد : أيوه أنا معاك فى مسألة أرخى الستارة حقيقى تمام زى نغمة « هيعى يابوعفان » اللى عملها أبوك .

الصديق : طيب ولحن « آدى وقت البرنيطة » ما هو برضه على نغمة « شوف بختك فى مراتك » .

حامد : (متململا) ولكن الشيخ زكريا بيحلف الله ماشافش رواية البروكة أبدا .

البحر : (محتدا) كداب ونسمين كداب ...

حامد : لكن قوللى بذمتك مش الضجة دى اللى أنت عاملها دى مصدرها واللى دلك عليها هو الشيخ يونس القاضى ... ؟

البحر : أبدا والله العظيم ... » .

وفى عدد ١٣ سبتمبر ١٩٢٦ من المسرح يكتب الشيخ يونس

تحت عنوان « الشيخ زكريا فى الميزان » يتهمنى كثيرا بأننى عدوت على الشيخ زكريا مع أنه صاحب عزيز علىّ وكلهم أصدقائى ، وكلهم أعزاء على ومع ذلك لا أملك لهم نفعا ولا ضرا اذن المسألة مسألة اتهام ودفاع والاتهام قوى .. والدفاع ضعيف لاذن فقد سقط الشيخ زكريا وهوى ... » .

وتنشر المسرح رسالة بتوقيع ع . عامر قال فيها :

« ان الشيخ يونس القاضى قد نثر سهام كنانة أصدقائه بين يديه وعجم عيدانها فأخذ منها ألينها عودا وأسلها مكسرا فنشر صحيفته على الناس ، وقد كانوا عنها غافلين ولست أدرى ما الذى حمل الشيخ يونس على أن يتناسى معرفته القديمة للشيخ زكريا وما قد كان بينهما من صلة ورابطة لا يمكننى الحكم على مداها. وما الذى جعله اليوم ، يهجم عليه فيمطره وابلا من أمر سهام النقد ، ثم لا يكتفى بكل ذلك فينبش قبور الماضى من ثراها جيفة قذرة يضعها على المشرحة ليحللها أو فى المرآة ليخرج منها صورة حقيقية .. » .

ويمضى صاحب الرسالة فيقول :

« لست أدرى متى ولا كيف صار الشيخ زكريا ملحنا وموسيقارا ، فلقد عهدناه فى الماضى القريب لا يعرف غير القصة النبوية الشريفة وقراءة البردة والذكر الحكيم .. ثم لم نلبث أن نراه يخرج بنفس هذا العمل الشريف الى ميدان الفن فيخرج لنا من الألحان ما عافته الأنفس لكثرة سماعه » .

ثم ينهى صاحب الرسالة رسالته بقوله :

« أما أنت يا عزيزى يونس فالضرب فى الميت حرام « ثم راع حقوق الصداقة ثانيا ... » .

ومضى الخصوم يكتبون من المقالات ويختلقون من الروايات ما يشاءون وشاء لهم تكتيكهم أن ينقلوا المعركة الى مكان آخر ، له عند زكريا أحمد قدسيته .

ولم يترددوا فى اللجوء الى هذه الطريقة لقد نشروا صورة للشيخ زكريا واحدى الفنانات فى وضع غرامى ...

ومضى خصوم الشيخ زكريا يهاجمونه فى ميادين كثيرة متعددة، كل ذلك رغبة فى القضاء عليه أدبيا ، وماديا ، وفنيا ، وعائليا .

ولكن مهمة القضاء على زكريا أحمد لم تكن سهلة ولا ميسورة ، وكما اتخذ خصوم زكريا أحمد مجلة المسرح لتكون أرضا للمعركة ، اتخذ أنصار زكريا أحمد مجلة « ألف صنف » لتكون أرضا للدفاع عن زكريا أحمد ...

وكما أبلى الشيخ يونس القاضى فى معركة الهجوم أبلى الأستاذ بديع خيرى فى معركة الدفاع ونشرت مجلة « ألف صنف » فى ٢٠ يوليو سنة ١٩٢٦ . تحت عنوان « الفن يهان » ما يلى

« جاءتنا كلمة بامضاء محمد محمود دوارة يتهم فيها الأستاذ الموسيقار النابغة الشيخ زكريا أحمد بأنه سطا على لحن المرحوم الشيخ سيد درويش فى رواية البروكة . وقد كان الواجب الصحفى يحتم علينا نشر الرسالة لولا أن حضرة مرسلها يقول فى آخرها « واليوم نكتفى بهذا القدر على أن نعود أو لا نعود .. » .

« ونحن لازلنا نحتفظ بحقه فى نشر كلمته متى وعد بأنه مستعد لموالاة الجدل والمناقشة بشأنها .. واحضار كلام ونوتة القطعة المفروض سرقتها حتى يقتنع هو أو يلزم الشيخ زكريا الحجة بأنه سرق هذا اللحن .. واما أن يصفه بهذه التهمة ثم يتولى هاربا من الميدان ، فهذا ظلم وافتراء وليس من العدل أن يعول عليه .. » .

وخصصت مجلة ألف صنف بعض صفحاتها للدفاع عن فن الشيخ زكريا أحمد ، وكتبت مرة تحت عنوان « الى خصوم الأستاذ زكريا أحمد » .. للاستاذ تقولا الملا :

« اسمع ضجة تحدث حول الأستاذ زكريا احمد ناسبين اليه سرقات مزعومة والحملة مدبرة نحو رجل كالأستاذ يعمل للفن بما أوتى من قوة فى هدوء وسكون ولست أحاول دفاعا عن الأستاذ وانما كلمة الحق هى التى تنطق لسانى اليوم . وأنا أحد الهواة الذين يستنشقون هذا الفن الجميل ويتعلمون أصوله .. » .

وينهى صاحب المقال كلمته موجها الحديث الى انسان أراده هو ولم يفصح عنه « حاسب ضميرك واذا كان بيتك من زجاج فلا ترم الناس بالحجارة » .

وكتب محمد فاضل فى مجلة ألف صنف عدد ١١ سبتمبر سنة ١٩٢٦ ، يقول :

« قرأت فى مجلة المسرح جملة مقالات فى أعداد مختلفة ان الشيخ زكريا احمد الملحن المعروف سارق الحان المرحوم الأستاذ الشيخ سيد درويش ، ويدعيها لنفسه مثل « أرخى الستارة اللى فى ريحنا » على قد « العين حمد الله على سلامتك » ولحن

« آدي وقت البرنيطة » على قد « شوف بختك » فى رواية البروكة .. وبعد ذلك قرأت ردا من الشيخ زكريا طلب نشر النوتة حتى ينشر هو أيضا نوتته والحكم للجمهور ، فما كان من « المسرح » الا أنه علق على خطاب الشيخ زكريا قائلا : هذا دفاع واه مع العلم بأن هذا الدفاع أعظم دفاع لأنه محسوس جدا والحقيقة فيه تكاد تكون محسوسة ، فانتظرت لأكون متفرجا الى النهاية وظهرت الحقيقة ظهور الشمس فهم يريدون مهاجمة الشيخ زكريا أحمد وتشويه سمعته لا سمح الله — وخصوصا بعد ما كتبه الأديب يونس القاضى عن الشيخ زكريا أحمد والذى يناقض نفسه بنفسه ، لأنه قال عن الشيخ سيد درويش انه وجد صوت الشيخ زكريا غير حسن ولا يليق وجوده فى جوقة الملحنين فى تلحين رواية شهرزاد ولم يتمكن الشيخ زكريا أن يحفظ شطرة من لحن الشيخ سيد فى أربع ساعات .. وفى مقال آخر يكتب انه سارق من الشيخ سيد درويش . ومن البديهى ان كل سارق يقظ أو نبيه جدا ، وهذا يتنافى مع ما قاله الشيخ يونس من ان الشيخ زكريا غبى لدرجة عدم حفظه شطرة من لحن فى أربع ساعات » .

واخيرا قرأت العدد الأخير من مجلة المسرح حيث جاء فى كلام الشيخ يونس :

« الشيخ زكريا سارق لحن « مصطفاكى » وعمله لحن « تركى افندى » وموجود اسطواناته فى محل كالدرون ، فذهبت الى محل كالدرون من باب العلم واشتريت اسطوانة

الشيخ زكريا وقارنت بين الاثنين ولم أجد غير الافتراء من الاديب يونس ، وبما انى من هواة الفن وأعزف على العود ، وكنت من تلاميذ المرحوم محمود افندى الجرمكشى والشيخ يونس وأنصاره ، لم يكونوا على شيء من الفن الموسيقى مطلقا أقرر انتصارا للحقيقة ان ما يقوله الشيخ يونس من ان الشيخ زكريا أحمد سارق لألحان الشيخ سيد درويش هو باطل ، ويشتم منه رائحة العداوة للاستاذ الشيخ ، وأقول للاديب من باب الاقتراح أن يتعلم الموسيقى أولا ثم يكتب عن الموسيقى ثانيا ، لانه غلط غلطة كبيرة مدهشة من مقارنته للقطعتين « مصطفاكى » و « تركى افندى » ، والغلطة هى ان لحن مصطفاكى نغم نهاوند ولحن تركى افندم نغمة حجازكار « والفرق بين الاثنين كالفرق بين الليل والنهار » .. وينهى السيد محمد فاضل مقاله بقوله مخاطبا الشيخ زكريا :

« سر فى طريقك ولا يهمك غير كلام الموسيقيين ، وما دمت على الحق فالله معك أينما كنت وانما يعرف الفضل من الناس ذووه .. » .

وبدأت حملات الافك والتضليل ، يصيبها الضعف والهزال ..

وتراجعت مجلة المسرح الى حد ما ونشرت للسيد تفولا الملا من أشد أنصار الشيخ زكريا أحمد ، رسالة بعث بها اليها ردا على بعض عبارات نقلت على لسانه قال السيد تفولا .. :

« عهدى بالمسرح لا يسرف فى القول ، وعهدى بصاحبه لا ينشر الا الحقيقة ناصعة ، ولست أدرى ما الذى غير تلك الحال

فأصبح المسرح مرتعا خصيبا لأقلام صبيانية يحركها حب الظهور ،
أقول هذا وقد تلوت والدهشة تمرونى ما خطه يراع الأديب
محمد دواره وما نسبه الى من حديث ملفق ، وقد كان أونى
بحضرته وهو تلميذ لا يجتاز الخامسة عشرة ألا يعود نفسه على
الكذب مدفوعا أو غير مدفوع على انى سأنشر للملأ ما حدث
تاركا للجمهور عامة ولصاحب المسرح خاصة تحكيم ضمائرهم
وانى لأرضى بهم حكما عدولا . حضر الى محلى يوما فتى رلجيا
اياى أن أمهد له السبيل لمقابلة الأستاذ الشيخ زكريا أحمد ،
فقلت له ان الأستاذ غير موجود بالاسكندرية : وقد بلغنى من
أحد أصدقائه بأنه سيحضر قريبا ، فما الذى تبتغيه من الأستاذ ؟
فأجاب الفتى بأنه يريد التحدث الى الأستاذ فيما يختص بالألحان
التى يدعيها لنفسه وهى منقولة من ألحان المرحوم سيد درويش ،
فقلت للفتى من أنت ؟ وهل لك المام بعلم الموسيقى ؟ فقال بانه
يدعى دوارة ، وانه لا يدرى شيئا من علم الموسيقى ، فقلت له
وقد نفد صبرى : اذهب يا بنى والتفت الى دروسك ولا تتداخل
فيما لا يعنيك ولا تسمع كلام الناس لأنه يضرك .. » .

« هذه هى الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان ، وانى لأقسم غير
حانث بأنه لم يصلنى خطابات مطلقا من الأستاذ الشيخ زكريا
أحمد منذ عام تقريبا ، فهل يا ترى الأديب رأى الخطاب فى المنام
أم حركته أيد خفية تعمل من وراء الستار ؟ » .

وتراجعت « المسرح » بسرعة ، فطلب رئيس تحريرها وصاحبها
من الشيخ يونس القاضى أن يتوقف عن كتابته التى يهاجم فيها

الشيخ زكريا ثم أعلن اقفال باب الجدل فى هذا الموضـــوع .. واخذت المسرح تعاود الحديث عن الشيخ زكريا بلهجة جديدة وتصفه بأنه امام الملحنين .. !!

واعترف الأستاذ محمد دوارة بأن الحملة كانت ظالمة وان اللحنين لم يكونا مقتبسين ولا مسروقين وان كلا من ســيد درويش وزكريا أحمد له طابعه الخاص وأسلوبه الخاص .. وان زكريا أحمـــد هو الامتداد الطبيعى الأصيل لمدرسة ســيد درويش ..

وأنهت مجلة « ألف صنف » فى عددها الصادر فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٦ المعركة بمقارنتها بين سيد درويش وزكريا أحمد فقالت :

« أجل لقد تشابهت نشأتهما تشابها تاما ، يدعو الى التفكير وامتزجت نفسيتهما ، وأرواحهما لدرجة أخطأ تعرفها المحررون من الذين آكل الحقد قلوبهم فاتهموا الشيخ زكريا بالسطو على مخلفات المرحوم الشيخ سيد درويش ، ولم يقف هذا التشابه عند حد ، الفن وحده ، ولكنهما تشابها كثيرا فى اعتبارات أخرى فكلاهما تعشق الموسيقى ونبغ فيها بعد أن قضى شطرا من حياته فى قراءة القرآن وترتيله ، وتشابها فى استبدال العمامة بالطربوش ، وفى كثرة الحساد والخصوم الذين يهرفون عنهما بما لا يعلمون ، وها هو الشيخ زكريا اليوم يتألب عليه حساده محاولين النيل من فنه وكرامته فيفعلون كمن ينطح برأسه الصخر ليوهنه .. ولقد تسنم المرحوم سيد فى حياته ذروة المجد الفنى وان الأستاذ

زكريا وهو لا يزال فى شباب فنه : قد بلغ مبلغا لا يتطاول اليه فى عصره ملحن آخر . ولئن أطال الله حياته وهو ما نرجوه لرأينا من عبقريته الفياضة ونبوغه ما يسمو بالفن الى السماكين .. فنعم الخلفه لخير سلف ، ورحمة الله على سيد درويش وسلام على زكريا أحمد .. » .

ولكن لماذا هذه الاطالة فى الحديث عن معركة صحفية مضى عليها أكثر من ثلاثين عاما ؟ والجواب اننى أرى أن هذه الحملة المغرضة التى أريد بها تحطيم زكريا ، هى بنفسها التى مهدت له طريق المجد والشهرة .

أم كلثوم وزكريا
(معًا على عتبات المجد)

ما السر وراء اهتمام زكريا أحمد بأم كلثوم ، لقد ذهب اليها في طماى الزهايرة : وهي فتاة مغمورة لا يفطن الى موهبتها الفنية أحد ، واستمع اليها . وقدم لها لحنا من أحب ألحانه ، ثم أقنعها بالمجيء الى القاهرة لتكون قريبة من منابع الفن والشهرة ، وأجهد نفسه شهورا طويلة في تنظيم حفلات لها ولتعريف الجمهور القاهري بها في السيدة زينب والحسين والموسكي ، وبركة الرطل و .. و ..

وسافر أكثر من مرة الى المحلة الكبرى ، وقليوب وشبرا و .. و .. ليكون الى جوارها ، وهي تغني وتنشد المواويل والموشحات والقصائد الدينية ثم كان لها لفترة تزيد على الثلاثين عاما ، نعم الأخ ، والصديق والزميل .. ووضع خلال هذه الفترة الطويلة عن طيب خاطر ، موهبته ، وفنه ، واخلاصه وجهده وأحاسيسه بين يديها .. حتى استطاعت أن تتربع على عرش المجد ، وتعتلي قمة الغناء ..

وعندما حاول الكثيرون من الخصوم القضاء على أم كلثوم ،

ونصرة غيرها عليها بالباطل ، كان زكريا الى جانب أم كلثوم دائما يرد عنها سهام الخصوم ، ويحمل لها راية الدعاية السليمة المتجه ، وكان دواما — حتى بعد أن اختلف واياها — يرى ان قصة كفاحها يجب أن تدرس فى المدارس ، ويجب أن تؤلف عنها الكتب ، ويجب أن تكون موضوعا لأفلام سينمائية .. فهى الموهبة الفذة النادرة ، التى لا مثيل لها فى تاريخنا الحديث ، وهى الجوهرة السليمة النقية ، التى لا يجود بها الزمان الا فى القليل النادر .. وهى الذخر الذى تبقى لموسيقانا العربية بعد أن تعرضت لموجات عنيفة من التنكر والاقتباس من الغرب ..

وقصة أم كلثوم التى كان يراها جديرة بأن تدرس فى المدارس كما ذكرتها أم كلثوم ذات مرة : « بدأت أغنى وعمرى ثمانى سنوات وكان ذلك عند مأذون بلدتنا طماى ، وغنيت يومها :

أقول لذات حسن ودعتنى بنار الوجد طول العمر آه

ولم أتقاض مليما واحدا ، فقد كان شرفا لنا أن نغنى عند المأذون ، وسمعنى أهل القرية المدعوون وقالوا : « ان صوتى جميل » ..

وفى اليوم التالى دعيت لفرح خفير نظامى فى عزبة الحوال بقرب قريتنا ، وقد غنيت هناك الى الصباح ، وفى تلك الليلة تقاضيت أول أجر فى حياتى وكان عشرة قروش ، ولم يكن هذا نصيبى وحدى ، وانما كان أجرة الفرقة المكونة من والدى وأخى خالد وأنا .. وبدأت القرية تسمع باسمى .. وبعد ذلك بخمسة

ثم أقام الحاج يوسف تاجر الغلال بالسنبلاوين ليلة ودعانا لاحيائها . وغنيت في تلك الليلة أغنية :

حسبي الله من جميع الأعادي وعليه توكلي واعتمادي

وبقيت أغني من الساعة التاسعة مساء الى الساعة الثانية صباحا بغير انقطاع ..

وكم كان سرورنا عندما دس صاحب الفرح يده في جيبه وأعطانا أجرنا الضخم ، وكان في ذلك الوقت خمسة وعشرين قرشا ، سررنا كل السرور واعتبرنا أننا بهذا المبلغ من الأغنياء ..

وبعد ذلك فكر حسن افندي حلمي التاجر بمحطة أبو الشقوق في اقامة ليلة يكون الدخول فيها بأجر .. وكان أجر الدخول خمسة قروش في الدرجة الأولى وثلاثة قروش في الدرجة الثانية وبلاش في الدرجة الثالثة .. أي يقف المتفرج من وراء الخيمة .

ونجحت الليلة نجاحا لم يخطر لنا على بال .. فقد حضرها متفرجون من البلاد المجاورة ، وكان من بين هؤلاء بعض أهالي المنصورة فأقبلوا يهنئونني .

ولم أعرف أنني نجحت الا عندما أعطانا صاحب الليلة جنيها ونصف ، ونظرت الى الجنيه في دهشة : فقد كان أول جنيه أراه في حياتي .. ودعانا عبد المطلب افندي الموظف بدائرة المرحوم الشناوي باشا في الأسبوع التالي لاقامة فرح أخيه في كفر بدماس بندر المنصورة بأجر قدره جنيه ونصف في الليلة بما في ذلك مصاريف الانتقال . وبدأت أشعر بأنني انتقلت من مطربة محلية الى مطربة « عالمية » ذلك اني دعيت بعد ذلك الى الغناء في مركز

اجا .. ثم وجدت نفسى أنتقل من مديرية الى مديرية فغنيت فى كفر صقر .

وفى سنة ١٩١٥ كنت اركب حمارا ويسير ابى وأخى على أقدامهما ..

وفى سنة ١٩١٦ زاد ايرادنا فكنا نركب نحن الثلاثة حميرا ..

ومن الطريف ان أهل الفرح كانوا يحضرون لنا الحمير لنذهب الى الفرح ، وبعد انتهاء الفرح يتركوننا نعود الى بيتنا مشيا على الأقدام ..

وحتى سنة ١٩١٩ كنت أركب الدرجة الثالثة فى قطار السكة الحديد وفى سنة ١٩١٩ ارتفع أجرى بارتفاع سعر القطن فوصل الى ثمانية جنيهات ، ثم قفز الى عشرة جنيهات .

وكنا نجلس فى الدرجة الثانية وأغنى للكمسارى وفى مقابل هذا يسمح ببقائنا فى الدرجة الثانية بتذاكر الدرجة الثالثة ، فقد كنت أغنى لهذا الكمسارى طول الطريق ولا أقف فى المحطات » .

وتتذكر ام كلثوم قصة فرح كانت قد دعيت لاحيائه فتقول :

« اتفق أحدهم على أن نحيى له فرحا بالقرب من نبروه ، ولا أزال أذكر صبيحة يوم الفرح حين أخذنا القطار من السنبلاوين الى المنصورة ثم عبرنا النيل الى طلخا وركبنا قطار الدلتا الى نبروه . ووصلنا اليها أخيرا لنجد مفاجأة تنتظرنا ، فان أصحاب الفرح قد نسوا أن يبعثوا بالركائب لتحملنا الى قريتهم البعيدة عن الطريق ، واحترنا بعض الوقت ثم ردد والدى احدى حكمه التى يلقيها فى المناسبات قائلا : « المشغول لا يشغل » ، وأخذ هو

يدير أمر الركائب فاستأجرنا عددا منها ، واتجهنا الى القرية وكانت هناك مفاجأة أخرى ، كانت القرية خالية من معالم الفرح . وسألنا عن بيت أصحابه الذين تعاقدوا معنا واستطعنا بمجهود شاق أن نصل الى بيتهم وندق بابه المغلق ، وخرج صاحب البيت قاطل من بابه وهو نصف مغلق ونظر الينا فى فضول وقال :

— خير ؟

وقال والدى :

— خير ان شاء الله ، انت مش متفق معنا على أن نحيى عندك الليلة فرحا ؟ ..

وقال الرجل وهو لا يزال واقفا فى فتحة الباب :

— ما أجلناه ؟!

فدهش والدى وقال :

— أجلتوه لكنكم لم تقولوا لنا !

ورد الرجل فى برود :

— أقول ايه ؟ ما هى البلد كلها عارفة !

ثم صاح بجاره وكان واقفا على باب منزله المجاور :

— الا بحق يا محمد موش احنا أجلنا الفرح ؟

ورد محمد فى بلادة مثيرة :

— آه !

وكانت أعجب « آه » سمعتها فى حياة مليئة بالآهات .

ودعينا مرة أخرى الى حفلة فى احدى القرى ووصلنا الى

القرية ونزلنا بمنزل صاحب الحفلة ننتظر مجيء الليل لبدء الأفراح ..

وجاءنا صاحب الحفل قرب العصر وقال ألا تريدون أن تشاهدوا مكان الاحتفال ، وقلنا هيا بنا ، فنزلنا الى حيث كان الاستعداد على قدم وساق ، ولما وصلنا الى حيث كان يجب أن أقف لأغنى ، ربت الرجل على كتفى فى طيبة قائلا :

— اسمعى يا بنتى ، حين ترين هذا الفانوس قد كسر فانزلى واختبئى تحت المنصة !

وسأله والدى فى دهشة :

— ليه ؟

وقال الرجل فى صراحة ما زلت أحسده عليها :

— أصل بقى بالحق ..

ثم أخذ يروى لنا كيف انهم أحضرونا لاقامة هذه الحفله لكى يدعو اليها أهل القرية المجاورة لينصبوا لهم كمينا أثناء الحفلة ويضربوهم .. وبدأت ركبتى تهتز وأسنانى تصطك وجاء موعد الحفلة وبدأت الجموع تفد الى السرادق ودخلت فاعتليت المنصة وأنا أنظر الى حيث يجب أن أهرب عندما يكسر الفانوس .

ثم نظرت الى الفانوس وهو يهتز وقلبى يهتز معه وأنا أغنى « سبحان من أرسله رحمة » ، ولم أحس فى حياتى بأننى أغنى بوجدانى ومشاعرى كما كنت أغنى للفانوس ، وأنا أخاطبه ناظرة اليه من خلال الدموع « سبحان من أرسله رحمة » وفجأة تحطم الفانوس ، وكنت أسرع من البرق فى الاختفاء تحت المنصة .

ويبدو انني لم اكن اكثر الناس خوفا ، بل ان صاحب الفرح نفسه هو الذي كان يرتعد رعبا .. فقد اكتشف بعد فوات الأوان ان أهل القرية الأخرى جاءوا وهم أيضا يضمرون العدوان ، وجاءوا فى نيتهم أن يقلبوا الفرح مأتما ، وكانت مفاجأة لصاحب الفرح أن يكتشف ان ضيوفه كانوا اكثر استعدادا وقوة من الكمين الذى نصب لهم ودارت الدائرة عليه : وما صدقنا أن خرجنا من القرية فى اليوم التالى ، وأنا أردد من قلبى بايمان منقطع النظير « سبحان من أرسله رحمة » .

أما قصة مجيئها الى القاهرة لأول مرة فترويها أم كلثوم نفسها فتقول :

« وصلت الى القاهرة ولا أذكر عنها غير الكراملة التى اشتراها احدهم لى من بوفيه بجوار محطة باب اللوق ، وكانت هذه الكراملة هى كل ما حببنى فى القاهرة ، فجعلت التهمها واحدة واحدة حتى وصلت الى حلوان . ودخلنا الى المنزل . ولما شاهدنى « البك » وجها لوجه ، تمتم بكلمات تبينتها بنباهتى قال : « ايه لعب العيال ده » . وسأل : « هى البنت دى اللى حتغنى ؟ » قلت : « أيوه » . فانزلونى مع والدى وأخى الى بدروم المنزل ، وأرسل « البك » يستدعى « الصييت القديم » الشيخ اسماعيل سكر لانقاذ ما يمكن انقاذه من سمعة السهرة . ولم أشعر بأية اهانة لهذه المعاملة ، نظرا لصغر سنى .. وحضر الشيخ اسماعيل سكر ، فجلس فى الصالة الكبرى للدار وأخذ فى الانشاد . وعند منتصف الليل عرض عز الدين بك على أصدقائه ومدعويه فكرة استدعائى

ولو للتجربة لعل وعسى ، فقبلوا الفكرة ، وصعدت الى الدار مسرعة من فرط السرور ، وظهرت أخيرا على وش الدنيا ، وما ان وصلت حتى وقفت على الكنبة استعدادا للغناء .. غنيت بكل جرأة وانطلق صوتي متدفقا في ردهات الدار ، ولا أحب أن أصف ما تملك الناس من طرب في تلك الليلة ويكفي ان الشيخ اسماعيل سكر الذي جاء لانقاذ الليلة ، كان الواسطة لدى في اجابة طلبات « آعد وكمان » . كانت أول ليلة غنيتها في القاهرة أو في منطقة القاهرة ، ولم أكن أشعر بخوف أو خجل ، أو أحس بالمسئولية التي أحس بها الآن » ..

ويروى زكريا أحمد قصة لقائه الأول بأم كلثوم — فيقول :

« كان ذلك في عام ١٩١٩ كنت قد ذهبت الى السنبلاوين بصحبة المرحوم الشيخ أبو العلاء محمد المقرىء والمغنى الشهير . لاحياء ليلة من ليالي رمضان ، وكان وجوه القوم يحتفلون بهذا الشهر المبارك احتفالا كبيرا ، ويعدون له من وسائل السمر اللطيف ما يحيي القلوب وينعش النفوس .

واستقبلنا علي بك أبو العينين صاحب السهرة بالترحيب الكبير . وقدم لنا المرحوم محمد افندى عمر القانونجي الذى كان كثير التردد عليه . وقامت بيني وبين عمر افندى الألفة ، وأخبرني أثناء حديثه معه بأن هناك فتاة صغيرة السن ، جميلة الصوت تدعى أم كلثوم ، ولو تعلمت أصول الغناء لأصبحت مطربة عظيمة .

ولم يسعدني الحظ في هذه الليلة برؤية هذه الفتاة الصغيرة .

ولم تمر الا أيام معدودة ، ودعيت مرة أخرى الى السمر ،

إلى هذه الليلة قابلتها ، وكانت بصحبة والدها وشقيقها ، واستمروا لي واستمعت اليها : ففرحت بها وتنبأت لها بالمستقبل الكبير ، ونشأت بيننا صداقة وطيدة دفعتنى الى أن أهدى اليها موشحا مطقطوقة .

ودعوتها الى القاهرة فى حفل ضم مجموعة مختارة من أبناء العائلات ورجال الفن ومن بينهم المرحومان الشيخ أبو العلاء محمد والشيخ على محمود .. وقد صادفت أم كلثوم فى هذه الحفلة نجاحا كبيرا .

وتعرفت أم كلثوم فى هذه الليلة بالأستاذ القصبجى والدكتور محمد صبرى الذى اشتهر بحبه للتلحين ، كما كانت هذه الحفلة سببا فى أن يبدأ الحاج صديق أحمد متعهد الحفلات المشهور فى تنظيم حفلات لها ، فى فترات الاستراحة بين فصول روايات الأستاذ على الكسار ، وكان يقوم بتلحين المقطوعات لها الأساتذة أبو العلاء والدكتور صبرى ومحمد القصبجى .

وكنت فى هذا الوقت أقوم بتلحين روايات الكسار فدعتنى أم كلثوم الى تلحين بعض أغانيها وذلك بمناسبة تسجيل عدة اسطوانات لها . وكان أول ما لحنت لها مقطوقة « اللى حبك يا هناه » من تأليف أحمد رامى ، « وهو ده يخلص من الله » تأليف بديع خيرى ، وكان ذلك نحو سنة ١٩٢٥ .

كما قام الشيخ أبو العلاء بتلحين « أفديه ان حفظ الهوى » و « حقك أنت المنى والطلب » .

وأخذنا : القصبجي وداود حسني وأنا نلحن لها حتى قدم لها مسيو بارو مدير شركة أوديون الأستاذ رياض السنباطي .

ومنذ هذا اليوم أصبح ملحنو ام كلثوم هم السنباطي والقصبجي وأنا ..

وأم كلثوم المطربة الفنانة صاحبة صوت لم أسمع مثله منذ ولدت » .

وأغرق في المذكرات والذكريات والمخلفات ، واتصل بالكثيرين من أصدقاء زكريا وأم كلثوم ، واسترجع ما سبق أن رواه لي زكريا في فترات متباعدة عن صلته بأم كلثوم . واعجابه بأم كلثوم . وسعيه المتواصل ، لاسترضاء أم كلثوم ، ومن هذا كله نرى الحقائق التالية :

لم يكن زكريا لأم كلثوم في بداية عهدها بالغناء ملحنا فقط . بل كان صديقا وزميلا ، وأخا تربطه بها وبالأسرة كلها . خاصة والدها . وشقيقها خالد — يرحمهما الله — كل أواصر الحب والود والاخوة والصدق .. وزكريا أحد كتلة وفاء تتحرك ، عندما تمرض هي أو يمرض أحد من أقاربها يكون دائما بجانبهم . وعندما تسافر الى بلدة قريبة أو بعيدة لاحياء بعض الحفلات . يحرص زكريا على أن يكون بجوارها حتى تجد دواما صديقا يفهمها وتفهمه ويخلص لها الود وتخلص له ..

والذين عاشوا الفترة الأولى ، من حياة أم كلثوم يذكرون ان طريقها الى المجد ، لم يكن مفروشا بالورود والرياحين ، بل كان مليئا بالأشواك والسدود ، والقيود ..

وقد تعرضت الفنانة الشابة لأعنف الحملات ، وأقسى المعارك ، وقد اطلعت على بعض المقالات التى كتبتها عام ١٩٢٦ مجلة « المسرح » — نعم مجلة المسرح بالذات التى تخصصت فى الهجوم على زكريا أحمد ، وكتبت عنه خمس مقالات من أعنف المقالات — طعنا فى أم كلثوم ، وكانت هذه الحملات تستهدف الى الحيلولة بين أم كلثوم وبين الانطلاق الى القمة .

كما انها كانت تستهدف فى الوقت ذاته الى ابقاء لواء الزعامة الفنية معقودا للفنانة منيرة المهدية .. ومنيرة المهدية . لها نفوذها الجبار ، حتى لقد كان يجتمع فى بيتها مجلس الوزراء ، واذا غضب منها أحد رؤساء الوزراء ، كانت تصالحه بأغنية « تعالى يا شاطر نروح القناطر » ، ويصطلح رئيس الوزراء ويذهب الى القناطر . وحضر أحد رؤساء مجلس الشيوخ الى حفلة لمنيرة المهدية ، وتباهى بأنه « أنطونيو .. وأنطونيو هو » أما أم كلثوم فانها لا تملك ذهبا ولا فضة ، ولا جاها ، ولا صالونا ، اللهم الا العقال والكوفية ، وموهبة فنية رائعة ، وتعصب لها من بعض الأصدقاء .

وتتغلب الصداقة والموهبة ، على السلطان ، والجاه ، والصحف المغرضة ، ويكتب لأم كلثوم السيطرة على الجو الفنى .. وتتعاقد أم كلثوم مع شركة للاسطوانات كانت قد أوشكت على الافلاس ، فتنقذها من الافلاس ، بالرغم من أن العقد بين هذه الشركة وبين أم كلثوم كان فى صالح أم كلثوم ، حيث كانت الشركة تعطى أم كلثوم عن الاسطوانة الواحدة خمسين جنيها وهو مبلغ لم يعرف حتى عام ١٩٢٧ ، ولم يصل اليه سلامة حجازى والمنيلاوى ..

وكان أجر صالح عبد الحى على ملء الاسطوانة اثنى عشر جنيها .. وعبد الوهاب عشرة جنيهات .

وقد نشرت الصحف خبر الاتفاق مع أم كلثوم على خمسين جنيها للاسطوانة الواحدة فى صفحة كاملة ، وأضافت انه قد بيع ١٥ ألف اسطوانة فى ثلاثة أشهر ، أى بواقع ١٧ اسطوانة يوميا ، وهو رقم قياسى فى ذلك الزمن ، وكانت غالبية هذه الاسطوانات التى أحرزت شهرة رائعة من تلحين زكريا أحمد . لقد لحن زكريا أحمد لأم كلثوم فى هذه المرحلة « جمالك ربنا يزيده » و « قالوا لى أمن قلبك » و « الليل يطول ويكيدنى » و « مالك يا قلبى حزين » و « الحزن فايق ورايق » و « اكون سعيد » و « اللى حبك يا هناه » .

وقد روى لى الأستاذ حسن لاشين أقدم أصدقاء زكريا أحمد وأكثرهم صلة به « ان التنافس كان قائما دائما بين أم كلثوم وعبد الوهاب ، وعندما لحن زكريا أحمد أغنية « اللى حبك يا هناه » وشاع فى الوسط الفنى ان هذه الأغنية ستكون قنبلة الموسم وان زكريا أحمد قد بذل المستحيل لتكون هذه الأغنية حدثا فنيا جديدا . حاول محمد عبد الوهاب — والعهدة هنا على حسن لاشين — أن يتعرف على اللحن الجديد قبل أن يظهر فى الجو الفنى ، ودعا عبد الوهاب ثلاثة من أصدقاء الشيخ زكريا الى تناول الشاى فى محل صولت ودفع هو الحساب ، وعندما خرجت الشلة من المحل طالبها عبد الوهاب بأن تغنى اللحن الجديد ، وغنت الشلة اللحن مأخوذة بدعوة الشاى من

عبد الوهاب ، وقال عبد الوهاب بعد أن سمع الجزء الأول من اللحن : « اللحن درويشي خالص » .. وقال حسن لاشين ضاحكا :

« ما احنا كلنا دراويش يا سي محمد » .

ويقول الفنان أمين فهمي عن هذا اللحن ما يلي :

« وفي غناء الطقطوقة بالذات كان الشائع عندنا في مصر ، وفي أنحاء الوطن العربي كلها ، أن يتم تلحينها على نمط بدائي بسيط ، فتبدأ بمذهب من احدى النغمات ، تتلوه أغصان ثلاثة أو أربعة كوبليهات ، من النغمة نفسها . وكل غصن منها صورة طبق الأصل من بقية الأغصان ؛ وبقي الأمر كذلك حتى سنة ١٩٣٠ حينما لحن زكريا لأم كلثوم طقطوقة « اللي حبك يا هناه » فجمع فيها لأول مرة — بين عدة نغمات مختلفة ، تبدأ احداها في المذهب وتنتهي بها الأغنية ، وفيما بين المذهب والختام تتعاقب النغمات متعددة بتعدد الأغصان . وبهذا التجديد قضى زكريا على الروتين الذي استحكمت قيوده في هذا اللون من الغناء العربي الشعبي عشرات السنين . وتخلصت الطقطوقة من الرتابة المملة والسير على وتيرة واحدة في لحنها من أوله الى منتهاه . وارتفعت بذلك مرتبتها بين ألوان الفن الغنائي الى حد كبير ملحوظ » .

ويقول ماهر فرج « من أصدقاء زكريا » — عن قصة مولد لحن الزنجيران ، ومطلعه « هو دا يخلص من الله القوى يذل الضعيف » . قضى زكريا ثلاثة أشهر وهو يعد هذا اللحن ، وكان يجلس فوق السطوح ويقضي ساعات طويلة من الفجر الى مغرب اليوم التالي سارحا في اللحن الجديد . وحدث أن انتابه المرض

أكثر من مرة فى هذه الأشهر الثلاثة . ولكنه كان يتجلد ، ويستمر فى التلحين ، وفى كل ليلة كان يركب هو وزملاؤه عربة حنطور ويأمرون السائق بأن يمشى « زى ما هو عاوز » ، ويمر بهم السائق فى الأماكن التى يريدها حتى صباح اليوم التالى ، وهم يرددون اللحن .. وتعود الشلة الى بيوتها .. وفى أذهانهم وقلوبهم ما تم من اللحن الجديد . وعندما انتهى زكريا منه وأصبح راضيا عنه وأصبحت الشلة أيضا مسحورة به وعاشقة له ، ذهب به الى أم كلثوم ..

وانتقل اللحن من قمة زكريا أحمد فى التلحين الى قمة أم كلثوم فى الغناء : وكان حدثا فنيا رائعا ، ظلت الصحف تتحدث عنه أياما طويلة : اذ كان تطويرا للأغنية العربية » .

وأعود الى رأى زكريا أحمد فى أم كلثوم .. يقول زكريا :

تمتاز أم كلثوم على غيرها من المغنيات بثلاثة أشياء : أولها ان الله وهبها صوتا لا مثيل له من ناحية القوة والجمال ، والثانى انها بحكم حفظها وتجويدها للقرآن الكريم قد اكتسبت خبرة تجعلها قديرة على اعطاء كل كلمة وكل حرف ما ينبغى للنطق الصحيح وبحكم العادة ، وبمضى المدة أصبح ذلك فى طبيعتها وسلمت مخارج الحروف عندها بحيث يتبين سامعها كل كلمة تغنيها بوضوح تام .. والشىء الثالث هو أنها دقيقة الحس عقلية الذكاء ، كثيرة الاطلاع ، فهى تجيد فهم كل أغنية وتحس كل المعانى التى تتضمنها أو تشير اليها كل كلمة من الأغنية ، وكثيرا ما يفتح الله عليها فتتعمق فى فهم الأغنية وفى الاحساس باللحن

الموضوع لها فتضيف الى المعانى التى يريدها المؤلف والملحن ، معانى أخرى متولدة منها شديدة الشبه بها تخلب لباب السامعين دون أن تخرج عن المقصود فى التأليف والتلحين ومن هنا كانت أم كلثوم أحسن المطربات لأن صوتها وأداءها يصدران عن فهم واحساس .. ولا عجب فان التى تجيد تأدية كلام الله ونبرز فيه جديرة بأن تؤدى كلام الناس والحانهم أحسن الأداء .

ان المؤلفين الذين يكتبون لأم كلثوم يرون ان فناتنا العظيمة لا يعجبها العجب ولا الصيام فى رجب ، والملحنون الذين يلحنون للفنانة العبقرية يعترفون بأنها غالبا متعبة ، بضم الميم وكسر العين .. وام كلثوم فى الواقع ينطبق عليها ما وصفها به المؤلفون والملحنون . فأم كلثوم ذواقة للادب ، ذواقة للفن ، متمكنة كل التمكن من نصها ، ومن فنها ، وهى عندما تختار أغانيها ، أو ألحان هذه الأغانى ، تكون كالصائغ الذى يستخدم دواما أصدق المعايير للكشف عن الجواهر الكريمة النادرة . ولهذا فان مئات من القصائد والأزجال ، والطقاطيق ترسل الى أم كلثوم فتقرؤها بأهمية وتختار ما يلائمها ، وما يلائم الجمهور ، وما يلائم الزمن الحالى والأزمان اللاحقة ، وهى عندما تجلس الى ملحن أغانيها أو يجلس اليها ، لا تكتفى بأن يقدم لها لحنا واحدا أو اثنين أو ثلاثة .. وانما هى تريد أكثر من ذلك .. وقد تطلب من الملحن أن يلحن الكوبليه الواحد مرات متعددة ، وتتظاهر بعدم قبول هذه الألحان وتتظاهر بعد أن تختار واحدا من الألحان المقدمة بنسيان ما قدم للاغنية الواحدة من ألحان .. وتجدد فى معظم

الأغاني بألحان جديدة ، تبدو للمستمع الجديد أنها وليدة الساعة ، وان كانت مخزونة فى أعماق ذاكرتها من زمن بعيد .

وذات مرة قدمت لها أغنية بثمانية ألحان مختلفة ، وذلك لأتيح لها فرصة الاختيار فى الوقت المناسب أو فى الأوقات المناسبة ، اننى اعتبر ان أم كلثوم « أسطى » من خيرة « اسطوات » الفن وصائغة من أمهر صائغات الغناء .. انها لا تختار الا الجيد ، ولا تقدم الا الجميل ، وهى أقدر الناس على تذوق الفن الجميل وعلى امتاع الناس بالفن الجميل .

ولهذا فقد اختصصتها بأكثر من ستين لحنا ليس فيها لحن يشبه الآخر فى أسلوب تلحينه » .

ومرة أخرى لنا عودة الى أم كلثوم وزكريا .. الى ذروة المجد فى حياة أم كلثوم وزكريا .. !!

أعماله الفنية المنوعة

ظاهرتان هامتان امتازت بهما المرحلة المتوسطة من حياة زكريا أحمد ، أولاهما وقد كانت أصيلة فيه ، ولاصقة به ، ومعتمدة كل الاعتماد على موهبة خارقة ، لازمته حتى أخريات أيامه . والثانية لم تتكرر الا مرتين أو ثلاث مرات وبعدها انقطعت عنه ، وانقطع عنها ، لأنها كانت عارضة ومؤقتة ، وقد ساقتها اليه وساقه اليها المصادفة البحتة ، والظاهرة الأولى نتيجة من نتائج مدرسة الحياة التى تخرج منها زكريا أحمد ، والتى علمته ان الفنان الأصيل يجب الا يعتمد على موهبته فقط ، بل يجب أن يتسلح بالعلم ، والأدب ، والخلق ، وقد كان زكريا أحمد من هواة القراءة ، بل من مدمنيها لو جاز هذا التعبير . وكان قادرا على أن يتذوق بقدرة وسرعة كل ما يقرؤه . وكان فى الوقت ذاته قادرا على الاستفادة من كل ما يتذوقه ويقرؤه .. ولقد كانت دواوين الشعراء وكتب الأدب ، والنحو والصرف والبلاغة تحتل الجزء الأكبر من مكتبته المتواضعة .. ولما كان زكريا قد رأى بعينى رأسه شعلة ثورة ١٩١٩ وهى تكاد تنطفىء ورأى بعض قادة هذه الثورة وقد تنكروا للمبادىء والقيم التى استمدت الثورة منها وجودها وكيانها .. ورأى الخلافات الشخصية العنيفة وهى تدب فى صفوف القوى

الثائرة المناهضة للاستعمار والاستغلال وتكاد تقضى على مكاسب الشعب وأهدافه ، ورأى المنافع الخاصة ، والاستغلال البشع وقد أعمى الى حد كبير أعين من فى أيديهم الأمور — أو بعضهم على الأقل — فلم يعودوا يفكرون فى تحقيق الأهداف الوطنية الكبرى التى تعود على الوطن وعليهم كأبناء لهذا الوطن ، بالخير والتقدم ، بقدر ما يفكرون فى تحقيق أهدافهم الشخصية الصغرى ، التى تعود عليهم وعليهم وحدهم بالجاه ، والمال ، والشهرة الكاذبة ..

ورأى زكريا أحمد ، البلاد وقد انقسمت شيعا وأحزابا تتقاتل وتتنافر ، وتتبادل التهم والخيانات كما تبادل السعى المتواصل لعرقلة الجهود والكفايات .. ورأى زكريا ذلك كله وقد ألحق بالوطن أضرارا جسيمة كان لها صداها فى دنيا السياسة والصحافة والاقتصاد والأدب والفن ، واذا بأسلحة المعركة التى خاضها الشعب تنقلب الى أسلحة تستخدم ضد هذا الشعب .. فالأغانى — مثلا — التى كانت لهيبا قد أذكى نيران الثورة ، قد فقدت حرارتها ، وأصبحت تأخذ دورها المرسوم لها فى افساد الأطفال والشيوخ والشباب.. حتى لينحرف زكريا نفسه .. صاحب النزعة الدينية .. والذى تربى فى بيت يبعد كثيرا وكثيرا جدا عن مغريات الانحلال .. واذا به وهو « الصييت » الذى ذاع اسمه كمقرىء ، للسيرة النبوية والتواشيح الدينية يلحن بعض الأغانى الخليعة المائعة التى لعبت دورا هاما فى افساد الشعب .. وفكر زكريا فى أن ينقذ نفسه من هذا التيار وينأى بفنه أن يكون أداة طيعة من أدات الفساد والانحلال .. والانحراف . وقرر أن

يؤلف الأغاني بنفسه ، وأن يلحنها بنفسه ، وأن يغنيها أو يوزعها على أصدقائه ومعارفه ممن يرون رأيه الجديد هذا .. ولما كان زكريا أحمد لا يؤمن بالطفرة وان كان يؤمن بالتدرج ، فقد آثر أن يتدرج في أغانيه التي يؤلفها ولم يطرق ميدان الحب وما فيه من دلال ووصال وهجر ولقاه ، ولم يتخلف الا قليلا عن وصف الأفراح والليالي الملاح « ويا ميت ندامة على اللى حب ولا طالنى » .. ولكن وسط ذلك كله قد ألف بعض الأغنيات الوطنية ، والاجتماعية التي تعالج بعض مشاكل الأسرة .

أما الأغاني التي ألفها زكريا أحمد في هذه الفترة : « لو كان عزولى » و « ناحت عيونى » و « ضيعت عمرى » و « ليلتك سعيدة » و « عروستنا بالله » وقد غنتها كلها نعيمة المصرية ، و « لا تقولى كانى ولا مانى » وقد غنتها فاطمة قدرى و « للساعة اتنين مستنية » وغناها زكى مراد « ما يصحش تعاكسنى » و « قد ده وده » وغناها صالح عبد الحى ، « ولو انه مش زى الأول » وغنتها ليلى مراد . كما وضع زكريا أحمد بعض الأغاني التي قام بغنائها بنفسه ، ومنها « بقى بالشرف برضه » و « مايل وخايب » و « حيرتنى وحيرتها » و « كان ليه يا قلبى » و « بدى آجى معاك » التي ننشر كلماتها :

بدى آجى معاك في الفسحة داهيه بالبرنيطة
تتفسح فسحة خفاف ونعمل زيطة
والنبى باللا

بابا كان مرة وانا نونو .. خدنى وياه
ودانى تياترو وكازينو .. ولانيش نسياه
وكمان فوتنا على كوبرى قصر النيل .. والكوبرى اياه
والنبى ياللا تفسح

يا عينى ع البحر وموجه .. ودهياته
وخفافاته ومناظره الحلوة ومنتزهاته
وهواه اللى يشفى المضنى من علاته
والنبى ياللا

ومن أغانيه التى كتبها ، ولحنها أغنية « عروستنا » التى تحرض على الزواج ..

عروستنا ياللا نحنيها .. ياما هى هدية
كل حلاوة الدنيا فيها .. ياما هى لقية
يا بختك ياللى ح تقنيها

تتخطر بقوامها العالى   فرحانة بعريسها الغالى
والتاج الألماظ بيلالى   يسبى الأرواح .. بجمال فضاح

دا عريسها ياما لف ودور   طول عمره عايش متحير
معين فدد لقى بدر منور   بدعها يا سلام حاجة حلوة تمام

ومن أغانى زكريا أحمد التى تدعو الى الحب الهادىء :
ولو ان طبعه غير الأول   وف كل وقت بيتحول

لما غاب عنى وطـــــــــــول
الدمعة فرت من عينى .. وصعب عليه
ميت ندامة ع اللى حب ولا طالشى
ودوخه الحب والمحبوب ولا قال شى
ومن أغانيه التى حفلت بالعظات الاجتماعية :

قـــــدر دا وده   ياما ناس كمانة عدد
وان قلنــا كــده   قالوا اظلموا م البلد

ختك رزقك والناس أجناس   والحب أشــكال والــوان
يدين تنباس وايدين تنداس   والبخت مالوش أمـــان
. كنت صريح . العقــل مليح . والعشق جنــان فى جنــان ..
ايش جاب ده لده

. كان عنــدك ود واخلاص   قلبك ما يــاعش اتنـــين
لكن دلوقت المــوده خلاص   القلب بـــاع اتنـــين
لنــكتة كمان . تحلف ايمــان . والكدب مالوش رجــلين .
تعشق ده والا ده والأشيا ندا

ومنها أيضا :

لا تقولى كانى ولا مانى   ولا تعـــذب أبدانى
ســيك دا آخـــر ده يجيب ده

ومن أغانى زكريا أحمد التى تعالج بصراحة ووضوح مشاكل أسرة وقلق الزوجة لغياب زوجها عن البيت ، وادمانه عــلى سراب :

للساعة اتنين مستنية   وعد عليه   شاهدين عليه ؟
وعملت عليه مبت جسمية   وخصلته هيه   أسكت له ليه ؟
يخرج من البيت الصبحية . ملوى عليه . يرجع سكران الضهرية .
خيبته قوية يشخط فيه . ويشتم فيه . كبدى عليه .
ولا يسألناش اتغديتو ايه ؟

ياخد صيغتى يهلكها . ويفرتكها . ولوازم بيته يتركها . ويلكلكها
ولوازم الحانة يسبكها . ويحبكها . لمه ماشفناش العقل ده ايه ؟

ايش حال او كانش متعلم. ياسلام سلم . راح بره يتنور .ولا يضلم
جانا مبلم وبارية يسمع ويسلم . الا يصمم . ولايعذرناش أبدا بريه

النبى تهديه وتصلح حاله . لجل عياله . دعوة مظلومة ودعيتها له
ومحتاجاله واشوفه عال زى امثاله . واعقبها له . ماتخيبناش
واسترها عليه

• • •

وقد قام زكريا أحمد – كمؤلف – بدور كبير فى محاربة المخدرات ، وخاصة مادة الكوكايين ؛ التى انتشرت انتشارا مخيفا فى أعقاب ثورة ١٩١٩ .

ويكون زعقى لى نبى   لو كنت أطول مازبى
وابطل الشم

الكوكايين يا شرف ما فيهش غير الأرف
لو قام مزاجي انحرف
القى الجنيه انصرف والجسم ينهم
من قبل ما اكون واتعلم الصنف ده
كان صحتى جيدة
وافهم بدون اكدة وبحالى مهتم
دلوقت حالي تلف بعد الغنى باستلف
والحظ واخر حلف
انه ما عاد يأتلف اسكتنى واتلم
الجيب نفد ع الخلا واهى بانت البهدلة
والعقل بقى بالبلا
والجسم داب وانسلا ع الشم يا عم
والله مانى شاربه ولا بقيت متعاطيه
وان كنت واد ذوق نبيه
تبطله وتزدريه ومعايا تنفهم
ومن الأغانى الوطنية التى الفها وغنتها نعيمة المصرية :
ضيعت عمرك هدر وادى انت شفت العبر
يا للعجب
يا مصرى قوم يا جدع واهتم بكفاك دلع
والباب كالونه اتخلع وانا لقيت فى انودع
انك فى غاية الخطر
ايه السبب

العجـــوزة بتعمينك والخمـــرة بتلخفنك
والكوكايين جننـــك والهوراوين كفنـــك

زى اللى حالك آثر

يا ابن العرب

مش عيب عليك والنبى انك تشـــوف أجنبى
ونقول دا خـد مكسبى وانت الســبب يا غبى

الله يسمك ضر

ما تقول وجب

دى مصر دى والدتك وانت ابنهـــا حضرتك
شـــغل لهـــا فكرتك والعب لهـــا لعبتـــك

هو انت قلبك حجر

ولا شك ان هذه الأغانى – رغم ما يتصف به بعضها بالميوعة والسطحية – اذا قيست بغيرها من الأغانى التى امتلأت بها الاسطوانات فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، تعتبر خطوة لا بأس بها فى تطور أغنيتنا العربية .. وقد ظل زكريا يزاول تأليف الأغانى الى آخر أيامه ، وان لم يحاول ان ينشر هذه الأغانى ، أو يلحنها ؛ وقد كان يحدث تغيرات جوهرية فى كثير من الأغانى التى كانت تقدم اليه لتلحينها ؛ وقليلون جدا هم الذين يعرفون ان زكريا أحمد كان زجالا بارعا وكان يراسل أصدقاءه ومعارفه بالزجل ، بل كان يكتب بعض تلغرافات التهنئة بالزجل أيضا .. أبرق ذات مرة الى صديقه حسين عسكر ، فى مصلحة البريد يهنئه بترقيته الى درجة

راقب عام ، وذلك أثناء حركة التطهير التى جرت بين الموظفين فى
وائل أيام الثورة .. قال زكريا يشير الى وزير المواصلات :
رف بختار . رجـل طيب ، ما يتعيب ، ولا يخيب فى فعل الخير
شغله تار ، على زيت حار ، ومع الأبرار ، وم الأشهار بدون تطهير ..
صيل وشريف ، وعرضه نضيف ، كريم وعفيف ، ودمه خفيف ، وعقله كبير
جل أسطى مالوش واسطة ، مدير بوستة ، من الواسطى لأبو كبير
لام ختام ، لأخ همام ، وكلها عام مراقب عام وبعده مدير ..
وكتب الى المهندس صلاح عامر ، يقول بمناسبة ترقيته :

كل الحبايب قلوبهـــا امتلت أفـــراح
لما الاله شـــاء ، وخلى نجم ســـعدك لاح
والله قلوب الأعــــادى المليانين ازاح
لما شـــافوك العـــلالى ، أصبحوا فى نواح
وانت الكريم المســـامح ، والكريم سماح
مسلم وخـــير ومؤمن والايمـــان دا سلاح
يقتل به صنف الحـــــود الغـــادر السفاح
الله يعلى مراتبـــــك من فلاح لنجـــاح ..
وتعيش واشـــوفك ، بعينى تكسب المرماح ..
والله الوزارة ما هى كتير عليـــك يا صلاح ..

رحلاته إلى الخارج

وبعد هذا الاستطراد فى حياة الزجال زكريا أحمد ، نعود الى وصل ما انقطع بنا من حياته ؛ بعد أن انتصر فى معركته الكبرى ضد جريدة المسرح وكوكب الشرق ، ومن لف لفهما من الهجوم على الشيخ .. وسادع للاستاذ بديع خيرى صديق زكريا يروى هذه الفترة من حياته .. وعندما يتحدث بديع عن زكريا يكون كمن يقرأ فى لوح مسطور أمامه .. لقد كانت صداقة الاثنين قوية ومتينة . ودامت أكثر من ٣٥ عاما لم تشبها مرة واحدة شائبة .. قال بديع :

« تعب زكريا من النجاح والدفاع عن نفسه وفكر فى أن يستريح .. قال لى : خلاص انا تعبت ، عاوز أشوف بلد تانية اتمتع فيها .. تصور انا عمرى ما خرجت من الاسكندرية . عمرى ما شفت بلاد بره » .

● ● ●

وصادفت فكرة السفر الى الخارج هوى فى نفسى واخترت تركيا لرحلتنا ... وأعددنا كل شىء للسفر ، كما حددنا يوما له ، وجاءنى زكريا أحمد قبل ساعات من قيام الباخرة يقول لى والأسف يقطع نياط قلبه :

— تصور يا بديع أنا مش ح اقدر اسافر معاك ؟

ووقعت فى « حيص بيص » .. كيف أسافر وحدى .. وقد اعتمدت على رفقة زكريا .. ورحت أتساءل : ما الأسباب التى حملت زكريا أحمد على عدم السفر ، هل هناك حملة جديدة ضده : أم ماذا .. ؟

وكان اعتذار زكريا أحمد عن السفر الى تركيا بسبب وصول للمهندس الألمانى المختص فى تعبئة الاسطوانات .. لأنه لابد من بقاء زكريا أحمد فى القاهرة أياما حيث يجب أن يشرف — كما ينص العقد بينه وبين شركة كالدرون — على تسجيل اسطواناته واتفقا — بديع وزكريا — على ان يسافر الأول ويلحقه الثانى فيما بعد .. وكانت المشكلة الرئيسية فى سفر زكريا أحمد وحده أنه لا يعرف لغات أجنبية ، كما انه يسافر للمرة الأولى خارج البلاد .. وقال بديع خيرى ، لزكريا أحمد :

— علشان انت ما تعرفشى لغات ولا دياولو فعندك توفيق مليكة ، يوصلك لحد ما تركب المركب فى الاسكندرية وأنا أستلك من ميناء تركيا ، زى ما تكون طرد بوستة .

وقال زكريا :

— ياسى بديع حطمك أنا ما اعرفشى لغات ، وما اقدرشى اركب مركب ما اضمنش الاقى فيها واحد يعرف عربى ..

ورد بديع قائلا :

— يا أخى مش ضرورى هو انت حتشتغل ترجمان أدى انت

بتتكلم عربى من هنا لاسكندرية ، وتوفيق حيحطك فى المركب ، واذا صادف فيها واحد ابن عرب يكون من بختك ..

وسأل زكريا :

— وان طلعوا كلهم أجانب اعمل ايه .. ؟

وقال بديع بلهجته الساخرة :

— يا أخى اعمل اخرس يومين تلاتة لحد ما توصل واشوف وشك فى استامبول » .

وسافر بديع الى استامبول وهو يضحك من كل قلبه ، لما سيحدث لزكريا أحمد فى سفره وحده وقال :

— أهو يمكن يحصل بعض مفاجآت تنفعنا فى رواية جديدة ان شاء الله !!

ومرت الباخرة التى تقل بديع خيرى بميناء بيريه ، ونصحه أحد الركاب بالنزول فى ميناء بيريه ، ومشاهدة بعض الآثار اليونانية فقد لا يتمكن من زيارتها مرة أخرى .

ونزل بديع الى الميناء مسلحا بما يعرف جيدا من اللغات : العربية والفرنسية والانجليزية والتركية وطراطيش اللغة اليونانية ، وزار بعض المعارف والأصدقاء ، واشترى بعض الصور والمجلات وتعب من اللف والدوران فآثر أن يعود فى الساعة الرابعة مساء قبل أن تبحر (المركب) بساعتين ليمكنه أن ينام قليلا ..

وفى الميناء تطلع اليه الموظف المختص بحفظ جوازات السفر للركاب « الترانسيت » وقال له بعنف :

— كنت فين ؟

قال بديع :

— كنت باتفسح فى البلد !

وقال الرجل اليونانى :

— تتفسح !! المركب قام من ساعة .. !!

وضرب بديع كفا على كف :

— ازاى .. دا ميعاده الساعة ٦ مساء .

وقال المؤلف :

— لا يا حبيبى ميعاد قيام الوابور الساعة ثلاثة تمام ..

وحتى فى هذا الوقت العصيب بالنسبة لبديع خيرى ، لم يجد من أن يسأل نفسه :

— أمال زكريا أحمد ، حيعمل ايه .. ؟

وقال الموظف اليونانى :

— اذا لم تجد باخرة تنقلك خارج الميناء فى ظرف أربعة ـرين ساعة فسوف تدخل السجن لأنك لا تحمل « فيزا » .. »

وعاد بديع خيرى الى المدينة مرة أخرى ، واشترى بيجامة تنفعه فى سجنه ، وراح يمر على كل شركات النقل البحرية يجد « وابورا » ينقله الى استامبول ، وبذلك لا يدخل جن ..

وبعد جهد وجد الوابور وكان وابور بضاعة ، وكان مكان ، فوق صناديق البضاعة فى الهواء الطلق .. ولم تكن المدة يقطع فيها الوابور المسافة من بيريه الى استامبول ستا وثلاثين ة كالمعتاد ، وانما كانت سبعة أيام بلياليها ..

وقبل بديع خيرى السفر حتى لا يدخل السجن ..

ويقول زكريا فى مذكراته عن هذه الرحلة :

« وصادفت بعض المصريين على ظهر الباخرة ، ولكنهم كانوا بالدرجة الأولى أما نحن من احتوتهم الدرجة الثانية والثالثة ، فكانوا خليطا من الأروام ، والأجانب ، وكنت أتفاهم مع خدم الباخرة بالاشارة لجهلى بلغتهم ، وقد حدث لى من جراء ذلك مضايقات لعدم استطاعتى افهامهم ما أريد بالاشارة .. وظللت طول مدة السفر وحيدا لا أجد من أتحدث اليه حتى استامبول ، وكاد يمسنى جنون الفرح عندما رأيت الميناء التركى لأول وهلة ونزلت من الباخرة ، أبحث عن بديع ولكنى لم أجده « لا فى سلقط ولا فى ملقط » فلم أهتم لذلك اذ كنت أحتفظ بعنوانه فناديت تاكسى ، وامرت السائق بالذهاب بى الى « أوتيل لكسمبرج » وكان الأوتيل كما علمت فيما بعد قريبا جدا من الميناء ، كالمسافة بين المحطة وشارع عماد الدين عندنا ، ولكن السائق التركى « استغلنى » وانتهز فرصة جهلى باللغة التركية وبالبلد فأخذ يطوف بى البلد كلها لا مرة واحدة بل عدة مرات ، ولحظت ذلك حين مررت فى شارع اسمه « بيوغلى » سبع أو ثمانى مرات ، وكتمت الغيظ فى نفسى ، حتى وجدت رجلا من رجال البوليس فناديته « بوليس » فأشار الجندى على السائق بالوقوف ، فقلت له « أوتيل لكسمبرج » وكانت هذه الكلمات هى كل ما أعرفه من اللغة التركية ، وفهم الجندى ما أريد فوثب على سلم السيارة وأمر السائق بالسير فاذا نحن فى طرفة عين أمام الأوتيل المنشود ،

وانصرف الجندى وطلب السائق أجره وكان يعادل ٩١ قرشا فدفعته صاغرا وأنا اشكر الله على سلامة الوصول وسرت الى داخل الفندق وأنا أحمل هم التفاهم مع عماله .

وتوقعت اننى سأقابل بلغة غريبة واشارات مضحكة يقوم بتمثيلها « أنا طرف أول » وعامل الفندق طرف ثان ، ولقد ما دهشت حين كلمنى صاحب الفندق بلغة عربية سليمة ، اذ قال :

— أهلا وسهلا ، حضرتك عاوز الأستاذ بديع خيرى ، لقد سافر منذ ساعتين عائدا الى الاسكندرية .

فقلت للرجل :

— ليه هو الأستاذ بديع ماجالوش تلغراف هنا ؟ ..

تلغرافك وصل بعد أن سافر بساعة ..

وضاقت الدنيا فى وجهى ، ولكن كرم القوم سرى عنى الضيق ، ووقفت أنظر من النافذة لأبصر اعلانا ملصقا فى مواجهة النافذة عن تياترو ، فسارعت الى النزول ، وسألت صاحب الفندق عن هذا التياترو وهل رواياته من نوع الكوميديا ، أو الدراما .. فأفهمنى انهم فى التياترو يمثلون رواية « فاطمة هانم » فذهبت لمشاهدتها وأدهشنى فى التمثيل حسن الصوت وصفاؤه واتقان التمثيل والاخراج ، والموسيقى التى تكاد تنطق ولقد كان الأوركسترا من آنسات فقط ، وكدت أجن من الطرب لدرجة اننى صرخت من الطرب صرخة دوت فى أرجاء الملهى ، فأدار المتفرجون أبصارهم الىّ فخجلت ولزمت الصمت بعدها ، وكان من بين المتفرجين الأستاذ مصطفى بك رضا فعرفته ولكنه لم يعرفنى ، فلما انتهت

الرواية سارعت اليه فدهش لرؤيتى دهشة السرور ، فسألته عن
علة استخدام الآنسات بدلا من الرجال فى الأوركسترا فأفهمنى
ان هذا الملهى بممثليه وفنانيه وموسيقييه انما يقوم على الهواة ،
فقط دون المحترفين ، وان آنسات الأوركسترا هن بنات الوزراء
السابقين وقد ساهمن فى هذه الحفلة الخيرية .. وقضيت مع
الأستاذ رضا بك وقتا طويلا انصرفت شاكرا بعد أن أخذت منه
— بالطبع — عنوانه ، وفى اليوم التالى أردت أن أقوم بجولة فى
نواحى المدينة على أن تكون وسيلتى فى الجولة الترام ،
لا التاكسى ، توخيا للاقتصاد ، فكنت أركب الترام من أول الخط
الى آخره .. وفى آخر جولة من جولاتى وبينما أنا أقف فى
حى كوبرى « غلطة » الموصل بين المدينة وبين الجهة الأخرى
التى بها جامع أيا صوفيا (جامع السلطان أحمد) تقدم منى رجل
طويل القامة عريض الكتفين وقال لى بلهجة الأمر ..

— حسنة ..

فتعمدت عدم سماع كلمته ، فكررها بصوت أجش ، أشد
من المرة الأولى وجمعت أطراف شجاعتى وقلت له :

— الله كريم !!

فما كان منه الا أن تقدم نحوى حتى لامست أنفه أنفى وصرخ
فى وجهى قائلا :

— أين الحسنة .. ؟؟

وكأنى به يريد أن ينقض علىّ بلكمة فلم أر بدا من منحه
شيئا وذلك خوفا منه ، فبحثت فى جيبى عن فكة ، ولكننى لم أجد

لا ريالا مجيديا ، والريال يساوى ثمانية قروش صاغ ، وصلديا واحدا فان أنا أعطيته الصلدى فربما لا يرضيه فتكون النتيجة سوءا يصيبنى منه ، وان أعطيته ريالا كان المبلغ جسيما على شحاذ مثله ..

ونهايته أعطيته الريال وأنا صاغر وكنت أعتقد انه سيشكرنى ويدعو لى بعد أن منحته هذا المبلغ الجسيم . ولكنه خيب ظنى فهو « تش » منى الريال بشدة ، ومضى يسبنى بالتركية .. « خرسيس ادبسيس » الى آخر هذه المعنات والنعوت ، وأنا أتصنع الطرش .. وتابعت سيرى الى كوبرى (غلطة) ونظرت ورائى خلسة فوجدت الشحاذ مكانه لم يزل يسب ويلعن ولم يرد الا أن يشيعنى بنظراته النارية وكلماته البذيئة وأنا أشكر الله الذى خلصنى من يد عزرائيل استامبول وعميد شحاذيها . ووصلت الى الكوبرى ، وما كدت أطأه بقدمى أريد العبور حتى رأيت شخصين يستوقفانى ويمدان الى أيديهما الأربع .. ففهمت أنهما يريدان « فلوس » فضقت ذرعا لكثرة الشحاذين فى استامبول ، وحنقت وصحت فى وجه الرجلين « الله كريم » ، ولم أكد أنطق بجملتى هذه حتى قهقها عاليا وهما يشيران الى فاشتد حنقى على هذين الشحاذين اللذين يضحكان على ردى عليهما بكلمة « الله كريم » وكأنى بهما يضحكان منى لجهلى بتقاليد الشحاذة وهو اذعانى لأمرهما .. ورأيت أحد المارة يغمز شخصا يرتدى مثل زيهما بفلوس فيعطيه تذكرة تبيح له المرور على الكوبرى ، ففهمت انهما يطلبان الفلوس لا الشحاذة وانهما يطلبان

ثمنا لتذكرة المرور ، فدفعت ما أرادا وأخذت تذكرة المرور وعبرت الكوبرى ..

وبعد ان كلت قدماى من السير لجأت الى الترام فركبت أول قطار صادفنى حتى آخر محطة له .. ونزلت منه لأعاود السير على قدمى ثانية ، وظللت أهرول حتى وصلت الى ضاحية جميلة هادئة فسرت فى أرجائها الفسيحة فى عالم المنى والأحلام . واذا بصوت أجش يتردد من خلفى فذعرت واستدرت لأرى مصدره فرأيت رجلين يدل مظهرهما الخشن على الفظاظة وسوء النية .. وقد شهر كل منهما فى يده خنجرا ماضى الحد .. وتلفت حولى لأرى أحدا يغيثنى فظنا انى أبغى الفرار فكشر أحدهما عن أسنان صفراء ، ولكزنى بالخنجر الذى بيده فتراجعت الى الوراء ، وتحسست لأرى موضع الخنجر ورفعت يدى الى وجهى لأرى هل هناك أثر للدم فيه .. وضحك الرجل الثانى وخاطب زميله ثم جذبنى اليه بشدة وطفق ينظر الى من قمة رأسى حتى أخمص قدمى . ثم عمد الى تفتيش جيبى وسلب كل ما فيهما من مال .. وهو كل ما أحضرته معى من مصر ، ثم أشار على بلطف لكى أخلع سترتى فترددت وأنا أرجوه وأتوسل اليه أن يدعنى أحتفظ بهما ولكن زميله الفظ الغليظ القلب أمسك بجاكتتى يريد التأكد من نوعها ، فخلعتها ثم أردت الانصراف الا أنه قبض على معصمى ونظر الى الساعة الذهبية التى بيدى ثم انتزعها وحلى بها معصمه ثم رفعها الى أذنه كمن يتوثق من أنها فى حالة جيدة .

ورجعت الى الفندق بعد أن تورمت قدماى من بعد الشقة

وطول الطريق ، واستقبلني صاحب الفندق ضاحكا معجبا بروحي الأسبور اذ رآني بالقميص والبنطلون فقط وقال لي :

- يا سلام يا أستاذ زكريا تخرج كده ؛ صحيح انت سبور !

وتركته دون أن أرد عليه وذهبت الى غرفتي حيث وضعت رأسي المثقلة بين كفي أفكر في أمري بعد أن فقدت نقودي وساعتي. اذ لو كنت فقدت النقود فحسب لرهنت الساعة أو بعتها ، ولكان الأمر هينا ..

ومضى الوقت دون أن أشعر بمروره وتعبت من الجلسة المملة والتفكير العميق بلا جدوى فقلت في نفسي « وبعدين يا واد ! اينى حايفيدك م التفكير ، قوم اخرج اسعى يمكن ربنا يبعت لك واحد مصري يسلفك قرشين » .

وقمت الى حقيبتي استخرج منها جاكتة أخرى ولبستها وامتدت يدي الى جيوبها كعادتي عندما ألبس ملابسي ، فعثرت على أوراق مهملة أخذت أفتش فيها وأمزق ما ليس منه فائدة ..

ووقفت يدي فجأة عند ورقة من الأوراق وتجمدت مرة واحدة .. فقد عثرت على ورقة من فئة العشر جنيهات كانت من المتروكات المنسيات ..

ونزلت على هذه الورقة ، كما ينزل الغيث من السموات ..

ونزلت فرحا جذلا ، بل كدت أطير من الفرحة والابتهاج وقلت لصاحب الفندق :

— حاج !

قال :

— نعم يا أستاذ زكريا .
قلت :
— أنا مسافر غدا ان شاء الله ..
— ازاى يا مولانا هو احنا لـــه تمتعنا بك .
قلت له :
— لكن يا أخى أنا تمتعت باستامبول تمتعت جدا جدا ..
قال لى :
— على فين ان شاء الله ؟
قلت :
— « والله لا اعرف ، اسكندرية ، بيروت ، اليونان ، اى واحدة من دول » وتركنى الرجل وهو يقول فى صوت خافت لا يكاد يسمع الا بشق النفس .
— أما صحيح فنان ..
وعاد يسأل معاونيه :
— « الجماعة الفنانين دول كلهم يعنى » ، وأشار بيـده ، اشارة لا يفهمها الا أبناء البلد فى مصر ، معناها يعنى «مناخوليا»..
وجمعت ملابسى ووضعت الحقائب وكل حاجياتى .. وخرجت لأودع الأصدقاء الذين عرفتهم فى استامبول ..
وفى مساء اليوم التالى حملت حقائبى على كتفى ، وذهبت الى ميناء استامبول وأخذت أفكر فى الجهة التى أقصـــدها واستبعدت فكرة العودة الى القاهرة لأن الأصدقاء « سيـنـبعرونى تريقة » واستبعدت أيضا أثينا لأننى بطبيعة الحال لا اعرف كلمة

واحدة من اللغة اليونانية ، ولم تعد لى بطبيعة الحال من جهة أقصد اليها ، الا بيروت ، وقررت السفر الى بيروت وودعنى وأنا أغادر استامبول المدينة التى دخلتها ولم أكن أعرف فيها أى مخلوق خلاف صالح مظهر شقيق حسن مظهر — سكرتير سفارتنا بأنقرة ، وابن خاله على بك راضى ، ومحمد بك فؤاد حكمدار الدقهلية وعبد العزيز بك القاضى مأمور مركز منوف . وفى ١٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ وصلنا صباحا رودس وهى جزيرة جميلة فى وسط البحر ، ثم وصلنا بعد يومين الى بلد اضاليا وشكلها كالمعادى ، وان كانت تختلف عنها فى الارتفاع والانخفاض والمناظر الباهرة جدا .. ثم وصلنا الى مرسين .. وفى يوم الثلاثاء ١٣ أغسطس وصلنا الى الاسكندرونة ووجدت شعبها متطلقا تماما بسورية والعروبة وفى اليوم التالى كنا فى طرابلس الشام وبعدها كنا فى بيروت ..

واول ما ذهبت اليه فى بيروت مقهى كوكب الشرق لصاحبه وديع خطاب حيث سهرت ليلة هناك ، ثم اتجهت الى فندق دار السرور خلف الجامع الكبير لساحة البرج .. وقضيت فيه مساء يوم ٢٢ أغسطس ، وفى صباح اليوم التالى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، فوجئنا بوفاة سعد زغلول ، ووجدت الوجوم يخيم على معظم سكان بيروت ، وذهبنا : أمين حسنين وأمين عطا لله ورياض السنباطى ، وأنا الى رأس بيروت ، ومنها الى مقهى كوكب الشرق حيث سمعنا مارى جبران .

وواصلنا السفر الى حيفا وغزة .. والقنطرة .. ووصلت الى أرض الوطن الحبيب فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٧ » .

وبدأ زكريا أحمد — ولما يمض على وصوله الى القاهرة بضعة أشهر — يفكر فى السفر من جديد الى سورية ولبنان وفلسطين ..

وكانت السفرة الجديدة ، تختلف عن سفرته السابقة ، الأولى كانت بقصد الصحة ، والثانية كانت بقصد العمل .. العمل لرفعة شأن الموسيقى العربية .

• • •

قال لى زكريا أحمد ، ذات ليلة وهو يحاول أن يكون جادا . أتعرف ما الفرق بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية ؟؟ .. قلت : لا .. قال : « تماما كالفرق بين السمن البلدى والسمن الصناعى » . وراح يتحدث عن « أصالة موسيقانا التى بدأت فى الجزيرة العربية ، قبل أن تبزغ شمس الاسلام ، وكيف كان الشاعر فى البداية مغنيا وكيف أبقى الاسلام على الموسيقى .. وكيف أصبحت الموسيقى العربية جزءا مكملا للحياة الاجتماعية العربية .. وروى كيف هوى عبد الله بن مروان ٦٧٥ — ٧٠٥ صناعة التلحين وان تظاهر بعكس ذلك عندما آل اليه الحكم . وتحدث عن التطور الذى لازم الغناء والموسيقى ؛ وكيف أصبح المغنون والمغنيات متبحرين فى النحو والشعر والفقه والفلسفة والهندسة والموسيقى حتى قيل ان اسم عالم — وجمعه عوالم — جاء بسبب التبحر فى العلم ، لا بسبب آخر .

وروى زكريا أحمد ما قاله الخليفة المأمون عن اسحاق الموصلى

موسيقى بلاطه الأول : « لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء فما أعرف مثله فقها وصدقا وعفة وثقة » وأفاض الشيخ طويلا فى الكلام عن موسيقانا وكيف اتسعت ميادينها فلبست ثوبا دينيا ناصعا يوم سرت تلاوة القرآن بالصوت الجميل ويوم اهتم المسلمون بالأذان وصلاة العيدين ، ويوم لعبت الموسيقى العربية فى الأندلس دورها الخطير فى جميع الممالك الأوربية ولا سيما جنوب أوربا ، وكيف انتشرت الآلات الموسيقية العربية كالعود والجيتار والنقارة والدف والرباب والنفير والطبل ، وكيف احتفظت هذه الآلات بأسمائها العربية : وكيف ظلت أوربا تحت تأثير الموسيقى الشرقية وآلاتها عدة قرون الى أن قضى عليها فى أوربا ذيوع البيانو » . وسكت زكريا أحمد برهة ثم قال : « هذا ما دفعنى الى أن أقوم برحلات فنية فى البلاد العربية لندعم ما بين شعبها العربى من صلات عن طريق الموسيقى العربية والغناء العربى » ..

وعندما يسافر زكريا أحمد الى بلد عربى للعمل ؛ لا يسافر فقط كزائر ولكنه يحب أن يسافر « كابن بلد » يعرف تمام المعرفة لهجة البلد الذى يسافر اليه ويلتقى فى القاهرة بأصدقائه وأحبابه — وهم كثيرون — من أبناء سوريا ولبنان وفلسطين ويحفظ الكلمات الدارجة عندهم من أول « ايش لونك » الى الاواعى يعنى « الملابس » ومن كلمة « التوقيف » يعنى « الحجز » الى كلمة شحطورة يعنى مركب .. ويضع هذه الكلمات فى قاموس يصنفه بنفسه ويحفظه عن ظهر قلب ، ثم يحاول أن يستخدم

كلماته فى أحاديثه مع أصدقائه ومعارفه من أبناء الوطن العربى .

ونلقى من صديقه امين حسنين وكان قد سبقه الى القيام برحلات فنية الى البلاد العربية رسالة يقول فيها : « ان الجو ممهد لرحلته وان أبناء الشام وفلسطين على أحر من الجمر لاستقباله ، وانهم جميعا ذواقة للموسيقى العربية ، متعصبون لها وان الاستعمار لم ينجح فى محاربته لها » وتكونت الفرقة الفنية — كما تقول الاعلانات التى وزعت بكثرة فى سوريا ولبنان وفلسطين « من المطرب المشهور وصاحب الصوت الملوكى الشجى الأستاذ الشيخ أمين حسنين والموسيقار الفنان الكبير الشيخ زكريا أحمد والملحن القانونجى المبدع أحمد افندى شريف ، والرقاق البارع عبده افندى المصرى والكمنجاتى البارع المشهور ادوارد قدحجى تلميذ سامى شوا وكاميل شامبير » ومما جاء فى هذه الاعلانات : « يشهد العالم العربى لأول مرة فى عالم الغناء مالم تراه عين ولم تسمع له أذن من خيال التلحين الرائع وجمال الصوت الساحر الى عذوبة الموسيقى وجلال الفن » .

واستقبل الشعب العربى فى فلسطين وسوريا ولبنان هذه الفرقة استقبالا رائعا ، ونزلت الفرقة أول ما نزلت فى صباح ١١ يوليو ١٩٢٨ بيافا ، وبعد ثلاثة أيام انتقلت الى القدس .. ومن القدس الى طرابلس .. الى حيفا الى عكا الى صيدا .. الى .. كافة المدن السورية واللبنانية والفلسطينية !

وفى هذه الرحلة لا تفارق زكريا أحمد طبيعته فهو يقيم فى فندق صغير جدا ، فاذا ما أعجبه الفندق أقام به حفلة غنائية

مجانية .. وقد يركب سيارة تاكسى ويجلس الى جوار السائق ، ويتجاذب واياه أطراف الحديث ويعلم ان السائق سوف يتزوج أو يزوج ابنته أو ابنه ، فيصر على أن يغنى فى فرح هذا السائق أو فرح ابنه أو ابنته ، وفى الوقت الذى يرفض طلبا بل ورجاء من أمير من الأمراء أو عينا من الأعيان يرغب فى أن يقيم حفلة غنائية للتسلية أو لشىء آخر غير التسلية .

وهو فى رحلته فنان من صباحه الى مسائه .. يغنى عندما يريد ولا يغنى عندما لا يواتيه مزاجه ولو اجتمع أهل الأرض أمامه .. وهو لا يفكر أبدا فى ربح مادى ، فهو — مثلا — يشترط على المتعهدين أن تكون الأسعار ضئيلة جدا لا تزيد فى سورية عن عشرة قروش سورية يعنى قرش صاغ واحد .

ويأسر زكريا أحمد كل من يقابله ببساطته وحيويته واخلاصه فى عمله .. ظل يغنى فى حفلة افتتاح قهوة منتزه حديقة الشرق عشر ليال متتالية من الساعة السادسة الى الصباح بالرغم من أن تذاكر الحفلة كانت تحدد الوقت من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة مساء .. وفى قهوة « أبو شاكوش » فى يافا ، وقد أعجبه اسم القهوة غنى ليلة مجانا ..

ويروى زكريا أحمد أحرج مواقفه فى هذه الرحلة فيقول :

« كانت ليلتنا الأولى فى هذه الرحلة فى يافا وقد استعد لها المتعهد استعدادا لا مثيل له .. وجاء الناس من كل صوب وحدب لسماعنا .. وكنت متعبا فدخلت سريرى ونمت وحاول المتعهد بشتى الوسائل ايقاظى دون جدوى ، فلقد كنت بحاجة الى النوم ، وكانت

حالتى لا تسمح بالغناء وأنا لا أغنى الا عندما أكون فى حالة نفسية صالحة .. وبينى وبين المتعهد قلت له كم ستكسب من هذه الليلة ، قال عشرة جنيهات ، قلت له تفضل .. واتركنى أنام .. وأخذ المبلغ وتركنى أنام ..

وعندما تلقينا دعوة للاحتفال بتجديد المسجد الأقصى ، طلبوا من واحد منا أن يقرأ القرآن وكان فى حالة غير طبيعية ، وكان غير متوضىء ، وبدأ يقرأ قراءة لم تعجبنى .. ولم تكن الآيات التى قرأها مناسبة للمقام ، فذهبت الى حيث يجلس وهمست فى أذنه طالبا منه أن يترك المكان فورا ، ويذهب الى دورة المياه بحجة أن عنده اسهالا .. وبدأت أقرأ بعض الآيات المناسبة كقوله تعالى : « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » وقرأت سورة الكهف كلها .. وأذنت لصلاة الجمعة ، وكنت فعلا فى حالة تجلى . ولم أكن أحس بأن فى المسجد أناسا .. بل كنت كمن أخاطب الله .. ورسوله .. وكان أعظم وألذ نجاح أحرزته فى حياتى » ..

ومرة أخرى يعود زكريا أحمد الى مصر وكأنما تفتحت أمامه طاقات جديدة للعمل ، فهو يعمل فى وقت واحد مع الريحانى ومع الكسار ، ومع فاطمة رشدى ، وهو يلحن لأم كلثوم ومنيرة المهدية ولصالح عبد الحى .. وهو فى الوقت ذاته يلحن للجامعة الأمريكية ويحيى حفلة مدرسة المهندسخانة .. ويحيى مع رياض السنباطى — مثلا — حفلة ختان ابن الشيخ غانم .. ثم فجأة يصبح المؤلف والملحن والصييت زكريا أحمد .. نجما سينمائيا .. !!

• • •

ولم تخل قصة اشتغال زكريا أحمد بالسينما من طرافة وقد سمعته يرويها عشرات المرات .. وهذه هي القصة نقلا عن رواية من هذه الروايات :

« كانت الاستعدادات قد تمت لاعداد فيلم مصرى رائع يشترك في بطولته جورج أبيض وعبد الرحمن رشدى المحامى الذى خلع روب المحاماة ليشتغل ممثلا .. وكان شاعر القطرين خليل مطران قد وضع للفيلم الحوار ، والقصائد ، وكان كل شيء قد تم لسفر الممثلين والممثلات الى باريس وذلك لتسجيل أغانى الفيلم .. وجاء منتج الفيلم أو أحد أقربائه والعاملين معه يتفاوض معى حول أجر التلحين .. قال المنتج « الموضوع بسيط جدا ثلاث نغمات » .. يعنى ثلاث أغنيات صغيرة ، ورحبت بالعرض ..

وسألنى المنتج : « تحب تاخد كام يا شيخ زكريا ؟ »
قلت : اللى انت تقول عليه ..
قال المنتج : أربعمائة كفاية عليك ؟
قلت : كفاية قوى والحمد لله على كده ..
قال المنتج : أنا قصدى أربعمائة قرش صاغ مش أربعمائة جنيه زى ما فكرت ..

وهجمت على الرجل فقد أحسست أنه يريد الاستهزاء بى .. وكانت معركة شهدها مخرج الفيلم فأعجب جدا بى كممثل وفكر في أن يسند الىّ دور الفتى الشرير في الرواية ؛ خاصة بعد اعتذار استفان روستى ، عن السفر الى باريس لأسباب خاصة ..

واستعددت للسفر الى باريس ليس كملحن فقط وانما كممثل

يقوم بثلاثة أدوار مختلفة فى فيلم واحد .. وكانت مشكلة من أعقد المشاكل بالنسبة لى فأنا لا أعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية ، وذهبت الى مستشارى بديع خيرى ، أشكو اليه قلقى من هذه الناحية ، فقال لى بديع خيرى : يا أخى ولا يهمك أهى فرصة نعمل عبيط .. وأضاف بديع قائلا : « استخدم أيديك فى الأحاديث مش فى الضرب ياسى زكريا » ..

وقامت الباخرة حلوان تحمل أبطال الفيلم وبطلاته والكبمارس أيضا وحملوا معهم الأدوات اللازمة للتصوير وللاخراج وبلغ من حرصهم انهم حملوا معهم بيانو — كأن باريس بجلالة قدرها ليس فيها بيانو — وحملت معى « سبت » به شوية قراقيش وبيض وزيتون ، وأقيمت على ظهر الباخرة فى الليلة الأولى حفلة ساهرة غنيت فيها .. — يا نحيف القوام — التجافى حرام :

واسقنى من ابدك لايدك

سيدى الله يزيدك وتكيد عوازنت

وغنيت أيضا بعض الأغانى التى ستغنيها نادرة وذلك لأتيح لها فرصة المران ومنها :

العزول فايق ورايق	عمره ما ذاق الغرام
قلبه ما يرحمش عاشق	بس شاطر فى الملام
قلبى لو مال يوم لغيرك	يبقى من هجرك غريب
وانت لو تسأل ضميرك	متلاقيش غيرى حبيب
حب مغرم وانت عارف	فيك متيم وانت شايف

بس خايف م الكلام

وفى اليوم التالى هبت عاصفة وأوشك الجميع على الغرق ، وأمر القبطان بتوزيع أحزمة النجاة على الركاب ، وعندما جاء دورى رفضت قائلا : العمر واحد والرب واحد . وجلست على ظهر السفينة فى مكانى المفضل واذا بى أجد السفينة وكأنها قشرة لب فى مهب الريح ، واذا بى أجد نفسى قد انزلقت الى داخل السفينة ولم يبق بينى وبين القاع أكثر من نصف متر وحاولت أن احتفظ بتوازنى فلم أستطع .. ولما أفقت من دوار البحر كانت معدتى قد أصبحت خالية ، وأحسست بجوع شديد ، فطلبت العشاء فى وقت غير وقته ، فلم يسمح لى به ، وكانت زوجتى قد أعطتنى « السبت » اياه به منين وحلاوة وجبنة رومى ، من كل صنف ، واخذت أتسلى بما فى « السبت » حتى الصباح ، حتى قضيت عليه ..

وحاولت فى الصباح أن أرتدى قميصى ، فلم أستطع لأن جسمى قد نما وازداد وتضاعف وزنه وحجمه » .

• • •

وصل زكريا أحمد الى مرسيليا بعد بضعة أيام ، ثم اتجه بالفرقة الى باريس ، وهناك بهرته باريس .. وراح يتسكع فى شوارعها .. وقضى ليلة فى مسرح كازينو دي باري .. حيث رأى ـ كما قال ـ المدهشات من الموسيقى والرقص .. وأخذ بالراقصة المشهورة ميستانجيت ، وتمنى لو أنها زارت مصر ، لتلقى دروسا فى الرقص الذى لا يعتمد على الجلس .. وكان زكريا ينتقل من

مكان الى مكان .. من البيجال — حى المرايا — الى الحى اللاتينى ، حيث تكثر علب الليل ، ومن الشانزليزيه — الى ضواحى باريس : كل ذلك بحثا عن بيرم التونسى .. والتقى ببعض الطلبة المصريين الذين يدرسون الموسيقى هناك . وسألهم عن بيرم .. وقد اعانه هؤلاء على السير فى باريس ، وحلوا له الكثير من مشاكله : كانت كارثته الكبرى عندما لا يكون أحدهم معه فى تجواله . كان يذهب الى المطعم ، ويصف الطعام الذى يريده فان كان سمكا أشار الى الماء والسباحة ، واذا كان بيضا أشار الى الدجاج وأصواته ، واذا لم يفهم الجرسون أخذه من يده الى المطبخ ليشير الى النوع الذى يريده .

وأخطر مشكلة واجهته فى باريس عندما قال له أحد أصدقائه : « عندما تأتى الآنسة فلانة تقدم لك فنجان الشاى : قل لها هذه الكلمة ؛ وسأل زكريا عن معناها فقال له الصديق ان معناها أشكرك كثيرا ، وقدمت الفتاة الشاى . وقال زكريا للفتاة نفس الكلمة وذهلت الفتاة ، فان الشاب الوديع ، الهادىء الذى أعجبت به قد انقلب الى شاب مستهتر : ولم تكن الكلمة أشكرك كثيرا ، وانما كانت أعطنى قبلة .. والطريف ان زكريا أحمد أراد أن يعتذر فى اليوم التالى فتقدم من الفتاة وقال لها « لا . اعطينى قبلة » .. وكان يظن ان وضع كلمة لا فى مقدمة الكلمة ، يعنى تغيير المعنى ، وقد ضحكت الفتاة بعدما عرفت ان زكريا كان ضحية « مقلب » من أحد الأصدقاء .. وغضب زكريا وأصر على ان يحتفظ فى نفس

الليلة أكثر من مائة كلمة فرنسية .. وذهب الى الفندق وحبس نفسه فيه الى أن تمكن من أن يحفظ المائة كلمة ..

والتقى زكريا ببيرم ، وزكريا وبيرم صديقان منذ عام ١٩٢٠ وبالتقائه ببيرم انحلت كل مشاكله ، لقد زار مع بيرم كل متاحفها ، وملاهيها وعلب الليل فيها .. وبدأ زكريا يلحن قطعة الموت وهي من روائعه .. ثم بدأ يعمل في الاستديو ، كممثل ، وهناك رأى مشاهير الممثلين والممثلات الفرنسيين ، والممثلات الفرنسيات وهن يتفرجن على عبد الرحمن رشدى المحامى والممثل الذى كان يرفض أن يضع نقط « القزلين » على وجهه ليمثل الدموع .. لقد كان قادرا على أن يذرف الدموع ، فى أى وقت يريده .. وبسرعة متناهية .. وكانت الدموع تنهمر من عينيه كالمطر ..

وابتدأ الفرنسيون ، والمصريون يهتمون بالممثل الملحن زكريا أحمد ، وكان زكريا أحمد ، عندما يخلو لأصدقائه من أهل الهوى ، يمثل بنجاح دور الريحانى والبحة التى فى صوت الريحانى تشبه « البحة » التى فى صوت زكريا أحمد .. وربما كان هذا الى جانب حب زكريا لنجيب الريحانى فى مقدمة أسباب نجاح زكريا أحمد فى القيام بدور الريحانى .. وزكريا مثل نجيب الريحانى لا يمثل وانما هو أمام الكاميرا وأمام الجمهور ، هو هو لا يتغير ولا يتبدل .. ولذلك فوجىء الكثيرون عندما رأوا زكريا يطرح النص جانبا ، ويرفض القيام ببروفات ثم يقوم بدوره فى « الرواية » وكأنما يقوم بدوره تماما فى الحياة ..

ولابد من الاشارة الى فيلم أنشودة الفؤاد الذى اشترك فيه

زكريا أحمد كنموذج لأسلافنا منذ ثلاثين عاما .. قصة الفيلم تتلخص فى أن أمين باشا سامى أحد أصحاب الأطيان الموسرين فى سوهاج . كان يزور القاهرة فأعجب براقصة أجنبية فأخذها معه الى سوهاج لتعيش معه هناك .. وأمين باشا يملك الى جانب أراضيه الواسعة « محلج قطن » يديره ابراهيم .. وابراهيم هذا له أخت اسمها نادرة وزوج أخت اسمه حسنى .. والتقى حسنى هذا بالراقصة وأعجب بها ، وهجر من أجلها زوجته نادرة.. وذهبت نادرة الى بيت أخيها ابراهيم تشكو زوجها وتعتكف فى بيته لتنشد أنشودة الفؤاد التى كانت تغنى بها فى الأيام الأولى من زواجها بحسنى ، حيث كانا فى قصة حب عنيف ..

وانتهز الفرصة ، أحد أشرار المدينة ، واسمه عمر ، وكان يتحرش دائما بنادرة ، وحدث ذات مرة أن أراد معانقتها بالقوة فلطمته على وجهه .. وأراد عمر الانتقام من نادرة فأطلعها على قصة غرام زوجها بالراقصة الأجنبية .. ولما علم ابراهيم شقيق نادرة بقصة زوج أخته والراقصة ، حاول علاج الموضوع بالحسنى والتقى بالراقصة فى مسكنها راجيا منها الابتعاد عن زوج أخته .. واحتدمت المناقشة بين ابراهيم وزوج أخته حسنى وفى أثناء احتدام المناقشة انطلقت رصاصة أصابت ابراهيم فى عينه ، فارتبك حسنى وانتقل ليعتنى بالجرح فتلوثت يداه بالدم .. وكان الشرير عمر قد وضع بندقية حسنى فى مسكن الراقصة ليثبت عليه محاولة القتل .. وهرب حسنى ، فى اللحظة التى كانت زوجته تضع فيها مولودة اسمها ليلى .. ثم قبض على حسنى بتحريض

من عمر .. وتأثرت نادرة باصابة أخيها واتهام زوجها بالقتل فماتت لساعتها !!!

ومضت ست عشرة سنة ، قضتها الطفلة ليلى في ضيافة أمين باشا .. وكان للباشا ولد يدعى احمد اتم في أوربا دراسة جراحة العين وعند عودته من الخارج كان والده أمين باشا وليلى في انتظاره .. وهام أحمد بليلى من أول نظرة ووافق الباشا على أن يتزوج أحمد ليلى .. وفي ليلة الزفاف وبينما أضواء الفرح تتلألأ والموسيقى تعزف طوحت الأقدار برجل فقير يطلب من أهل العروس صدقة .. ورأته ليلى فأشفقت عليه ، دون أن تدري سببا لهذا الاشفاق .. وأوكلت أمر الشحاذ الى خالها ابراهيم الذي اكتشف أن المتسول ليس الا حسني والد ليلى .. وأصر حسني على ابقاء الأمر سرا حتى لا يعكر صفو عرس ابنته .. واشتد وخز ضمير عمر وباح قبل أن يموت بالسر ، سر اعتدائه على ابراهيم ..

وتمنى لحسني بعد هذا الاعتراف أن يحضر عرس ابنته ليلى وأن يراها في ثياب العرس ، بثياب تماثل ما كانت ترتديه أمها نادرة في ليلة عرسها ، وتغنى أنشودة الفؤاد ، التي غنتها أمها من قبل في الأيام الأولى من زواجها بحسين والد ليلى .

ومثل جورج أبيض دور ابراهيم ، وعبد الرحمن رشدي دور حسني ، ومحمد عبد الله دور أحمد ، وزكريا أحمد مثل دور الشرير عمر ..

وعرض الفيلم في القاهرة ، ونجح نجاحا باهرا .. وتحدثت

الصحف عن زكريا الملحن وزكريا الممثل ، وتوالت العروض على المؤلف الملحن الممثل ..

وفكر زكريا فى احتراف التمثيل .. ولم يطل به التفكير .. لقد رفض العروض المغرية .. !!

وفضل أن يكون موسيقارا .. وموسيقارا فقط ..

مع زكريا في يومياته

عشت مع زكريا أحمد فى يومياته ، فترة غير قصيرة . شعرت فيها بقدر بالغ من السعادة والغبطة اذ شعرت للوهلة الأولى عندما بدأت قراءة هـذه اليوميات انى أكتشف دنيا جديدة ، على قمتها انسـان كبير ، يكتب لنفسـه ولنفسـه فقط ، لا يسجل الا الحق ، والصدق ، لا يتطرق الكذب أو النفـاق أو المجاملة بتاتا الى حرف واحد مما يكتبه ، أو يسجله ، أو يحصيه من تصرفاته وتصرفات غيره من الناس ، دون أن يبدى رأيا معينـا ، فى هذه التصرفات ، أو هذه التسـجيلات .

مرة واحدة رأيت فيها زكريا يشـذ عن الخطة التى اختطها لنفسـه فى يومياته لقد وصف فنانا معروفا يعمل فى جهة حكومية بأشنع الأوصاف ، وانزعجت لذلك الذى قرأته ، وأخذت أبحث عن السر وسرعان ما وجدته .. لقد كان زكريا يرى فى هذا الانسـان العدو الوحيد لرزق عياله .

وبالرغم من أن أصدقاء زكريا رووا لى الكثير عما فعله هذا الفنان بزكريا ، ولقمة العيش التى يحرص زكريا على أن يحصل عليها بكرامته ، الا أنه لم يعاود أبدا — بعد هذه المرة — الكتابة عن هذا الشخص بمثل هذه القسوة .. وهذا العنف !

ويوميات زكريا أحمد بدأ كتابتها عام ١٩١٦ ولم يتخلف عن مواصلة تسجيل الأحداث التى مرت به يوما واحدا ، حتى تلك الأيام التى اشتدت عليه فيها وطأة المرض ، سجلها بعد أن مرت به الأزمة .. وطريقة زكريا فى تسجيل يومياته طريقة عجيبة غريبة ، تكاد تكون الأولى من نوعها فى كتابة اليوميات ، انه يحرص كل الحرص على أن يسجل كل التفاصيل بدقة متناهية ، وتشعر وأنت تقرأ هذه التفاصيل للمرة الأولى ، بتفاهتها .. وفى أحيان كثيرة كان يتملكنى الملل أو الغضب وأنا أقرؤها ولكن بعد فترة قصيرة استطاعت هذه التفاصيل ذاتها أن تلقى أضواء كثيرة على زكريا أحمد كانسان وكفنان ، فهو مثلا يهتم بتبييض شقته الجديدة ومراحل عملية التبييض ، وأجور العمال الذين اشتركوا فى عملية التبييض ، ثم هو يهتم بتسجيل ما اشتراه من مواد غذائية كالكنافة وزيت الزيتون والفلفل والبهارات التى جاء بها من تحت الربع ، وقناطير الزبدة ، وبلاليص العسل الأسود ، وعدد وابور الغاز .. البريموس الأصلى ، التى استطاع بمجهود شاق العثور عليها من شارع الأزهر قرب العتبة الخضراء .

وكما يسجل زكريا المواد الغذائية التى يشتريها يسجل أيضا ما اشتراه من ملابس له ولأولاده ولأصدقائه ، ولمعارفه كالمناديل ، والأقمصة والأحذية والشرابات والملابس الداخلية ، ولا يكتفى زكريا بتقييد أسماء المشتريات ، بل يكتب الى جانب كل صنف ثمنه ، ونوعه ، واسم المحل الذى اشتراه .. ومن كان معه وقت

عملية الشراء .. واذا تصادف ولم تعجب هذه الأصناف أحدا أعادها الى البائع وسجل الواقعة وما دار فيها .

واذا كانت يوميات زكريا قاموسا حيا للأحداث الكبرى في البلاد كذكرى سيد درويش ، وطلعت حرب ، وعبده الحامولي ، فانها في الوقت ذاته قاموس أكثر حياة للأحداث الخاصة بأسرته ، وأسرات أقاربه ، وأصدقائه ، ومعارفه ، تواريخ الميلاد وذكرى الأربعين ، والذكرى السنوية ومواعيد حفلات التأبين ، وحفلات الختان . والزفاف ، وكتب الكتاب تحتل أمكنة هامة من يوميات زكريا أحمد .. يضاف الى ذلك كله أسماء الذين رافقوه الى هذه الحفلات ، وأسماء الذين اعتذروا عن الذهاب معه .. وأسماء الذين وجدهم — من معارفه هناك — ثم أسماء الذين شاركوا صاحب الحفلة — أو صاحبتها — بقراءة آي الذكر الحكيم ، أو السيرة النبوية الشريفة ، أو الذين اشتركوا بالخطب أو الموسيقى ، أو الرقص ، أو الغناء أو الفكاهة .

وزكريا لا يغفل أن يذكر في يومياته لحمة الرأس والفتة بالكوارع التي أكلها عند « فلفل » أمام مسجد سيدنا الحسين ، والبصارة المذيفة التي ملأ بها بطنه في ذهبية زكي عكاشة ، والجبن والخيار والعيش المقرمش الذي تعشى به في محل الخواجه كوستي المرابي في شارع الفجالة !!

ولا ينسى زكريا في يومياته ، أن يسجل سهراته ، وبروفات عمله ، من أول أم كلثوم ، الى الشيخة عزيزة المصرية وفاطمة البسطية وكذلك لا ينسى تسجيل أسماء أولئك الذين سهروا معه ،

والذين اعتذروا عن السهر معه ، والذين طلبوه فى البيت — وهو فى البيت — والذين اتصلوا به تليفونيا وهو خارج البيت ، ثم أسماء الذين أرسل اليهم — وأرسلوا اليه — بطاقات التهنئة أو التعزية وأسماء الأفلام التى رآها وأبطال هذه الأفلام الى جانب أسماء الكتب التى استعارها ، أو التى اشتراها مع ثمن كل كتاب . واسم المؤلف .. وكذلك أسماء الكتب التى أهداها الى أصدقائه ، ومعارفه أو التى أعارها لهم .. مع أسماء المؤلفين أيضا .

ولا يترك زكريا شاردة ولا واردة مما يتعلق به الا سجلها فى مذكراته فمن حلاقة شعر الرأس بالموسى ومن تناوله شربة ملح انجليزى الى علاج السن التى انكسرت وتأخير الأوتوبيس ، وعدم استطاعته الذهاب الى معهد الموسيقى ، لالقاء درسه الأسبوعى .. !!

ونجد فى اليوميات اهتماما لا حد له بالضرائب . كل ما دفعه بالتفصيل وكل ما يجب أن يدفعه بالمليم ، الى جانب تواريخ الخطابات التى أرسلها الى مصلحة الضرائب ، وأرقام المسجل منها . وأسماء الشخصيات الكبيرة التى وسطها لدى المسئولين فى مصلحة الضرائب — التى كان يخشاها كثيرا ، بل التى كان يعتبرها عدوه رقم ١ — لعلها تنجح فى تخفيف جزء من أعباء الضرائب ، التى كانت تثقل كاهله .. والتى دفعته الى أن يضع بندا فى كل عقد من عقود تعامله مع الآخرين ، وينص هذا البند على أن يدفع الطرف الثانى — غير زكريا — الضرائب ، لمصلحة الضرائب .

ومسألة أخرى حرص زكريا كل الحرص على أن يعطيها

الأهمية التى لمصلحة الضرائب ، وأعنى مسألة النقود .. لقد كان زكريا حريصا — وحريصا جدا — على أن يسجل بدقة كل ما يدخل جيبه وكل ما يخرج من جيبه — وجيبه فقط — لا بالجنيهات ولا بالقروش ، وانما اذا اقتضى الأمر ، بالملاليم .. سجل ذات مرة انه تلقى من الاذاعة شيكا بمبلغ ١٦٨ جنيها و ٨٤٥ مليما ، واكتشف ان قيمة الشيك تنقص عشرة قروش ، واتصل بقلم العقود فى الاذاعة ينبهه الى هذا الخطأ .. ثم تكرر الخطأ فى شيك آخر يتعلق بتلحين أغنية أخرى ، فلم يكتف بالشكوى الى قلم العقود ، وانما اشتكى — شفويا وكتابيا — الى وكيل الاذاعة .. وتكون النتيجة كما جاء فى اليوميات . انهم فى الاذاعة لم يخصموا عشرة قروش فقط من الشيك الثالث وانما خصموا خمسة وخمسين قرشا بالتمام .

• • •

وأخيرا — وليس آخرا — أجد ميزة فى يوميات زكريا قل ان توجد فى يوميات أخرى ، بل فى يومياته هو بالذات قبل عام ١٩٦١ .. لقد مات زكريا فى ١٤ فبراير سنة ١٩٦١ ولم تنته يومياته — كالعادة — بوفاته ، وانما استمرت بعد هذه الوفاة بعشرة أشهر ونصف .. لقد تعود زكريا فى بداية عام ١٩٦١ — وفى هذا العام فقط ، دون غيره من الأعوام السابقة أن يملأ الأجندة بالأحداث التى وقعت من قبل ، فمثلا يكتب فى المكان المخصص ليوم ٢٠ مايو من أجندة عام ١٩٦١ :

« فى مثل هذا اليوم قابلت ص . م أ » وقد حرصت الا اذكر

الاسم كما كتبه هو اذ كان رحمة الله عليه ، لا يكتب الا الأسماء كاملة ، ولم يحدث أن أغفل كتابة اسم ما أو أشار الى حروفه الأولى ولو مرة واحدة — وحكيت له موضوع القضية ، وقال سأعمل ، ولم يعمل .. » .

وكتب فى المكان المخصص ليوم ٢ يونيو من أجندة عام ١٩٦١ :

« فى مثل هذا اليوم من عام ١٩٥٩ مات حسين عسكر ، ونادية فهمى » ، وبمثل الطريقة كتب فى مكان أول يوليو : « فى مثل هذا اليوم من عام ١٩٥٩ حضرت أم كلثوم للعزاء فى يعقوب » .

ويكون آخر ما سجله زكريا فى يومياته ، بل فى الأيام التى لم يمهله القدر ليرى مرها وحلوها ، فى المكان المعد ليوم ٢١ ديسمبر من أجندة عام ١٩٦١ :

« مثل هذا اليوم من عام ١٩٦٠ قامت مناقشة بينى وبين عبد الحميد عبد الرحمن فى جريدة المساء .. » .

وبهذه الكلمات القصيرة الصريحة الواضحة أنهى زكريا يومياته . بل أنهى ما كتبه عن أيام لم يقدر له أن يراها .. وأتساءل : أتراها كانت المصادفة البحتة التى جعلته يختار عام ١٩٦١ — آخر أعوامه — ليسجل فيه ما تم من أحداث فى الأعوام السابقة على نحو لم يفعل من قبل خلال ٤٥ عاما ، أم انه كان يشعر بدنو أجله فآثر الا يدع مكانا خاليا من أجندة عام ١٩٦١ دون أن يملاه بالكتابة .. أم أنه القدر أراد بهذه اللفتة الصغيرة أن يضحك منا ، ومن زكريا أحمد فى وقت واحد ..

لست أدرى ؟

ولا أحد — حتى ولا زكريا نفسه — يدرى !!

نرى من الخير تسجيل الأيام الأخيرة لزكريا أحمد كما جاءت فى يومياته .

فقد كتب يقول ...

أول يناير : ذهبت لبروفة يوم القيامة بمسرح الجمهورية ،
سنة ١٩٦١ وكان معى احسان وأعطينا الصورة لنصار ، وكلمت أم كلثوم وقالت لى : بلاش البروفة اليوم نجعلها يوم الأحد القادم ١١ صباحا .. أجلت قضية الأهات الى ١٥ يناير وقضية الاذاعة أجلت الى ١٩ فبراير ١٩٦١ .

٢ يناير : حضرت بروفة يوم القيامة أنا واحسان وروحنا ، ونمنا بدرى وقابلنى جعفر ، الذى رآنى عندما كنت أشرب جزرا أنا واحسان فى أول أرض شريف أمام عمر افندى وروحنا ، وقابلنى محمد على حماد فى تياترو الجمهورية الذى حضر خصيصا لزيارتى وذهبنا للتليفزيون وتكلمنا فى سيدى منجد .

٣ يناير : زرت ناظم صباحا .. حضرت البروفة الجنرال ليوم القيامة ، بمسرح الجمهورية وجميع عائلتى وحضر الوزير والوكيل ولم أرهم لحضورى بعدهم .. وروحت مساء الساعة ١١ .

٤ يناير : افتتاح مسرح الجمهورية برواية يوم القيامة ، قابلت وزير الارشاد والوكيل ، وبديع ، وعلام ،

ومحمد فتحى المستشار ومأمور عابدين وأنور أحمد ، والدكتور على الراعى ، وخورشيد الذى قال سنزورك باكر .. استلمت من جمعية المؤلفين توزيع أكتوبر سنة ١٩٦٠ مبلغ ٢٥٫٦٠٥ جنيها خصموا قرشين دمغة والباقى ٢٥٫٥٨٥ جنيها استلمتهم ولم يخصموا ٥٪ .

٥ يناير : ٨ مساء موعد محمود حسن اسماعيل بمكتبه ، أجلته الى السبت ، كلمنى حماد ووعدته أكلمه يوم الأحد القادم مساء أو الاثنين لنجتمع أنا وهو والقصاص ، لأحدثهم عن عصر المنيلاوى وعبد الحى حلمى .. عبده محمد صالح ، صلح لى القلم .. زارنى خورشيد وعلى الراعى ومحمد عشان وسهرنا نسمع أم كلثوم ونقول الحوار روايات .

٦ يناير : توفى الى رحمة الله الأخ محمود بيرم التونسى . وشيعناه الى ضريح السيدة زينب أنا وبديع وشهاب وكل من يعرفه ، ووصلنى بديع للمنزل ، وجلسنا بمنزلى ساعة نسمع حكايات من شهاب ، ومعنا محمود طاهر العربى ومساء سهرت مع مصطفى محمد .

٧ يناير : قابلت محمود اسماعيل ٨ مساء بمكتبه : كلمنى المسئولون فى التليفزيون لأتكلم عن عظمة محمود بيرم رحمه الله . وخرجت مع الدكنى لنشترى غطاء

راس ، سهرت مع محمود اسماعيل وعبد الفتاح
منسى ، وعبد الله شمس الدين الشاعر ، عند صديق
لهم بمصر الجديدة اسمه حسنى .

٨ يناير : عملنا بروفة أم كلثوم صباحا .. اتفقنا على وجود
عبده صالح ليحفظ .. وقالت أم كلثوم : سأتصل
بعبده صالح ليخبرك بموعد البروفة .

٩ يناير : توفى الى رحمة الله أنور منسى ، وعزينا فيه بعمارة
الأوقاف وقابلت عيسى احمد ، وأنا خارج من المأتم
وأعطانى كارت باسمه ووظيفته مدير العلاقات
العامة .

١١ يناير : كلمنى محمد صادق « البنك » وكماف .. قرأنا
رواية سيدى منجد أنا والأخ بديع للأستاذ محمد
على حماد كطلبه للتليفزيون .. زرت واحسان
خالد ، لأعزمه باكر فى عيد ميلادى .

١٢ يناير : أحيا أولادى عيد ميلادى وحضر الحفلة منصور
وعائلة محمد عثمان الذى أرسل لنا خروفا
وهيصوا ، ورقصوا وغنوا وبعد خروجهم حضر
الفيشاوى وعائلته واتعشوا وروحوا ٢ صباحا
وكنت قد ذهبت فى هذا اليوم للتليفزيون
أنا ورشدى صالح ، وصالح جودت ، لتسجيل
معلوماتنا عن بيرم ولم نعمل شيئا .. لتأجيل الموعد ..

١٣ يناير : ذهبت الى محمد على حماد الساعة ١١ صباحا ،

لم يكن أحد بالمنزل ، زرت ناظم وتكلمنا فى ايجاد تليفون للمحل .

١٤ يناير : عيد ميلاد شمس الدين مأمور باب الشعرية ، سهرت فى عيد الميلاد ، وكان عبده صالح معنا .. أهدانى سعد جليل حلقة مفاتيح ومفكرة كبيرة — كلمنى محمد فوزى لأقابله باكر ، لنتكلم فى تسجيل « هو صحيح الهوى غلاب » لأم كلثوم ..

١٥ يناير : أجلت قضية الأهات ليوم ٥ فبراير .

١٦ يناير : قابلت محمد فوزى وقلت له فيما يتعلق بالمادة أنا اخترتك حكما .. فقال : سأرد عليك .

١٨ يناير : تليفزيون ماسبيرو لتسجيل موضوع بيرم ، صالح جودت وانا انتظرنا ساعتين ونصف ، وقالوا لنا نعتذر لأسباب فنية وعن قريب سندعوكم ..

١٩ يناير : جلست مع يحيى بمنزله .. وقمت روحت بدرى ..

٢٠ يناير : تناولت العشاء كفتة .. روحت ٣ صباحا ، ١٦ قرش ركوب .

٢١ يناير : ماهر فى البوسفور ٨ مساء . حضر ناس كثيرين فى السهرة منهم عائشة حسن وقمنا ٢ صباحا ..

٢٢ يناير : جلست نهارا مع الدكنى .. نمت ١١ مساء .

٢٣ يناير : أنا واحسان ذهبنا لمؤسسة المسرح ، وقرأت عقد يوم القيامة ، لم أرض عن بعض مواده ، أجلنا توقيع العقد الى ما بعد مقابلة الدكتور الراعى ..

سهرت مع ناظم فى المحل واكلت كبده ، وروحت الواحدة صباحا .

٢٤ يناير : محمد سالم المخرج بالتليفزيون كلمنى وقال عاوزين تتفق . قابلت الدكتور على الراعى ، وصححنا العقد الخاص بيوم القيامة على أن تكون مدة العقد خمس سنوات وبعد المدة تكون ملكى .

٢٥ يناير : آخر عقدى مع أم كلثوم بـ ٣ قطع . بدأ العقد فى العام الماضى . ليلة عيد ميلاد «س» أحييتها وتعبت !وصلنى خليل حمدى المحامى ..

٢٦ يناير : سهرت أنا ومحمد فرج عند الحاج مصطفى النظاراتى بمنزله ، وكان الحاج فى ملوى وقالوا لى : هو سيحضر الليلة ولم يحضر !!

٢٧ يناير : رأينا « بين القصرين » ماتينيه والذى أحضر البنوار أنور أحمد .

٢٨ يناير : قابلت الدكنى واتعشيت عند ناظم . تكلم شهاب وقال انه سيحضر ولم يحضر ، وكان عيد ميلاد لحسان .

٢٩ يناير : الساعة ١٢ سجلت أنا وصالح جودت بستوديو رقم ١ بماسبيرو حلقة عن ذكرى بيرم ، حضر محمد سالم مخرج البيانو الأبيض .. قابلنا البحر أمام مطعم صوفر وبعد الغذاء وصلونى للمنزل وشربنا

شـاى وقهوة ، وتكلمنا فى تحضـير « يا حبيبى يا رسول الله » للتليفزيون من أجل رمضان .

٣٠ يناير : جئت « بالكشاكيل » من عنـد عبده صالح ، من مكتبه روصلنى للمنزل وشرب قهوة ومشى وأنا أكلت عند ليلى البقالة وكان لها ٦٢ قرشا أعطيتها لها وروحت مساء وكلمت شهاب بالأهرام واتفقنا على أن نتقابل عند قطة يوم الأحد القادم .

٣١ يناير : لم أخرج من المنزل لكى أكتب جيوكندا ..

أول فبراير : ذهبنا الى منزل الأخ على الصياد لرؤية التليفزيون .. شاهدنا الحلقة التى سجلتها أنا وصالح جودت عن بيرم .

٢ فبراير : استلمت شـيكا رقم ١٨١٥٤٣ بمبلغ ١١٩٢٫٥٩٠ جنيه من بنك الجمهورية من مؤسسة فنون المسرح والموسيقى أجر رواية يوم القيامة ، أحضر الشيك من المؤسسة ولدى احسان ، سمعت أم كلثوم عند ناظم .

٣ فبراير : سهرت عند محمد زايد وسمعت ابنته هدى ، بنت فردوس البسطية ، وكان ماسك لها العود عادل مأمون المطرب .

٤ فبراير : سجلت مناقشة عن الموسيقى فى الاذاعة ، سجل المناقشة صلاح مبروك .

٥ فبراير : قضية الآهات اليوم .. موعد بديع الساعة ٨ مساء ،

لأعطيه رواية سيدى منجد وقابلته وشلنا وحطينا في الرواية .

فبراير : توفى الى رحمة الله عبد العزيز قطة اليوم .. كان موعد تسجيل التليفزيون الساعة ٥مساء مع الفرقة الماسية سجلت الورد جميل ويا صلاة الزين .. كلمنى محمد سالم المخرج لنزور باكر صالح جودت لمرضه ، ولكى تتكلم في برنامج رمضان .

فبراير : أنا ومحمد سالم في الساعة ١١ صباحا بمنزل صالح جودت .. زورناه لمرضه وكان قد وقع من سلم منزله تكلمنا في لحن « يا حبيبى يا رسول الله » ، وامكان تقديمه في رمضان .. كلمت سيد المناوى وعزيته في المرحوم قطة وتواعدنا على الذهاب الى السينما ٨ مساء ، لم أخرج مساء من المنزل لكثرة الزوابع .

فبراير : الآنسة سماء العاصى ، دعتنى أنا وبديع خيرى ورشدي صالح ، وصالح جودت وصلاح جاهين ، وبيرم التونسى لنتحدث عن بيرم .. ووصلنى بديع للمنزل الساعة ٣ صباحا .. اشتريت من مكتبة الخانكى « تبر وتراب » لايليا أبو ماضى بـ ٣٢ قرشا .

فبراير : طلبت من شهاب أن يذهب لحرم المرحوم عبد العزيز قطة .. ذهبت أنا وحرمى للعزاء ..

١٠ فبراير : كلمت بديع خيرى .. كان محمد الصباحى يزور صالح جودت ،وكان عيد ميلاد ابن الصباحى الليلة ، حضرت ولم أغن وقمت مع قدرى ، ورجا ومرسى الشافعى .. سألت عن صالح جودت فقالوا ان صحته تحسنت .

١١ فبراير : ذهبنا الى الروضة وسهرنا هناك للساعة الواحدة والنصف وصلت الموسيقى الهاوى عبد القادر الساكن بمنزل سيد رمضان بشارع فاروق . التاكسى عمل بـ ٤٢ قرشا ، سمعت الفلاحة اللى قال عليها الحاج مصطفى عند محمد نوح .. تركت كلام رواية سيدى منجد لبديع خيرى فى شباك التذاكر بالمسرح ..

١٢ فبراير : استلمت من الاذاعة مبلغ ٧١٣ قرشا بعد خصم ٣٧ قرشا للضرائب ، وذلك قيمة اشتراكى فى ندوة الفكر ، استلم المبلغ احسان ولدى بتوكيل منى .. موجود عندهم ..

١٣ فبراير : ذهبت الى ملجأ العميان فى الزيتون لأسمع صوتا جديدا قيل انه معجزة !! كانت الليلة ، ليلة الأربعين للمرحوم بيرم التونسى رحمه الله وغفر له ولنا جميعا ؟؟

وهكذا تنتهى يوميات زكريا أحمد .

صانع الروائع

من صاحب الفضل الأول فى نجاح الأغنية : أهو المؤلف الذى صاغ كلماتها ؟ أم هو الملحن الذى وضع موسيقاها ؟ أم هو المطرب الذى غناها بصوته ؟ أسئلة دارت فى ذهنى وأنا أتأهب لكتابة هذا الفصل ، وآثرت ان أشرك فى الرد عليها بعض من أعرف من النقاد ، والمؤلفين ، والملحنين ، والمطربين . ولم أجد الا ردودا مختلفة جدا ، بعضهم يقول ان الفضل الأول فى نجاح الأغنية يعود الى المؤلف خالق البناء الفنى ، الذى زينه ، وزخرفه ، الملحن والمطرب ، وبعضهم أكد بأن الفضل انما يعود الى الملحن خالق الحياة فى الأغنية التى لم تتكون الا من كلمات ميتة ، وآخرون أعطوا الفضل الأول للمطرب الذى أخرج العمل الفنى ، فى صورته الأخيرة التى أثارت اعجاب الجماهير .. والى جانب هذه الآراء المتضاربة وجد رأى آخر ساوى فى الفضل وفى الأهمية بين المؤلف والملحن والمطرب وقال ان العمل الفنى الناجح يمثل مثلثا متساوى الأضلاع لا قيمة لضلع واحد بدون الضلعين الآخرين . وأكد أصحاب هذا الرأى وهم الغالبية بأن مؤلف الأغنية — بدون جهد الملحن والمطرب — لا يستطيع الا أن يخلق قصيدة جميلة ، كتلك التى يمتلىء بها دواوين الشعر والتى

لا يهتم بها الا خاصة الخاصة ، وكذلك للملحن — بدون جهد المؤلف والمطرب — لا يستطيع الا أن يخلق قطعة موسيقية مجردة لا يتغنى بها الناس ومكانها فى المكتبات الموسيقية — وكذلك المطرب — دون جهد الملحن والمؤلف — لا يستطيع الا أن يخلق نبرات جميلة ، لا تستطيع أن ترتقى الى أكثر من شفتى المطرب .. وقد سئل ذات مرة زكريا أحمد ، مثل هذا السؤال فقال : « ان الفضل يرجع الى الثلاثة معا — المؤلف ، الملحن ، المطرب — وان كانت مهمة الملحن أشق وأعنف وأكثر جهدا وعرقا .. » .

وبالرغم من أننى كما قلت أكثر من مرة فى هذا الكتاب أعتبر نفسى متطفلا على الفن وأهله فانتى أرى — لو جاز لمثلى أن يكون له رأى — مثل ما ارتآه زكريا أحمد ، اذ أن رابطة العمل الفنى ، ووحدته ، وتكامله — تقتضى أن يبذل كل طرف من الأطراف الثلاثة جهده وعبقريته فى انجاح العمل الفنى .. واذا لم يقم أى طرف من الأطراف الثلاثة ، بواجبه تجاه هذا العمل الفنى ، كتب السقوط لهذا العمل مهما بذل الطرفان الآخران ؟!

وأعود بعد اثارة هذه المشكلة التى أرجو — مخلصا — أن تنال المزيد من عناية الكتاب والنقاد الى الحديث عن زكريا أحمد الموسيقار ، مؤكدا اننى لن أتدخل فى التفاصيل فى أعماله الفنية . ولن أحاول تقييمها من وجهة نظرى ، انما أحاول جاهدا أن أعطى صورة — ولو فى اطار ضيق — للأجواء وللظروف والامكانيات

التى ساعدت على خلق هذه الروائع الفنية ، والتى جعلتها تنال التقدير والاعجاب .. !!

وفى بداية هذا الفصل احب أن أشير الى مناقشة جرت بينى وبين زكريا أحمد ذات ليلة ، كنا قد خصصناها للكلام عن التلحين والملحنين . بدأ زكريا المناقشة بقوله : أنت ملحن ، قلت له : أرجوك لا تتكت .. قال بل ومطرب أيضا .. وراح زكريا يذكرنى بأيام الطفولة ، عندما كنا نحاول أن نحفظ جدول الضرب بطريقة النغمات الموسيقية ، فنقول ٩ × ٩ = ٨١ . نقولها فى نغمات موسيقية أو شبه موسيقية ، وكذلك ذكرنى بما كنا نفعله ونحن صغار عندما نحفظ دروس الجغرافيا أو التاريخ مثلا ، نقسم الدرس الى جمل صغيرة ؛ نرددها بصوت عال فى نغمات موسيقية .. ثم راح يشرح لماذا يعمد الانسان فى لحظات سروره أو انفراده بنفسه الى الغناء بالرغم من أن صوته قد يكون قبيحا جدا .. ولماذا يعمد الانسان عندما يدخل الحمام ، الى الغناء بصوت مرتفع .

وكان مما قاله زكريا أحمد : ان كل فرد فى هذا العالم ، يجمع بين صفتين أصليتين فى نفسه ، أولاهما : التلحين ، وثانيهما : الغناء . وهاتان الصفتان ، يسهل تنميتهما منذ الصغر ؛ والاستفادة منهما عند الكبر . وقص على كيف استطاع الاستفادة من هاتين الصفتين خاصة وانه نشأ فى أسرة فنية ، فالأب ، يعشق الفن ويهوى مجالسه ويحرص على أن يغنى بصوته ما يسمعه من أغان حديثة ، وما اختزنه فى ذهنه من أغانى القبيلة .. والأم تحرص

— فى غياب زوجها — على أن تغنى بعض الأغانى التركية الحزينة التى كانت تتسلل الى قلبه ، وتتركز فيه ولا تحاول أن تخرج منه .

ويكمل زكريا القصة ، فيقول : لقد ولدت بأذنين موسيقتين قادرتين — حتى فى فترة الطفولة — على التميز بين الأصوات والألحان المختلفة ، كما انهما قادرتان على التقاط الأصوات والألحان بمجرد سماعها للمرة الأولى . ولقد كنت أهوى الموسيقى منذ الصغر . وكان الأطفال الصغار يهفون لمرأى الشيكولاتة والحلوى ، أما أنا فكنت أهش لسماع الموسيقى فى أى مكان ومن أى انسان !! وتطور هذا الحب والاعجاب الى أن أصبحت أحلامى الأولى ، أن أكون صيتا يقرأ القرآن والسيرة النبوية وبعض التواشيح فى الأفراح والمآتم .. ثم تطورت هذه الأحلام وتغيرت ، وأصبح كل مناى أن أغنى للناس وأن يكون لى تخت خاص . وأن أدعى لاحياء الحفلات الخاصة والعامة ، فلما تحقق لى هذا الحلم ، وكثر اقبال الناس على الحفلات التى أحييها ، فكرت فى أن أعمل الى جانب الغناء بالتلحين ، ولم تكن صناعة التلحين وقتئذ بحاجة الى جهد ، ففى استطاعة أى فرد من الناس أن « يلطش » ألحان أية أغنية قديمة ويضعها لأغنية جديدة ، ويقدمها لا لمطرب واحد بل لثلاثة أو أربعة يرددونها فى وقت واحد ، فلم تكن هناك قوانين تعترف بالملكية الأدبية أو الفنية !!

وطرق زكريا أحمد كل ميادين التلحين ، ففى بداية حياته الفنية نراه يكثر من تلحين التواشيح والاستغاثات الدينية وبعدها يبرع فى تلحين الطقاطيق الخفيفة ، ثم نراه فيما بعد يتخصص

أكثر من ثمانى سنوات فى تلحين الروايات المسرحية التى كانت تقدمها فرق على الكسار والريحانى وفاطمة رشدى وعزيز عيد ومنيرة المهدية ، فاذا ما ارتقت صناعة السينما فى مصر وأصبح للأفلام العربية مكانتها ، هرع المخرجون والمنتجون الى زكريا أحمد يطالبونه بتلحين معظم أفلامهم ، ويصل زكريا فى هذا الميدان الى القمة حتى ليضع بعض المخرجين والمنتجين اسم زكريا أحمد فى اعلانات أفلامهم على أنه ملحن الأغانى — وهو ليس كذلك — لكى يجذبوا الجمهور الى أفلامهم ، ثم يتخصص فى تلحين الأغانى العاطفية ويقدم بالاشتراك مع بيرم التونسى أجمل الألحان لفنانة الشرق الأولى أم كلثوم ، وهنا يجلس زكريا على قمة المجد الفنى ولا تستطيع أية قوة أن تزحزحه عن مكانه حتى الموت نفسه لا يستطيع فستظل هذه الروائع باقية ما بقيت الموسيقى العربية .

وفى السطور التالية أحاول أن أعطى صورة مجملة لمعظم الأعمال الفنية التى لحنها زكريا أحمد والتى لا تزال كلها — أو غالبيتها — تنطق الى اليوم بموهبته الموسيقية التى قل أن يجود بمثلها الزمان !!

لقد لحن زكريا أكثر من ثلاثين توشيحا ألقاها كبار المقرئين ، والمطربين على رأسهم الشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت ومن هذه التواشيح : « يا جريح الغرام » ، « يا هلال السماء » ، « يا رشيق القوام » ، « يا من يرجى » ، « ومولاى كتبت رحمة الناس عليك » ، « يا وردة وسط الرياض » ، « يا أيها الحادى

اسقنى » ، « زارلى والليل حالك » ، « خليانى ولوعتى » ، « يا نسيم الصبا » ، « يا بعيد الدار » ، « قد حركت أيدى النسيم » ، « وعد الحبيب » ، « وحياة أشواقى اليك » ، « أخا الحب لب » ، « سلوا الندمان عن حبى » ، « يا نديمى فه بآه .. » ، « حبى أرض الحجاز » .. وغير ذلك من التواشيح التى لا تزال حتى اليوم — وبعد أكثر من أربعين عاما — محتفظة بسحرها وجمالها .. وروعتها !!

ومن الروايات والأوبرات التى لحنها « دولة الحظ » (١٩٢٤) ، « الغول » ، « ناظر الزراعة » ، « وعثمان حيخش دنيا » ، « والطنبورة » ، « والخالة الأمريكانية » . « وابن الراجا » (١٩٢٥) ، « ٢٨ يوم » ، « وأنوار » ، « وآخر مودة » ، « نادى السمر » ، « والكرنفال » ، « وابو زعيزع » ، « والوارث » ، « وحكيم الزمان » ، وكلها لفرقة على الكسار ، « وعلى بابا » ، « والأستاذ » لفرقة زكى عكاشة (١٩٢٦) ، « والسفور » ، « والبرنس الصغير » ، « ملكة الجمال » ، « وقمشتك » ، « وابن فرعون » ، « زهرة » لعلى الكسار ، « وابو النوم » ، « والأميرة الهندية » لفرقة منيرة المهدية ، « والحساب » لفرقة زكى عكاشة ثم « سالامبو » ، « وبدر البدور » لفرقة عزيز عيد وفاطمة رشدى وكلها تمت فى سنة ١٩٢٧ ..

وفى عام ١٩٢٨ لحن زكريا « حلم ولا علم » ، « الساحر أبو فصادة » ، « السكرتير » ، « غاية المنا » ، « خمسة مليون »

لفرقة عزيز عيد وفاطمة رشدى ، « وياسمينة » لفرقة الريحانى ، « والبلابل » ، « والكنوز » لفرقة على الكسار ، وفى عام ١٩٢٩ لحن للكسار أيضا « العروسة » ، « والعيلة » ، « ومين فيهم » « ومافيش منها » ، « وابن الأومباشى » ، « وطاحونة الهوا » ، « وملكة الغابة » ، بالاضافة الى رواياته قاضى الغرام التى لحنها لفرقة صالح عبد الحى .

وفى بداية عام ١٩٣٠ لحن لفرقة صالح عبد الحى أيضا رواية « عيد البشاير » كما لحن « الهاوى » لفرقة يوسف وهبى ، وفى عام ١٩٣٨ لحن « جيوكندا » ، « والأميرة روشنارا » لفرقة منيرة المهدية ، ولحن فى نفس العام « أنا وانت » لفرقة الريحانى كما لحن لهذه الفرقة أيضا « الدنيا جرى فيها ايه » عام ١٩٣٩ .. وفى عام ١٩٤٠ لحن للفرقة القومية « يوم القيامة » ولحن فى العام التالى « سيدى منجد » للمعهد العالى للموسيقى . وكان آخر ما لحن من روايات : «عزيزة ويونس» الفرقة القومية سنة ١٩٤٥، وهذه الروايات كلها من تأليف بديع خيرى ، فيما عدا روايتى « دولة الحظ » ، « وناظر الزراعة » ، فهما من تأليف أمين صدقى ، «والطنبورة» ، « والخالة الأمريكانية » ، « و٢٨يوم » ، « ونادى السمر » ، « والكرنفال » ، « والسفور » ، « والبرنس الصغير » ، « وأبو النوم » ، « والأميرة الهندية » ، « وملكة الجمال » ، « وتقشتك » ، « وزهرة الربيع » ، « والساحر أبو فصادة » ، والسكرتير والبلابل والعروسة والعيلة ومين فيهم وابن الأومباشى ، وطاحونة الهوا ، وكلها لحامد السيد ، ورواية

حكيم الزمـان تأليف جبرائيل آجفا ، وأحمد زكى ، ورواية ابن فرعون لأحمد زكى ، وسالامبو لحبيب جاماتى ، وخمسة مليون لتوفيق عبد الله ، والهاوى للشيخ عبد الله عفيفى ، وعزيزة ويونس لبيرم التونسى .

وعدد ألحان هذه الروايات والأوبرات ٥٨٠ لحنا ، وتتراوح ألحان الرواية بين ثمانية ألحان ، واثنى عشر لحنا ما عدا دولة الحظ ففيها سبعة ألحان وكلها تصور بنجاح قطاعا هاما من قطاعات حياتنا فى الفترة ما بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٤٥ ، وهى الفترة التى أخرجت فيها هذه الروايات .

وقد بلغ زكريا القمة فى تلحين الطقاطيق والأدوار التى بلغ عدد ما سجل منها على اسطوانات وأشرطة ٢٢٥ قطعة ، منها ٣٨ قطعة لحنت فى عـام ١٩٢٣ ، ٤٠ قطعة فى عـام ١٩٢٥ ، و ٢٣ قطعة سنة ١٩٢٧ ، ١٨ قطعة عام ١٩٢٨ ، الخ .. الخ .. وأول هـذه الأدوار — بل وأشهرها — « ماتخافش على » ، « ارخى الستارة » — وهى التى فرضت بسببها الرقابة على الأغانى ، « وحرز فزر » ، « وكده برضه يخلص » ، « وبلاش مناهدة وطاوعينى » ، « ومنين زعلانة وتحاميله » ، وكلها من كلمات يونس القاضى وغنـاء عبد اللطيف البنـا الذى غنى فى عام ١٩٢٣ ليحيى محمد : مافيش أول ولا تانى ، أمان أمان ليه كده ، يا ألف ماشافه علينا ، كما غنى زكى مراد — فى نفس العام أيضا لنفس المؤلف : « شفاعة لله » ، « نار الوطنية فى القلب » ، « الأيضانى والأسرانى » كما غنى لحسن صبحى أيضا « يا بت

يا بتاعة الياسمين » وفى عام ١٩٢٤ تفرغ زكريا للعمل فى الفرق المسرحية ثم أخذته نوبة من النشاط فى تلحين الأدوار والطقاطيق فى عام ١٩٢٥ ، فلحن أغنيات عديدة أحرزت شهرة كبيرة منها « أبوها راضى » وقد غناها صالح عبد الحى ، وهى من كلمات يحيى محمد : « واوعى تكلمنى بابا جاى ورايا » ، لعبد الحميد كامل ، وغناه أمين حسنين ، وعزيزة المصرية ومنها أيضا « تعالى يا شاطر نروح القناطر » لبديع خيرى وغناه نعيمة المصرية .

ولحن زكريا عام ١٩٢٦ لحامد مرسى ، كثيرا من الأغنيات منها « من حقه يشفع » ، « وتسرح وتروح » ، « وظالمنى والله » ، وكل هذه الأغانى وغيرها كثير وكثير من تأليف بديع خيرى ..

أما فى عام ١٩٢٧ فقد لحن زكريا كثيرا من الأغانى ، بالاضافة الى الروايات المديدة التى لحنها ، ومن هذه الأغانى ما غناه صالح عبد الحى ، ونعيمة المصرية ، ونرجس شوقى وزكى مراد ، وعديلة المنصورية وسامحة بغدادى ومنها ما غناه هو بنفسه مثل أغنية « أدى وقت البرنيطة » وقد أضاف زكريا الى هذه الأسماء منيرة المهدية حيث لحن لها عام ١٩٢٨ . « الحلوة شافت صورتها » ، « أربع خطاب واقفين ع الباب » ، وغنت رتيبة أحمد « يانا يانت » ، « والله عليك » ، وكل هذه الأغانى من كلمات بديع خيرى ..

ومع مطلع عام ١٩٣١ ازداد عدد الأغانى التى لحنها لأم كلثوم، فقد غنت له فى هذا العام — « جمالك ربنا يزيده » ، « وليه عزة دمعى تذله » ، لحسين صبحى ، وقالوا لى « آمن قلبك »

لأحمد رامى ، « والليل يطول ويكيدنى » لحسين المناسترلى ، وفى عام ١٩٣٢ لحن زكريا لأم كلثوم من كلمات أحمد رامى « اللى حبك يا هناه » ، « ومالك يا قلبى حزين » ، كما لحن لها أيضا من كلمات حسن صبحى : « العزول فايق ورايق » ، « أكون سعيد » أما فى عام ١٩٣٦ فقد لحن لأم كلثوم من كلمات بديع خيرى « هو ده يخلص من الله » ، ومن كلمات يحيى محمد : « يا قلبى كان مالك » ، « وماكانش ظنى » ، « امتى الهوى يجى سوا » ، وغنت أم كلثوم من كلمات أحمد رامى « ياللى تشكى من الهوى » ، « وابتسام الزهر » لعمر عارف القاضى ، « ومين اللى قال » لعبد الرحمن فياض ..

وقد غنت أم كلثوم من تلحين زكريا أحمد : آه يا سلام لحسن صبحى (١٩٣٣) و « عادت ليالى الهنا » (١٩٣٨) ، و « ياما أمر الفراق » (١٩٤٣) لأحمد رامى ..

وغنت أيضا أم كلثوم لبيرم ، وزكريا « كل الأحبة اتنين اتنين » (١٩٤٢) ، « وآه من لقاك فى أول يوم » ، « وحبيبى يسعد أوقاته » ، و « اكتب لى من غير تأخير » ، و « ايه اسمى الحب ما اعرفش » ، « والبدر أهو نور » (١٩٤٣) ، « وانا ليه اتجاسر واعاتبك » ، « وانا فى انتظارك » ، « والأوله فى الغرام » (١٩٤٤) ، « وفى أوان الورد ابتدأ حبى » (١٩٤٥) واهل الهوى « ويا قلبى ياما تميل بنظرة » ، « والأمل » ، « وحبيب القلب واقانى » (١٩٤٧) ، « والقلب يعشق كل جميل » (١٩٥٠) .

ونستطيع أن نقول دون مبالغة ان زكريا أحمد قد لحن

لأكثر من ٩٠٪ من المطربين والمطربات عـلى اختـلاف درجات نجاحهم وشهرتهم فهو يلحن نـادرة — مثلا — « اللى انت لا جمال » من كلمات بديع خيرى و « من كتر نسيانك » لحسين المناسترلى (١٩٣٢) « والحبيب بعد الرضا » من كلمات أحمد رامى (١٩٣٨) وهو يلحن لأسمهان « عاهدنى يا قلبى » كلمات محمود اسماعيل (١٩٣١) « وعذابى فى هواك » لأحمد المرشدى (١٩٣٨) ، وهو يلحن لفتحية أحمد « بعد ما فرحت عداى » « بشراك » لأحمد الألفى عطية (١٩٣٢) « وكل انسان » لأحمد المرشدى (١٩٣٦) ، ويلحن أيضا لبديعة مصابنى من كلمات بديع خيرى « البدر طلع غنوا له » (١٩٣٥) ، كما يلحن لمحمود شكوكو « بفلوسى آه » ، كلمات بيرم (١٩٤٨) « وصيد العصارى » لمحمود ابراهيم ، و « بنت البلد » ، لبيرم التونسى (١٩٤٩) وهو يلحن لعزيز عثمان : « الفؤاد ليله نهاره » (١٩٣٧) « واحنا مش كنا اتفقنا » (١٩٣٨) « وصفالك زمانك » (١٩٤٣) وكلها من كلمات أحمد عطية و . و. و .

فاذا انتقلنا بعد ذلك العرض السريع ، للأدوار والطقاطيق التى لحنها زكريا والتى اعتمدنا فى تواريخها وأسماء مؤلفيها وأسماء الذين قاموا بأدائها ، على مذكرة كتبها زكريا بخطه ، الى أغانى الأفلام التى قام زكريا بتلحينها ، تمرونا الدهشة اذ نجد أن عدد هذه الأفلام قد بلغ سبعة وثلاثين فيلما كان أولها : أنشودة الفؤاد (١٩٣٢) الناثبان (١٩٣٤) وبسلامته عاوز يتجوز (١٩٣٥) ، ومبروك (١٩٣٧) وليلى بنت الريف ، وعاصفة على

الريف (١٩٤٠) والعريس الخامس والشريد (١٩٤١) ونداء القلب (١٩٤٢) و « البؤساء » و « أرض النيل » و « القلب له واحد » ، ليلة الحظ (١٩٤٤) و « الآنسة بوسة » و « أميرة الأحلام » و « ليلى بنت الفقراء » و « كازينو اللطافة » و « نور من السماء » (١٩٤٥) وانا ستوتة (١٩٤٧) ونرجس (١٩٤٨) وحبيتي سوسو (١٩٥٠) والبنات شربات ، وآدم وحواء (١٩٥١) ومسمار جحا ، وانا وحدى ، وحكم قراقوش (١٩٥٢) .

هذا بالاضافة الى أفلام أم كلثوم ومنها : وداد (١٩٣٦) ، ودنانير (١٩٤٠) وعايدة (١٩٤٢) وسلامة (١٩٤٤) وفاطمة (١٩٤٧) .

وقد بلغ مجموع أغانى هذه الأفلام ٩١ أغنية أحرزت غالبيتها — ان لم تكن كلها — نجاحا باهرا .

فاذا أضفنا الى ذلك كله ٤٣ أغنية تم تلحينها للاذاعة ، آمنا بأن الثروة الموسيقية الوفيرة التى خلفها زكريا أحمد ، تعتبر من أثمن ، وأغزر ما خلف الموسيقيون فى العالم كله .. ومن أغانى الاذاعة : « أنا كل ما اشوف الورد » تأليف بيرم وغناء شافية أحمد ، « ويا حلاوة الدنيا » ، كلمات بيرم وغناء فتحية أحمد . ثم « مرحبا بالعيد » لمحمد الأسمر ، غناء فايدة كامل و « يا عبد الكل » غناء نادية فهمى وكلمات بيرم .. ونشيد « عرب الشرق سلاما » لصالح جودت ، وقد أدته المجموعة ، وكذلك نشيد « أنا العربى » ونشيد « الوحدة » لمحمد سعيد العريان .. و « يا رب يا رحمن » كلمات بيرم وغناء حورية حسن « وأنا كل

ما أتوب » لبيرم « وناداني الليل » ، لمحمـــد أحمد ، وقد غنتها نجاة الصغيرة وكذلك « في أوان الورد » غناه أم كلثوم وكلمات بيرم .. ثم مسك الختام — ختام حياة زكريا أحمد ، وبيرم « هو صحيح الهوى غلاب !! » .

واستأذن القارىء في أن انقل بعض نصوص الأعمال الفنية التي أخرجها زكريا أحمد ، لأنها في رأيي — وقد اكون مخطئا في الرأي — تمثل جــزءا هاما من تاريخنا الاجتماعي ، وتعطي صورة واضحة لأغانينا طوال الأربعين عاما الماضية ، فمن التواشيح التي لحنها زكريا أحمد :

قد حركت ايدي النسيم   تلك الغصـــول الميس
فانهض وبادر يا نديم   الى رياض الـــسندس

ومن المونولوجات والتريالوجات التي لحنها زكريا أحمد ، وكتب كلماتها بديع خيري :

اوكســـو كيرياجورجي يوس   مجنوناكس يا ليكيريـــــا
اخنـــا للمتو الطلـــوس   من زتونا من بـــــاريا
واللاتينا بلاد جمـــــوس   مخه عيـــان بالملاريــــا
بغـــروا العيش والغموس   في الشـانه بتاع ســـقاريا

رومي في المصـــرو غريب   افتو كاي جرســـون كافيه
اونه ســـوب ميـــه زبيب   بكره بوكر فريـــــــــه
اذا كان مافيش خبيـــب   كلموا بقشيش يا بيـــه
استماطي منين يجيـــب   ستاشـــر ألفي جنيـــه

خباصـــــينو مغفلـــين كان زمان برهن يـــموت
مش يخلى عـزبة طـــين يـم خـله صخون طـوت
اليــــومين دى مصريين ف الأونطة مش يفـــوت
وطن خبـــو وطنيـــين من كده اخنـا نمـــوت

وهذا المونولوج يصور احتلال الأجانب للاقتصـــاد المصرى وسيطرتهم عـلى كافة النواحى الاقتصادية ، وبداية النهضـــة الاقتصادية الوطنية وكشف المصريين للمؤامرات الاســـتعمارية وتفضيلهم المصرى على الأجنبى !

• • •

وفى رواية « ياسمينة » للريحانى نجد هذه الصورة الشعبية الجميلة :

شيخ : يا هانميتى قربى جهتى بالفاكهة واعطنى عطفا
فكهانية : يا لدامة يامه ع الشيخ حمه يليه بغمة تلهفه لهفا
هو : من يدك البضـــة الغضـــة البضـــة
ينمض المشمش عضا
هى : وانا وشك جاب لى الخضـــة
والى جـــــيزك يا لهفى
هو : لـــباطة موزك يا شـــغفى
بيتـــك بستوى فى الرضـــة
هى : والنبى انك كدا بالشـــرف
غلس قوى قوى جتك القرف
هو : يوسفك افندى أنا يدعى عنـــدى سى يوسف يـكا

هى : هنـا دكان فاكهة مش شىء من دكها اتعه عليـــك

هو : يا ليتنى ســـبتا او قتـــة

عنـدك يا أيتها الخفـــة

هى : يا لوح انجـــــر فارقنى

احسن جـــوزى يطلقنى

هو : زوجـــك هـــذا دقيــه

بالشـب واديـــــه

ومن الغـد لا تبقيـــــه

وانا اســـــتبدل بيـه

زوجها : طب خد يا حانوتى يا ابن القـبحا

هو : ويلاه نافوخى قد انبطحا ,, آه ,, آه

زوجها : بآ أخش انا اوزن لك بلحا

اخرج الاقيك هنــــا منبلحا

هى : طب وانا ايه ذنبى جتك كاينه

زوجها : هس اخـــرسى اوعى تردى

لا امــك لك شمروخ وادى

هى : تستجرى تمـــد دراعـــك

وانا وانبى أعض صـــباعك

زوجها : اسفخص عليكى وعلى أمـــك

هو : دى بعمرك اوعى تبهدلها

زوجها : ناس هم ف هم الله يـــمك

على فتنتها فـ طشت غسيلها

وبالرغم من أن هذه المونولوجات والترالوجات — التى يلقيها ثلاثة أشخاص — قد مضت فترة طويلة على تأليفها وتلحينها الا أنها ما تزال حتى هذه اللحظة محتفظة بجمالها وخفة دمها ، وما يزال الجمهور الذى سمعها منذ فترة غير قصيرة يجد السعادة والبهجة فى أن يسمعها اليوم مرات ومرات ..

ولننتقل بعد ذلك الى رواية « بسلامته عاوز يتجوز » لنجيب الريحانى حيث تقف مجموعتين أمام لحن الساجين ، وفى هذا اللحن تبلغ السخرية بكشكش بك الذروة وهو يندد بما لاقاه بسبب نظافة ذمته !

احنــا المساجين قفشونا هنـا وتفـك منين ؟
ماحناش خارجين ولا بعد سـنة ولا بعـد اتنين .

كشكش : حدفتنى نضافة الذمـة ورمتنى مـع المحابيس .
جى أعمل صاحب همـة قالوا لى شرف يا عريس .

المساجين : ياب الكراكون اللى يخشه يتمشش لما يجيبوا دانه
ويكلها علق اشى على وشه واشى على ناصية أم دماغه.

وفى هذه الرواية أيضا نستمع الى موال « على الساقية » الذى كتبه كما كتب كل أزجال الرواية بديع خيرى :

ياللى انت بتنبعك نجلة وبتاوه
ولا هم شايل ولا طمعان فى بقلاوه
م الصبر للعصر هادى السر متاوى
جار البهايم وحواليك الفراخ بايضين

عرفان ولكن مع السلطان بتساوى
وان جمت بتشبعك فجلة وبتاوه

وقريب من هذا الموال ، ما كتبه بديع خيرى فى فيلم « عاصفة على الريف » وصور الحياة فى القرية : وقد قام بدور الفلاح صالح عبد الحى :

الجميع : اصحى يا نايم واسعى لزادك
وادعو لربك بخلوص نية
قول يا مصبحها على عبادك
تجعلها فجرية هنية

هو : مخاليق تناديك وأدان الديك
يحيى النور وقت شروجه
والطير يلاغيك وحمام يناجيك
ويسبح لك جوه بروجه

هو : الفلاح ينقصه ايه مرزوق وبهيمته بترعى
والبط داير حواليه عايم على وش الترعة
وخديجة وفاطمة وشلبية بلاليص ولا زلع الشربات
والساقية يدورها عطية وحسين ع النورج والمحرات
وبنات الكفر مالهم يا ولد
بنات الكفر ياحلاوتهم فى جناين المشمش
يعبوا بايسمين ادهم
على نعمتهم والحامد بيزيده ربه

وقنـــاعة النفس فضـــيلة
واحنـــا النيـــل مالى عنينـــا
بركة صبحية جميــــــــلة
عطايا تحفظهـــا علينـــــا

وفى فيلم الشريد ، كتب بيرم التونسى موالا آخرا ، سجله زكريا أحمد بصوته وظهر فى الفيلم وهو يغنيه :

يصعب على اللى ماله ضاع ومقامه
يبات ذليل يفتكر فى العـز وأيامه
يشكى ولا من سمع شكواه وآلامه
الا السميع الحليم الواحد القيـوم
من يقصده يجده فى الشدة قدامه

وفى رواية « مبروك » نجد صورة شعبية رائعة حيث تنتقد سيدة محجبة بنات جنسها اللواتى خرجن الى الشارع سافرات :

يا دى العـــدم يا ام لمـام	تعـالى اتفرجى ع الدنيـــا
قال ايه ماشـــية لقـــدام	وبقت لهـــا تقاليع ثانيـــة
الـــت بتمشى دراعهــــا	فى دراع سى الافندى بتاعها
والنـاس باصــة لكوارعها	من غـــير شرابات وبلاوى
مش فاضـــية الا لنزهتهـا	ولا ســاءلة فى تدبير بيتهـا
واللى يحب يحــــدتها	تلاغيه لغـــوة فرنساوى
فين يا اختى زمانـــا اياه	زمن الحشـــــة والقيمة
مين شاف اللى شـــفناه	من عـز وعيشة عظيمـــة

ولعل من أجمل ما كتب بيرم التونسى ، ولحن زكريا أحمد

مولد السيدة زينب » من فيلم ليلى بنت الفقراء ، حيث ينشد
جميع فى البداية « الله أحد الله أحد » ، ثم تظهر على الشاشة
موع بائعى الحلوى ، والكحل وغيرهم وغيرهم ويجرى هذا
حوار ، يبدأه بائع الحلوى :

قرب عليه قرب عليه
ع الحمصية والسمسمية
قرب عليه وشوف العرايس
وحط مهرك شلن وآيس
اجوزك واحدة م النمايس
تنفع عروسة ومهلبية
قرب عليه قرب عليه

بائع النشوق : فضونا من الدربكة ديا
اهو ده اللى يفوّق وقتيا
تعال شم وفوق ده نشوق مدقوق
فى مدق دسوق والمستودع فى جامع برقوق

بائع حلاوة العصا : تماثيل فنية يا ولاد من صنع لديه يا ولاد
توت عنخ آمون يا ولاد
وحصان وكانون يا ولاد

وبعد هذا الاستعراض الرائع نجد صبيا يقول :

يا نبيا سمت بك العلياء وأضاءت بنورك الظلماء
كيف ترقى رقيك الأنبياء ، يا سماء ما طاولتها سماء

ثم يقوم الجمهور بذكر الله : الله أحد ، الله أحد ، الله أحد :

يا ســـت لنظـــرة يا ســـت
يا ســت زينب نظــرة   أبلغ بهـــا آمـــالى
احنــا هنــا فى الحضرة   حــول المقــام العــالى
مدد مدد يا سيدة
نورك ده هـــل علينا   فوق الفــرح والزينــة
يا بنت بنت نبينـــا   واخت الحسين الغالى
مدد مدد يا سيدة

وكما بلغ بيرم فى استعراض مولد السـيدة زينب الذروة يبلغ فى فيلم « مسـمار جحا » ما هو أعلى من الذروة ، ينشد الجمهور مطالبا بهدم الظلم ، قائلا :

هد هد هد هد   هد هد هد هد
آدى الحق وآدى الجــد ، وعهــد الظلم خلاص اتهد ..

ويطل البطل حماد من سجنه ليقول :

فاجر ظالم ، عامـــل حاكم   يضرب خـــد ندور خـــد
لا هو من دينـــا ولا ملتنا   حقه قوام بالسيف ينصـــد

وتصرخ الجماهير :

سجن المجـــرم هـــد   سجن الظـــالم هـــد
أدى الحق .. وادى الجـــد

وقد بلغ فى تصوير ظلم الحاكم ، واستبداده بالشعب الى درجة لم يدانه فيها كثير من الأدباء فى العالم كله ، لأن الصورة كانت تنطبق على نظام الحكم قبل ثورتنا فى ٢٣ يوليـو تمام الانطباق .

وقد كتبها بيرم ، ولحنها زكريا قبل ثورة ٢٣ يوليو بستة أشهر ، فكانت بحق غضبة من غضبات شعب آمن بحقه فى الحياة وحقه فى الحرية وحقه فى الكرامة ، وحقه فى أن يطرد كل دخيل ، وأن يطرد كل ظالم ، وأن يكتب لنفسه صفحة جديدة من صفحات الخلود !

ومن الصور الجميلة التى كتبها بيرم ، ولحنها زكريا ، قطعة بنت البلد التى غناها محمود شكوكو :

بنت البلد يا ولد على حلاوتها   بنت البلد يا ولد على خفافتها

بنت البلد يا ولد على كتاكيتها

ولا يمكننا ونحن نتحدث عن الصور الشعبية الجميلة أن ننسى لحن المراكبى الذى كتبه أحمد شوماذ فى فيلم « أرض النيل » ومطلع هذا اللحن :

هو : على رزق عيالى شقيان

ولا حد بحالى دريان

الدنيا بتجرى وخدانى

من قبلى لبحرى وسايقانى

هيلا .. هيلا

هو : ياللى انت بتشكى وبتقاسى

راح يجى يوم يرتاح قلبك

ده زمانك مهما كان آسى

اتوكل دايما على ربك

هيلا .. هيلا

وكثيرا ما كان زكريا يعمد الى عيون الشعر القديم والحديث فيختار بعض قصائده ليلحنها ، ويضفى عليها من فنه وعبقريته ، وقد لحن زكريا أحمد للبهاء زهير ، ولصفى الدين الحلى ، ولأبى العلاء المعرى ، ولأحمد شوقى ، ومما لحنه للبهاء زهير وكثيرا ما كان يحلو له أن يغنيه :

مولاى كن لى وحدى فانني لك وحدك
وكن بقلبك عندى فان قلبى عندك
لى فيك قصد جميل لا خيب الله قصدك
حاشاك تؤثر بعدى ولست أوثر بعدك
ان تنس عهدى فانى والله لم أنس عهدك
أضعت ود محب ما زال يحفظ ودك
مالى عليك اعتراض أدب كما شئت عبدك

ومن الأناشيد الوطنية التى لحنها زكريا وغناها كارم محمود ، « يا ريتنى من بور سعيد » ، وهى من كلمات اسماعيل الحبروك :

ان عشت اسمى بطل وان مت اسمى شهيد
الكل يتباهى بى والناس تشاور علىّ
وتقول بطل بور سعيد
وقف بصدره يدافع ويصد نار المدافع
بإيد ويضرب بإيد

ومن الأناشيد التى لحنها زكريا أحمد ، وألفها سعيد العريان :

أنا العربى من أهلى رسول الله
أنا العربى من جيران بيت الله

أنا العربى من لغتى كتاب الله
بجبال الله استعلى تعالى الله
أنا العربى

ومن هذه الأناشيد أيضا « يا ويل عدو الدار » كلمات عباس شافعى وغناه محمد قنديل (١٩٥٦) :

يا ويل عدو الدار من ثورة الأحرار
دول بالحديد والنار وعزمة الجبار
حايحاربوا الاستعمار
احنا عرب شجعان ما حد فينا جبان
بسلاحنا والايمان نحمى الحمى والدار
يا ويل عدو الدار

ومن هذه الأناشيد أيضا « حماة الحمى » لمصطفى صادق الرافعى ، الذى سجلته الاذاعة عام ١٩٥٦ :

حماة الحمى يا حماة الحمى هلموا هلموا لمجد الزمن
فقد صرخت فى العروق الدما نموت نموت ويحيا الوطن

وقد كتب بيرم التونسى ، « خلوا السيف يقول » ، وغناه زكريا أحمد بصوته حيث أذيع من القدس . وهذا هو نص النشيد :

العرب : خلوا السيف يقول خلوا السيف يقول
زكريا : لما العيب يمس العرض القتل يحل ويصبح فرض
يخلى الدم يروى الأرض ويجرى عرض وطول
خلوا السيف يقول

وننتقل الى نقطة أخيرة فى هذا المضمار ، وهى الأغانى التى لحنها زكريا أحمد لأم كلثوم ، لقد بلغ زكريا فى تلحين أغانى أم كلثوم ذروة المجد الفنى ، وحقق للموسيقى العربية انتصارات باهرة ، رفعتها الى المستوى العالمى ، وكفى زكريا فخرا انه انتقل بنفسه ، وبأم كلثوم من : « ارخى الستارة اللى فى ريحنا » «وابوها راضى» «وبلاش المناهدة ، وطاوعينى» الى أنا فى انتظارك والأمل والآهات ، واهل الهوى ، وايه أسمى الحب ما اعرفش ؟ ..

ان أول أغنية لحنها زكريا أحمد لأم كلثوم ونالت اعجابا شعبيا لا مثيل له هى :

اللى حبك يا هناه ... فى نعيمه أو شقاه
نور عيونك فى فؤاده ... يضوى فى ليلة سهاده
وان دعيتى له وداده ... فى بعاده يا هناه

وحلق زكريا ، ورامى ، وبيرم مع أم كلثوم فى أفلامها ، التى كانت سفيرة للضاد فى شتى أنحاء العالم .

من روائع ألحان فيلم دنانير والكلمات لرامى :

بكره السفر بكره ... بكره السفر بكره
بكره السفر ويروق بالنا ... وافرح بقربك واتهنا
وان كنا نهجر أوطاننا ... الحب يبنى لنا أوطان

ومن ألحان زكريا فى فيلم « سلامة » وقد بلغ فيها القمة ، وتفوق فيها على نفسه وهى من كلمات بيرم :

عن العشاق سألونى ... وانا فى العشق لا افهم
سمعناهم بيقولوا ... العشق حلو وآخره علقم

د فى الليل وويل على ويل وشىء منه العـــذاب ارحم
ن أعلن هـــــواه يتعب ومن خبى هــــواه يعـدم
لوا لى مين من العاشـــقين وهب قلبه الى حبه ولم يندم
العشـــاق لا نسأل وخلينا بعيـــــد أسـلم

ومن روائعه التى لحنها لأم كلثوم وغنتها فى حفلاتها الشهرية
ذاعة :

فى انتظـــارك خليت نارى فى ضــلوعى وحطيت
ى على خـــدى وعديت بالثانية غيـــابك ولا جيت
يا ريتنى عمــرى ما حبيت

• • •

ومنها أيضا :

الأوله فى الغرام والحب شبكونى
والثانية بالامثال والصبر أمرونى
والثالثة من غير ميعاد راحوا وفاتونى
الأوله فى الغـرام والحب شبكونى بنظرة عين
والثانية بالامثال والصبر أمرونى واجيبه منين
والثالثة من غير ميعاد راحوا وفاتونى قولوا لى فين
الأوله فى الغـرام والحب شبكونى بنظرة عين قادت لهيبى
والثانية بالامثال والصبر أمرونى وأجيبه منين احتار طبيبى
والثالثة من غير ميعاد راحوا وفاتونى قولوا لى فين سافر حبيبى

• • •

لقد سجل زكريا معظم الأغانى بصـــوته ، وكان يحلو له

أن يجدد فى نضمانها ، بين حين وآخر ، وبالرغم من أن صـوت زكريا كان صـوتا أجش الا انك كنت تسمع منه أجمل الألحان وأحلى الأغانى .. انى أذكر ليلة ، قضيناها فى بيته لمدة زمن ساعات .. كان يغنى وحده على العود .. « الأمل » .. ولم نشعر الا ونور الصباح يدخل علينا ، ليشاركنا بهجتنا بزكريا وفى زكريا .. وعبقرية زكريا !

والآن تساءل ما رأى الناس فى هـذه الأعمال الفنية التى قدمها زكريا أحمد ؟ .. فقط اختار نماذج من هذه الآراء !

فى ١١ أكتوبر سـنة ١٩٢٦ نشرت مجلة المسرح مقالا فى صفحتين عن رواية أبو زعيزع التى قدمتها فرقة على الكسار ولحنها زكريا أحمد ، وكان كاتب المقال صاحبها محمد عبد المجيد حلمى . وجاء فى هذا المقال عن التلحين « وملحن الرواية هو صديقنا زكريا افندى أحمد وليعذرنى الصديق اذا لم أستطع أن أتحدث عنه طويلا .. كانت بيننا صداقة — لا أزال أنا أعتقد بوجودها — وكانت هذه الصداقة تحملنى على محاباته الى حد محدود فى كثير من المواقف ولو اننى لم أكن أسايره الى النهاية والآن بيننا عداء — كما يعتقد الشيخ زكريا — وأنا أخشى الاطالة حتى لا تفلت منى كلمة يؤيد بها تهمته اياى وادعاءه على ومن جهة أخرى فليس من العدل أن يتحدث مثلى عن الألحان ولكن أحد الموسيقيين الملحنين حضر الرواية فحول الى رأيه فى ألحانها .. ويخيل الى ان الشيخ زكريا يسير الى الشيخوخة بسرعة متناهية ، فقد بدأ الضعف الشديد على ألحانه ، فأنت تسمع

ألحانه من أولها الى آخرها فلا يعجبك منها الا لحنان ، الفضل فيهما الى قوة حنجرة المنشد .. أما اللحن الأول فهو ختام الفصل الأول حيث وجد الشيخ حامد مرسى فرصة لاحياء الفصل وبث الحرارة فى ثناياه من أوله الى آخره . واللحن الثانى هو اللحن الرباعى ، ولو أن الشيخ زكريا بدأه على قد لحن المرحوم الشيخ سيد درويش « أنا لا أنام » ولكنه أدرك خطأه فأسرع يعدو تاركا الأصل الى ناحية أخرى قريبة منه بحيث ان نغمة الأصل وحلاوته باقية الى النهاية » .

كتبت مجلة « ١٠٠٠ صنف » التى يصدرها بديع خيرى مقالا عن هذه الرواية بالذات . وقالت عن ألحانها ما يجب أن أذكره « بنصه وفصه » ، للتدليل على ما يستطيع النقد الفنى ، وغير الفنى أن يصنع بالعمل الفنى والعمل غير الفنى من رفع الى السماء ، ومن انزال الى الأرض : قالت مجلة ألف صنف :

« الشيخ زكريا أحمد رجل موسيقى نابغة اعترف له خصومه بذلك أو لم يعترفوا وان من آيات نبوغه قيام هذه الضجة حول اسمه ، وترديد كل لسان لذكره واختلاف الآراء فى شأنه ، فلو أن ألحانه كانت من سقط المتاع ما أثير حولها هذا العجاج الذى لابد منجل عن عظمة ومجد .. الشيخ زكريا رجل عمل لا يعبأ كثيرا بالأقوال ولا يأبه لخصومة أشاح بوجهه عن القيل والقال ، واحتمل أشد النبال برميها الى صميم فؤاده ، حتى أصدقاؤه الذين كانوا موضع سره ، ومحل ثقته ثم أوقف مجهوده الفنى على عمله وحده دافعا بالتى هى أحسن ، وها هو أخيرا قد أنتجت

قريحته اثنى عشر لحنا كلها طرب ساحر وابداع ، فمن كان فى شك من أمره فلينظر « أبو زعيزع » ثم ليحكم بعد ذلك له أو عليه ، ولكن عن معرفة واختيار » .

وقالت مجلة « المصور » عن رواية « مين فيهم » :

« ان هذه الألحان المصرية تشهد لملحنها زكريا أحمد فيما بلغه فى عالم الموسيقى من مكانة ..

وقالت « المصور » عن رواية « أم البلابل » :

« لقد لازم التوفيق زكريا أحمد ، فلم يفلت لحن من زمام سيطرته الفنية وانما لقدرة أى قدرة » .

وقال نجيب الريحانى فى مذكراته :

« وعادت بديعة مصابنى الى الفرقة من جديد ، فأعددنا رواية تكون هى بطلتها واهتممنا بوضع ألحان الرواية فاخترنا للتلحين موسيقيا بارعا هو الأستاذ زكريا أحمد الذى أبدع كل الابداع ووفق تمام التوفيق ، أما الرواية فكان اسمها «ياسينة» وأخرجنا عقب ياسينة رواية أخرى اسمها « أنا وانت » .

وكتب محمد عبد الوهاب فى مجلة « آخر ساعة » ٨ أغسطس سنة ١٩٤٣ ، عندما تحدث عن شخصيات فى عالم الفن :

« زكريا أحمد : هـذا الرجل هو أصدق من يعبر عن رأيه بالطريقة التى يحبها وبعض شبان اليوم لا يهضمون هذه الطريقة ، ولكن الواقع أن زكريا يعبر عن طبيعة نفسه بصدق ، وفهم نادر الوجود .. فى طبعه هو أيضا التحدى فهو يستطيع تلحين التانجو ، والرومبا والفوكس تروت ولكنه يصر على تلحين ذلك النوع

الذى وصل الى مركزه فى عالم التلحين عن طريقه ، وان كانت هذه الطريقة محلا للنقد .. « نحس فى ألحان الشيخ زكريا طيبة قلبه » .

ويكتب محمد عبد الوهاب أيضا — ولكن فى مجلة أهل الفن أغسطس ١٩٥٤ — أى بعد أحد عشر عاما — يقول :

« زكريا أحمد : اعتبره الوحيد فى مصر ذا اللون الشرقى البحت الذى لا يدخل عليه أى تجديد .. وهو وان كان جميلا ومطربا ، الا أن هذا اللون كان يلحن به الموسيقيون فى عام ١٩٢٠ .

ومن مزايا هذا الرجل تميز ألحانه بالطرب الشرقى الذى يرجع سامعه الى « مجالات الأنس » .. بما فيها من خير وحب ورغد ! .. كما انه يمتاز بشخصية فنية .. فبمجرد استماعك الى لحن من ألحانه ، تحس باحساس معين يوحى اليك بمؤلفه ..

الا اننى آخذ على الأستاذ زكريا انه يبتعد عن التطور أو ادخال أى شيء جديد على فنه .. وربما كان هو أبعد نظرا منى فى هذا .. فربما كان لونه الجميل هذا ينحصر فى الحرص على لونه التقليدى الذى يحتفظ به .. ولكننى — على أى حال — أرى لزكريا أن يحاول التجديد فى موسيقاه ، فلربما استفاد الفن من عراقته الشرقية اذا هى طعمت بألوان الفكر الجديد .. » .

ويقول رياض السنباطى .. فى العدد نفسه ، وفى المكان نفسه من مجلة أهل الفن :

« زكريا أحمد : التلميذ المخلص للمدرسة الفنية القديمة .. وله طابعه الخاص الذى اشتهر به — الميال فيه دائما الى المرح حتى فى الشكوى والأنين — فكأنه « كالطير يرقص مذبوحا من الألم .. » وهذه ميزة .. وكما ان لزكريا طابعه الخاص .. فان له حظه الخاص ! .. فقد هضمت حقوقه .. فغفل عنها واندمج فى تيار الوحدة ، والأجواء الخاصة .. وفى رأيى ان الحكومة لو شجعت نوع « الأوبريت » وصرفت عليه ، وعهدت الى زكريا بتلحين الأوبريت فسيظهر لنـا ألوانا من الموسيقى غير التى عهدناها » .

وكتبت مجلة الجمهور اللبنانية مقالا عن زكريا أحمـد ، قالت فيه :

« للشيخ زكريا أحمد عرش وتاج وصولجان .. عرش الفن الجميل الذى تربع عليه ، وتاج اللحن الذى انقاد له برقة عاطفته وقوة ايمانه ، وصولجان سامعيه ومحبيه الذين يتعصبون له ويتبارون فى الاعجاب به .

عرش ، وتاج ، وصولجان ، أو قل قلب وعاطفة وروح ! انها عدة الشيخ زكريا فى كل ما يصدر عنه من ألحان مذابة من صميم حسه ووجدانه .. انك لتحس الخفقة المذابة فى ألحانه وتـــتروح فى أعطافها دفء الايمان ونعيم الطمأنينة والهدوء .

وكان من الطبيعى أن يمتد هذا الفنان الملهم بفنه وبعرشه وصولجانه أما ما بقى من نفسه فحق مشاع للتواضع الجم والخلق المهذب الجميـــل . يبذله طائعا للبنى آدم من الناس .. اللهم

الا الذوات منهم .. ذوات الأربع التى تحس وتفكر تفكير بعض السائمة من الحيوانات .. ولهؤلاء الحساب العسير مع الشيخ زكريا فلا تواضع ولا صفاء ولا جمال بل دقة بدقة وصفعة بصفعة والبادىء بالشر أظلم !

دعاه مرة أحد « الذوات » من الباشوات ليتفق معه على تلحين بعض الأغانى لأحد الأفلام . ودخل الشيخ زكريا على الباشا العظيم بروحه الشفافة وبتاجه وصولجانه الذى يحرص عليه دائما وخاصة فى مثل هذه المقابلات ..

وما راعه سوى هذه الجلسة المتغطرسة والتحية الباردة المقتضبة التى قابله بها الباشا العظيم .. واستمان الشيخ زكريا بالصبر ، ولكن الصبر لم يدم طويلا ، فقد ضغط الباشا صوته الفخم وراح يربت على كرشه الأفخم قائلا متنفخا :

— اسمع يا زكريا .. احنا عايزين منك شوية ألحان لبعض الأغانى .. فقل لى انت عايز تاخد كام على اللحن ؟

وكان حذاء الباشا الفخم اللامع يزدهى فوق ركبته بأرستقراطية لطيفة .. وحدق الشيخ زكريا طويلا الى الانعكاسات النفسية العجيبة التى كانت تسيل من وجه الباشا العظيم ورفع ساقا فوق ساق وهو يقول :

— المسألة بسيطة يا سعادة الباشا .. أنا حاخد ٣ آلاف جنيه على لحن الأغنية الواحدة بس علشان خاطرك !

ولم يتزحزح زكريا قيد أنملة عما طلبه من الباشا .

وقال الفنان أمين فهمى :

« ولقد بلغ الانتاج الفني الذي خلفه الفنان الكبير زكريا أحمد ١٠٧٥ أغنية مختلفة الأنواع والألوان ، و ٥٦ أوبرا وأوبريت وقال الفنان المخضرم الكبير الأستاذ محمد حسن الشجاعي ، المستشار الفني للموسيقى والغناء بالاذاعة : ان هذا المحصول الموسيقى العظيم لم يتوافر لأى فنان في العالم العربى حتى وقتنا هذا ، كما ان هذا المحصول الوفير لم يسقط منه لحن واحد .

ان زكريا أحمد قد استطاع وحده أن يبرز معالم الموسيقى العربية في ألحانه العديدة الخالدة ، وقد استعمل من الأوزان المختلفة عددا كبيرا . وفي سنة ١٩٣٢ ، طلع على الدوائر الفنية بمعجزة موسيقية باهرة اذ لحن أنشودة « بعد ما ضحيت حياتى في الغرام » من أربعة أوزان مختلفة ، بدأها بوزن النوخت ، ثم السماعى الثقيل ، فالمصمودى ، وأخيرا الفالس ، وغناها يومئذ المطرب المعروف الأستاذ صالح عبد الحى ، فكانت حدثا فنيا وتجديدا أثارت ضجة كبرى في جميع الأوساط الفنية .

نعم ، ان زكريا أحمد كان دائرة معارف فنية جامعة ، وقد لحن مختلف الألوان وأتقنها جميعا كل الاتقان ولم يكتف بالألحان المصرية وحدها ، بل ترك لنا بين تراثه الخالد كثيرا من الألحان البدوية واللبنانية والتونسية والمغربية وأغنيته الغوازير (جول لى ولا تخبيش يا زين .. ايش تجول العين للعين) التى غنتها السيدة أم كلثوم تعتبر وحدها معجزة في هذا اللون ولم يستطع أن يلحنها

احد سوى زكريا أحمد ، بذلك الاتقان الرائع للجملة الموسيقية والجملة الالقائية المعبرة ، لأول مرة فى تاريخ فننا .

هذا هو زكريا الموسيقار الفنان ، كانت له طريقة فريدة فى التلحين فهو يتفهم معانى الأغنية بدقة بالغة ، ثم يعطيها الوزن الموسيقى المطابق لوزن بحرها الشعرى ، اذ كان رحمه الله ضليعا فى علم العروض (أوزان الشعر) كما كان أديبا واسع الاطلاع وبذلك كان نجاح ألحانه منقطع النظير » .

ومن مذكرة رفعت الى المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون عند التفكير فى منحه جائزة الدولة التقديرية :

« الموسيقار زكريا أحمد يعتبر أول فنان له محصول لا يستهان به فى تاريخ حياته لم يصل اليه أى فنان لوقتنا هذا حتى بلغ محصوله الفنى ١٠٧٠ أغنية جمعت شتى الألوان ، فكان دائرة معارف فنية ، اذ كان الملحن الوحيد الذى كان يصور الألحان البدوية والتونسية والمغربية ، وجميع هذه الألحان كانت ناجحة الى حد كبير لم يسقط منها أى لحن . وهذه مقدرة فنية فذة لم تتوفر لأى ملحن سابق ، علاوة على ٥٦ أوبرا وأبريت وكلها ألحان فنية تعبر تعبيرا صادقا عن طابعنا القومى » .

« كان الموسيقار سيد درويش أول من انتقل بموسيقانا من التخت الى المسرح ، وكانت ألحانه رائجة فى عهده وتصور بيئة معينة فى وقتها ، ثم برز اسم الشيخ زكريا أحمد ولقب بشيخ الملحنين لاتقانه جميع الألوان المسرحية والعاطفية والدينية والحماسية والكوميدية .

امتازت الحان زكريا أحمد بأنها تصور بيئتنا على اختلاف الميول والمشاعر حتى انها ستظل تلعب دورا كبيرا فى جيلنا فى الحاضر والمستقبل .

امتاز زكريا أحمد بأنه تطور بالموسيقى ، فجعل لها طابعا قوميا يستسيغه الشعب فقد وضع الطابع القديم فى اطار حديث مشوق ، لم يقتبس أو يدخل على موسيقاه أى لون آخر لأن موسيقاه كانت نابعة من روحه وقوميتنا العربية . وهذا لم يتوافر فى أى ملحن آخر حتى وصل بموسيقانا الى القمة .

استطاع أن يبرز معالم الموسيقى العربية الفنية فى ألوانها وأوزانها فاستعمل الأوزان المختلفة فى ألحانه ، ولم يسبقه أى فنان فى هذا المضمار .

جدد فى طابع الموسيقى العربية ، فجعل من الأنشودة الصغيرة (الطقطوقة) قطعة لها قيمتها الفنية ، فحطم القيود العتيقة التى كانت تجعل موسيقانا على وتيرة واحدة ، ثم جدد فى الأوزان والألوان ، ومن قبله كنا نسمع الطقطوقة المعروفة من نغمة واحدة فقتح مدرسة جديدة اذ جعل الطقطوقة من أوزان مختلفة وجعل لكل مقطع منها (الكوبليه) نغمة خاصة تختلف عن نغمات المقاطع الأخرى .

وكان زكريا أحمد ملما الماما تاما بعلم العروض فكان يعطى الوزن المطابق للتأليف ، وهذه ناحية لم يلتفت اليها أحد من الملحنين لوقتنا هذا ، فكانت هذه الطريقة هى سبب نجاح ألحانه

الى أبعد حد ، فكان هو الملحن الوحيد الذى امتازت ألحانه بالتعبير الصادق .

كان الفنان زكريا أحمد يتوفر بنظرته الفلسفية العميقة للحياة وايمانه بانه على خلق ألحانه الرائعة والعمل على توصيلها للمستمعين من المواطنين العرب فى جميع انحاء العالم عن طريق محترفى الطرب والموسيقى والتواشيح ، فخلق باعتزاز ألحانا تتميز بالجمال والروعة وتمتاز الحانه بميزة قلما توفرت فى ملحن آخر ، وهى محافظته على الروح الشرقية فى موسيقاه التى تدل دلالة واضحة على مقدار تمكنه من فنه واعتزازه بكرامته ، بدليل صموده العنيد أمام التيار الذى انساق فيه غيره ، وكان دوره كملحن مجيد ، فضلا عن خلق روائع النغم ، فقد كان يقوم بنفسه بتدريب المطربين والمطربات والعازفين فى اناة وثقة وصبر ، حتى تتم له تأدية ألحانه بالروح الشرقية الأصيلة التى امتازت بها الحانه » .

• • •

ولكن كيف كان زكريا أحمد يخلق روائعه ؟

سئل زكريا أحمد ذات مرة ، كيف تخرج الحانك فقال :

« حسب الظروف ، أحيانا عندما أكون رائق البال بصرف النظر عن الزمان والمكان ، واحيانا عندما اكون ثائر الاعصاب مشدود الأحاسيس ، قد خرجت — مثلا — من خناقة كبيرة وقد عرف اولادى عنى ذلك فتراهم يقولون فى اعقاب كل خناقة لى معهم ، أو مع غيرهم « لازم الخناقة دى بعدها لحن

يا بابا » ، وعندما يكون جو الاغنية غريبا اذهب بنفسى الى الجو الاصلى للاغنية لاعيش فيه . انني احيانا اترك المجتمع الذى لعيش فيه نائما فى فراشه ثم امضى افتش فى نفسى عن شخصيات المغنين والمؤلفين ، اقلب كلماتهم وانقر أوتار حناجرهم ثم اخلق من ذاتى ذات المغنى وجوه ، ثم أعلم المغنى اللحن ، واتركه يغنى واصفق له اذا أجاد : انني أتعرى من شخصيتى هذه المرئية واروح البس شخصيات الممثلين والمغنين وغيرهم . ولا أعنى اننى أخضع لهم ، ولكن أعنى اننى مستودع من البشر مملوء باختلاف العواطف والقوى ، فكلما احتجت الى فرد من الأفراد مددت يدى الى قلبى وأخرجت منه نغمة تختلج ثم تتدفق فى منافذ قلوب الناس » .

وصف نجيب محفوظ ، ليلة من الليالى التى لا تنسى فقال :

« ليلة عادية ، لا تميزها أحداث ، الا أنها لم تكن ككل الليالى ، فقد استمتعت فيها بكل المباهج من مغنى وطرب وأدب وفكاهة وحكايات ، كانت ليلة عيد كبير ، اجتمعنا فيها فى بيت شيخ الملحنين زكريا أحمد . كنا جمهرة كبيرة من الأصدقاء ، منهم من يقرض الشعر ، ومن يرتجل الزجل ، ومنهم من يحترف التأليف ومن يشتغل بالموسيقى ، وكان هذا التباين مدعاة لاقامة ندوة أدبية فنية تحدث فيها الحاضرون عن كل شىء ، وشيخ الملحنين زكريا أحمد معروف بدعابته ، وكان لا يفتأ بين الحين والآخر أن يقطع حديث المتحدثين بنكتة أو دعابة يضحك لها الحاضرون ، ثم يتبعها بترديد بعض مقاطع أغانيه أو بعض « طقاطيق » من الغناء

القديم ، ثم يسكت فجأة ، ليستأنف الشعراء والزجالون القاء أشعارهم وأزجالهم ارتجالا ، وهم يتبارون مرة فى الهجاء ومرة فى المديح .

والشيء الوحيد الذى لا يزال ماثلا فى ذاكرتى من هذه الليلة ، هو قدرة زكريا أحمد واندماجه فى تلحين احدى أغانيه فى هذا الجو العاصف ، ليلتها كان يلحن لأم كلثوم أغنية مطلعها :

ايه أسمى الحب ما اعرفش   دا بينه شيء ميوصفش

كان كلما يلحن « كوبليه » منها يسمعه لنا لنردده معه ، واستمر على هذه الحال حتى مطلع الفجر حتى انتهى من تلحين الأغنية كلها ، بل جعل لها نهايتين عرضهما علينا ، واختلف الحاضرون على اختيار واحدة من النهايتين ، ولكن الشيخ زكريا انحاز لرأى الأغلبية ، وبدأنا نردد الأغنية كاملة ونغنيها جماعة قبل أن تغنيها أم كلثوم . وكنت أشعر بسرور زائد لأننى شهدت مولد أغنية وعشت فيها بالأذن والعين ، وبعد عشرة أيام كاملة سمعت أم كلثوم تغنى اللحن فتذكرت هذه الليلة التى لن أنساها » .

وقد أخذت « آخر ساعة » على عاتقها ذات مرة مهمة مرافقة زكريا أحمد وهو يضع لحنا لأغنية لليلى مراد ، وظلت آخر ساعة ملاحقة زكريا من اللحظة التى أخذ فيها كلمات الأغنية الى اللحظة التى أصبحت فيها ليلى مراد قادرة على غنائها بالصورة التى يرتضيها زكريا أحمد — قالت مجلة « آخر ساعة » :

« ما هى الأدوار التى تمر بها الأغنية من تأليفها الى أن تنتشر على الجمهور ؟ تتبعنا أغنية أعجبت بها المطربة ليلى مراد واختارت

لتلحينها الشيخ زكريا أحمد لأنها تعتز به منــذ أن لحن أولى أغانيها « آه يا سلام زاد وجدى آه » .

والشيخ زكريا لا يلحن حين يطلب منه أن يلحن ، ولكنه يلحن على هواه لا يتقيد فيــه بجو أو زمان أو مكان ولا بموعد .. قد يضع اللحن بعد ساعة ، وقد تبقى القطعة مكتوبة فى كراسته شهرا أو شهرين وأحيانا ثلاثة أشهر ، كما حدث فى أغنية « يا ما أمر الفراق » ، فقد بقيت فى جيبه حتى كاد أن ينساها .. ثم صادف فى الطريق جنازة شاب فتأثر لحزن المشيعين وتذكر القطعة فأخرجها من جيبه واندس بين المشيعين وانهمك فى صوغ ألحانها ، وفى الوقت الذى ووري فيه الفقيد التراب انتهى الشيخ زكريا من اللحن !!

ويقول الشيخ زكريا فى وصف « الجو الملهم » بأن اللحن يرتاد الحدائق ويسير فى الشوارع ويركب الترام وينصت الى « زمارة » الكسارى أو يتبع بائع ذرة مشوية يترنم بالاعلان عن بضاعته .. وعندما يقبض على مفتاح اللحن قد يمر به أصدقاؤه فلا يرد تحياتهم ، وقد تلتقى أنظاره بأنظارهم فلا يراهم لأنه يفكر بعقله وأعصابه ووجدانه فى وضع لحن .. !

وها هو ذا الشــيخ زكريا يلتقى مصادفة بصاحب الجـلالة « الالهام » الهابط على أغنية ليلى الجديدة انه لم يكن على موعد معه قبل أن يقابله على شاطىء النيل حيث الهواء نقى والنسيم عليل والطبيعة فى أجمل ثوب ..

بقى الشيخ زكريا فى ذلك المكان ساعات لم يبرحه الا بعد

انتهائه من وضع اللحن ، وظل بقية يومه واليوم التالى يترنم بمولده الجديد فى حجرة نومه وعلى المائدة وفى الشارع وبين أصدقائه وقبيل نومه .. ثم أعلن بعد ذلك لليلى مراد انتهاءه من تلحين الأغنية وأسمعها اياها عدة مرات .

وانصرف الشيخ زكريا أحمد بعد أن أكد على ليلى بسرعة الحفظ .

ومر اليوم الأول دون أن تتذكر المطربة نغما واحدا من اللحن .. ولكنها فى الصباح اليوم التالى نجحت فى ضبطه والقبض على ناصيته ، وأخذت « تدندن » أثناء تناول قهوة الصباح ، وظلت تردده بعد ذلك الى أن حضر الشيخ زكريا وأعاد غناءه معها مرات حتى ثبت اللحن تماما .

ثم بدأ اللحن والمطربة خطوة أخيرة .. عملية الحفظ لأفراد التخت .. دعوة للبروفة باشراف الملحن ومن بروفة الى أخرى حتى أعلن الشيخ زكريا رضاءه عن المطربة والتخت معا » !!

ويروى أحمد كفافى — من أهل الفن أصدقاء زكريا — الكثير من قصص أغانى زكريا ، كيف ولدت ، وفى أى مكان كان هذا الميلاد ، ومن من الأصدقاء ، شهد عملية « الولادة » أو ساهم فيها بصوته ، أو بانصاته على الأقل .. يقول كفافى :

« ان معظم أغانى زكريا أحمد التى أحرزت شهرة كبيرة ، قد ولدت فى الاسماعيلية والسويس والاسكندرية والقاهرة ، وخاصة فى حارة قبطان اغاسى ، حيث كان منزل عبد العزيز قطة ، الذى يمر وآلت ذاهب اليه بالكثير من الآثار القديمة وحيث تجد فيه .

عشرات من الآلات الموسيقية المتعددة الأشكال والأحجام ، وكذلك في منزل عبد السلام شهاب وبعض هذه الأغانى قد ولدت فى طنطا وأبو النمرس ، وعزبة حسن لاشين ، أذكر ذات مرة جاء فيها زكريا الاسماعيلية ومعه كلمات أغنية « أنا وانت » التى ألقها بيرم التونسى لأم كلثوم ، وكان زكريا قد جاء خصيصا ليشهد حفلة قران أحد الأصدقاء المقربين ، وجاء مبكرا ثمانى ساعات عن موعد عقد القران ، حتى يضمن الوصول مبكرا الى مكان الاحتفال ، وخرجنا يومها لتناول غدائنا فى عزبة الصيادين على مقربة من المكان الذى يوجد به الفرح ..

ولم ننم ، بعد الغداء فلا يمكننا أبدا أن ننام والشيخ معنا وجاء الالهام ، وبدأ زكريا يلحن الأغنية ، وبدأنا نشاركه العمل اما بالانصات الى دندنته ، واما بمشاركته « الوحدة » ، وجاءت الساعة الثامنة موعد عقد القران ، وكان الشيخ ما يزال فى عمله الفنى ، ونحن معه ، واعتذرنا عن حضور القران بالرغم من أن العريس كان أخا لواحد منا ، ومضت الليلة كأنها حلم ، وكنا فى نشوة حقيقية ، فالشيخ يلحن ونحن نغنى ما يلحنه ، وانتهى الشيخ من لحنه فى الساعة التاسعة صباحا ..

وذهبنا فى مساء اليوم التالى ، لعقد القران ، نعتذر للعروسين ، وأبى الشيخ الا أن يشفع اعتذاره لهما بهدية فريدة فى نوعها ؛ فقد غنى الشيخ الأغنية للعروسين ، ونحن معهما .. غنى للعروسين الأغنية قبل أن تغنيها أم كلثوم » .

« ومرة أخرى ذهبنا الى « أبى النمرس » ومع الشيخ كلمات

كل الأحبة اتنين اتنين ، وكنا ذاهبين الى هناك لقضاء بضع ساعات فقط ، لتأدية واجب مفروض علينا ، وراق المكان الذى تغدينا فيه للشيخ زكريا ، كان عبارة عن حجرة لها ثلاث نوافذ . تطل على حديقة مملوءة بالورود .. ورذاذ المطر يداعب هذه الورود ، كما يداعب الشيخ .. وبتنا وبات الشيخ فى هذه الحجرة ، نأكل ، ونغنى ، والشيخ يلحن ولم نبرح هذه الحجرة الصغيرة طوال ثلاثة أيام كاملة لم ننم فيها الا لحظات قصيرة ، وعدنا الى القاهرة ومعنا لحن أغنية « كل الأحبة اتنين اتنين » .

وعندما أعطى بيرم التونسى أغنية « الأوله آه » لأم كلثوم وأعطتها أم كلثوم بدورها لزكريا أحمد ، آثر زكريا أن يربط المزمار بالموسيقى ، كما آثر أن يعطى هذه الأغنية بالذات ، كثيرا من الأهمية ، نظرا لتردد أم كلثوم فى غنائها ، ورغبته فى أن تكون قطعة رائعة ، وظللنا معه أسبوعا كاملا .. نذهب ليلة الى بيت عبد السلام ، ونسهر والشيخ يدندن ، ونحن معه وذلك الى الصباح ، ونترك المنزل الذى كنا نعمل فيه مع الشيخ الى بائع فول مدمس وننتظره حتى يفتح المحل .. ونشترى منه القدرة والزيت وقفص الخبز ، ونجلس على الرصيف نأكل ، وكأننا مجانين .. وبعد أن نقضى على كل ما فى المحل ، نذهب الى فكهانى قريب ونشترى منه بطيخا — لكل واحد منا بطيخة — وعلى الرصيف أيضا نقضى على البطيخ كله ، من انتهى أولا ، يساعد من تأخر فى الأكل .. وهكذا حتى تشرق الشمس ، فنعود الى منزل أى واحد منا لننام حتى المساء ، ونبدأ فى البحث عن

مكان جديد ، لسهرتنا الجديدة ، وهكذا طوال سبعة أيام الى أن انتهينا من الأغنية .

ولم تنته السيدة أم كلثوم من ترددها ، خاصة وان كثيرا من الأصدقاء قد بالغ فى تشككه فى نجاح هذه الأغنية ، الى أن جاءت حفلة أم كلثوم فى النادى الأهلى وكان النادى الأهلى هو كشاف أم كلثوم تغنى فيه أم كلثوم لأول مرة اغنياتها ، ومن ذوق جمهوره تحكم أم كلثوم على نجاح الأغنية أو عدم نجاحها .. وأعلن فكرى أباظة عن الأغنية الجديدة ، وبدأت أم كلثوم تغنى .. واستعيدت المقدمة الموسيقية للاغنية ست مرات !!

ومرة فى الاسكندرية وفى حفلة خيرية أقيمت لصالح الأطفال العميان أخذ زكريا يغنى أو يدندن ، وطفل صغير أعمى ، يدق على الطبلة .. والطفل لا يمل أن يمسك الوحدة والشيخ لا يمل من الغناء والدندنة .. وانتهت الليلة وانتهى زكريا أحمد ، من تلحين أغنية « حبيبى يسعد أوقاته » ..

وأم كلثوم تسمع اللحن مرة من زكريا ، وتغنيه معه فى المرة الثانية ، وفى المرة الثالثة تغنيه وحدها وزكريا يقول دائما : « ان اللحن الذى أريد أداءه بصورة معينة ، ولكنى لا أستطيع أداءه بهذه الصورة ، لا يوجد من يؤديه كما أريده الا أم كلثوم .. ان صوتها يمتاز برشاقة وخفة دم ، وجمال ما بعده من جمال .. » .

أما أغنية « أنا فى انتظارك » فقد كان ميلادها فى منزل عبد العزيز قطة : الشيخ درويش الحريرى يستمع وزكريا يمسك

الوحدة ، وأنا أمسك الرق لأول مرة فى حياتى .. وكنا فى رمضان ، وفات موعد السحور ، ولم تتناول السحور لأننا فى حالة هيام باللحن .. وتزلنا فى الصباح الباكر ، وركبنا عربة حنطور ، ونحن كلنا نغنى « أنا فى انتظارك » .

وللحقيقة والتاريخ أقول ان مطلع الأغنية كان فى البداية « أنا فى استنظارك » وقد عدله زكريا لأنه لم يعجبه — وجعله أنا فى انتظارك .. لأن نطق الأغنية فى الصورة الأولى كان متعبا ، وغير مقبول !!

وعندما عرضت أغنية « بكرة السفر » على عبد الوهاب ، قال لا يمكن تلحينها وعندما انتهى زكريا من تلحينها كان أول من هناه بها عبد الوهاب شخصيا ، وقد تم تلحين هذه الأغنية فى فناء مدرسة كان صاحبها صديقا لزكريا أحمد ، وقد انتهز زكريا فرصة العطلة المدرسية ، فذهب الى المدرسة فى غياب صاحبها وقضى بها يوما كاملا الى أن انتهى من تلحين الأغنية واستدعى ناظر المدرسة ليسمعه اللحن .. وقد لحن زكريا مع أغنية « بكرة السفر » «أنا طير جريح يا فؤاد» ، ولحن زكريا أغنية «رحلت عنك ساجعات الطيور » فى منزل مصطفى فوده ، وكان يحلو لزكريا أن يغنيها ، ولكن لم يغنها فى أى منزل ، لأنه لم يكن يريد أن ينكد على أحد لأن هذه الأغنية تبعث الحزن فى النفس وتتحدث عن الفراق الطويل !! .

وفى بعض الأحيان كان زكريا يتصل بأم كلثوم من الاسماعيلية

أو السويس أو الاسكندرية تليفونيا ليسمعها بعض ما وصل اليه من خطوات فى التلحين ، ولو كان « كوبليه » فقط » .

ولقد استمعت مرتين الى زكريا وهو يتحدث عن ألحانه مرة وهو يبكى ، ومرة أخرى كان يبتسم من كل قلبه .. فى المرة الأولى قال زكريا :

« عندما جاء عبد العزيز آل سعود الى القاهرة طلب من أم كلثوم أن تغنى فى عابدين ، وأعدت لها قصيدة تخلى الملحنون عن تلحينها لضيق الوقت ، ولكنى لم أخذل أم كلثوم ، فلحنت لها القصيدة فى خمس ساعات وحفظتها للتخت فى ثلاث ساعات ، وغنتها أم كلثوم فى الليل بقصر عابدين .. وكان من أثر ما بذلت من جهد شديد أن أصبت بالفالج » .

« ومرة أخرى جاءنى الأستاذ رامى ليقول لى أن أم كلثوم تريد أن تغنى قصيدة فى دار الأوبرا مطلعها :

بين ذل الهوى وعزة نفسى ضاع قلبى فما عرفت التأسى

وكنت قد قلت لأم كلثوم ان تلحين هذه القصيدة مستعص ، ولكنها صممت ، ورفض الملحنون كلهم أن يلحنوها ، ومع هذا فقد عز علىّ أن أخذلها ، ولحنت القصيدة وأنا فى فراش المرض ، وغنتها فى الأوبرا ، وعندما قرأت « بروجرام » الحفلة وجدتهم قد نسبوا خطأ تلحين الأغنية الى غيرى .

وفى المرة الثانية التى كان يضحك فيها من كل قلبه .. قال زكريا :

اسمعوا يا جماعة .. كان على الكسار — أمساه الله بالخير —

يربح أكثر من ألف جنيه فى الشهر ، ولعب شيطان الطمع برأس أمين صدقى الذى كان يؤلف له ، فألف فرقة لنفسه وسحب رواياته من الكسار ، واضطر الكسار للظهور برواية جديدة فى اليوم التالى ، وسار العمل على هذا المنوال .. الأستاذ حامد السيد يترجم ويرسل ما يترجمه أولا بأول للأستاذ بديع خيرى ، الأستاذ بديع خيرى يؤلف الأغانى ويرسل ما يؤلفه الىّ مع خادمه .. وأنا ألحن طول الليل .. وظللنا على ذلك حتى الصباح حيث بدأنا فى تحفيظ الرواية والألحان وعمل البروفات وفى المساء مثلت الرواية الجديدة » .

وقال زكريا وهو يذكر الريحانى :

« كان الريحانى — رحمه الله — يقول ان صناعتنا صناعة مغفلين يضحكون على مغفلين » وهى نظرة فنان صحيح ، كنت احبه وأتمنى أن اخدمه بروحى ، وأحب أن أقدم له أى لحن ولو دفع ثمنه عشرة قروش فليس المهم عند الفنان المال ، بل الناس الذين يعاملهم » .

ولعل العبارة الأخيرة : « فليس المهم عند الفنان المال ، بل الناس الذين يعاملهم » هى خير مفتاح لشخصية زكريا أحمد .

الفصل الأخير

أجمل ما فى شخصية زكريا أحمد أنها تمثل شخصية الرجل العادى فى بلادنا أصدق تمثيل ، فهو يمتاز بصدقه ، وأصالته وبساطته ، ورغبته فى أن يحيا دائما ويحيا معه الآخرون جميعا ، فى سعادة ، وسعة ، وحرية ، وكرامة ..

وبالرغم من أن زكريا أحمد قد انتقل من الحوارى الضيقة فى أحياء الحسين والباطنية والدرب الأحمر ، الى الشوارع الرئيسية فى الفجالة وحدائق القبة ، والعتبة الخضراء .. وبالرغم من أن ايراده قد ارتفع من خمسين قرشا فى الليلة الواحدة الى ٥٠٠ جنيه فى الأغنية الواحدة ، وبالرغم من أن رحلاته خارج القاهرة لم تعد مقصورة على سنود والمحلة الكبرى وديرب نجم وايتاى البارود ، وانما امتدت الى بيروت ودمشق ، واستامبول ، وقبرص ، وروما وباريس . وبالرغم من أنه تحول من « صيت » عادى يقرأ فى المآتم والأفراح وليالى موالد النبى والسيدة زينب والسيدة نفيسة ، الى موسيقار كبير تتجاوز شهرته مصر ، الى العالم العربى كله ، بالرغم من ذلك كله فقد ظل زكريا وفيا لنفسه وللناس الذين اتصل بهم وتعرف عليهم وارتبط معهم بأحاسيسه ومشاعره وآلامه وآماله .. لم يتبدل ولم يتغير ولم تستطع ظروف الحياة الجديدة أن تخرجه عن الفه فى صغره ، وما تربى

عليه فى بيته الفقيرة الكادحة ، بل نراه دائما وباستمرار ملتصقا بالطبقة التى نشأ فيها ومنها ، ولم يحاول مرة واحدة أن ينفصل عنها ، أو يتبرأ منها ، أو على الأقل ، يتنكر لها ، أو يستبدلها بغيرها .. أصدقاء طفولته وصباه ، هم أصدقاء شبابه ، وكهولته ، رفاق فقره وحاجته ، هم رفاق سعته ، وبحبوحته ، لم يبدلهم بغيرهم ممن كانوا ينتمون الى الطبقة الراقية أو التى كان يسمونها راقية ، وان لم يحاول أن يعادى واحدا من هذه الطبقة أو تلك لأنه يريد أن يعيش مع الناس جميعا فى خير .. وأمن واطمئنان ، لا يحمل للناس الا ما يحمل لنفسه ، من رغبته فى الخير ، ورغبته فى البعد عن الشر ، ورغبته فى الاستزادة من نعم الحياة ، يسير فى شوارع القاهرة على قدميه لا يملك الا قروشا قليلة ، لا تستطيع أن تنفق على بيته يوما واحدا ، وتعجبه احدى العمارات الفخمة الضخمة التى تناطح السحاب ، فيسأل لمن هذه العمارة فيقول له رفاق الطريق : انها لهذه الفنانة أو تلك ، فلا يحقد ، ولا يغضب ولا يتحسر على ما أضاعه من مال ، وما ضاع منه من فرص الحياة ، ثم يقول والابتسامة الحلوة البيضاء لا تفارق شفتيه ، ولا تفارق قلبه أيضا : ربنا يزيد ويبارك .

وتمر به فى الشوارع والطرقات التى يذرعها ذهابا وايابا سيارات من أحدث الطرز تمر به وهى مسرعة حتى لتوشك أن تلتهمه ، ويلمح داخل هذه العربة أو تلك فلانا الذى كان الى أمد قريب ، تلميذا فاشلا يحاول أن يصنع منه فنانا ، فلا يتيسر له

ذلك ولو بالجهد الشاق ، أو فلانة التى كانت الى شهور مضت « كومبارس » لا تكاد ترتفع بالعقل ، عن مستوى الحقل ، ولكن زكريا لا يتضايق لذلك كله ولا يتألم لذلك كله ، وانما يفرح ويبتهج وكأنما هو مالك كل هذه المربات ..

ويركب سيارة تاكسى ، ويتجاذب — كعادته — أطراف الأحاديث الحلوة الممتعة مع السائق ويتخذ منه صديقا ، ويستمع الى آلامه ويقول السائق ان هذه السيارة وعشرات مثلها ، لهذا الفنان أو ذاك — فلا يقول له الا ما يقوله فى أمثال هذه الحالات : ربنا يضاعف له ماله .. لقد تعب فى شبابه وآن له أن يستريح ، ويستريح معه أبناؤه .. !

ونلقاه مكتئبا ذات صباح والابتسامة الحلوة قد غابت ، عن شفتيه ، وعن قلبه معا وتسأل عن سر هذا الحزن الذى ارتسم على وجهه ، وارتسم بالتالى على قلبه ، ليقول لك :

— « والله البواب بتاعنا تعبان جدا » .. أو يقول : « البنت اللى بتشتغل عندنا بقى لها يومين ماحدش عارف هى راحت فين » .

ويمتنع عن العمل أياما ، وأياما والمخرجون يلحون فى طلب الأغانى ، وحفلات الاذاعة قد اقتربت مواعيدها ، والألوف الجنيهات توشك أن تطير من جيب الشيخ ، وأجراس التليفون تدق من هذا المطرب أو تلك المطربة .. وترجو ، وتلح فى الرجاء أو تهدد وتوعد ، والشيخ فى واد ، والجميع فى واد آخر ، ان ابنته الصغرى « تهانى » تشكو ألما فى حلقها والشيخ لا يريد

أن يعمل مالم تشف كريته ، ومالم يطمئن هو بنفسه ومن أكثر من طبيب على شفائها ..

وفى عام ١٩٣٦ العقبات ، والسدود ، والمشاكل تتزاحم حوله ، وفى بيته ، وفى عمله ، وفى كل مكان ، له فيه أى أثر والدنيا كلها تتوقع له نهاية غير سعيدة ، والكثير من الخصوم ، بل ومن أصدق الأصدقاء ، يرون أنه قد خسر المعركة ، وانه قاب قوسين او أدنى من الموت الفنى . ولكنه لا يرى رأى هؤلاء جميعا ، انه يثق فى نفسه ، ويثق فى فنه ، ويثق فى أساليب دفاعه عن نفسه ، ودفاعه عن فنه ويكتب له فى كل معركة يخوضها الانتصار .. ينتصر على خصومه الذين بالغوا — بلا ذنب جناه — فى خصومته ، وعداونه . وينتصر على أصدقائه القدامى الذين تنكروا له وجحدوا فضله عليهم وحبه لهم ، وينتصر على الصحف الكبيرة الواسعة الانتشار ذات النفوذ السياسى ، والفنى .. ينتصر عليها بعد أنه أوقفت كل نشاطها على مهاجمته ، ويكون انتصار زكريا دائما بأسلحة بسيطة ، .. اليد النظيفة ، واللسان العف ، والقلب الطيب . لا يستخدم سلاحا مفلولا فى حربه التى يخوضها دفاعا عن نفسه ، ولم يرتكب حتى وهو يدافع عن نفسه ، فى معارك الحياة والموت أى خطأ فى حق الغير ، ولم يحاول أن يشترى ضميرا ، فالسلاح المفلول ، قد ينقلب على صاحبه والعبد الذليل الذى تشتريه بمالك اليوم قد يستولى عليه غيرك غدا اذا ما دفع ثمنا أكثر ، أو اذا امتلك سلاحا أقوى ، والقلم الذى يمكن شراؤه ، لا يتردد صاحبه فى أن يقف ذليلا فى صف من هو أكثر

مالا واقوى جاها و أعز نفرا .. والضمير الذى اشترى ولو مرة واحدة ، لا آمان له ولا ثقة فيه ، ولا خير فى أى دفاع يقوم به .

وبالرغم من الخصومات العنيفة التى اندفع فيها بكل حماقة ، وظلم بعض الموتورين منه ومن نجاحه الساحق وبالرغم من الخسائر البالغة التى منى بها ، فان زكريا لا يحمل فى قلبه تجاه الناس جميعا — حتى هؤلاء الموتورين الا الحب ، والود وسعة الصدر ، ويكفى أن يقابله أحد هؤلاء الذين أولغوا فى سيرته ، ونهشوا مقدسات حياته ويكفى أن يعتذر الواحد منهم عما قدم ، ليصفح عنه زكريا ، وينسى فى التو سيئاته وخصوماته ..

وقد كان زكريا من المؤمنين دائما بأن واجب الانسان الشريف النبيل أن يتحكم فى مشاعره ، والا يطلق لها العنان ، واله اذا كان لكل شىء فى الحياة ثمنه فكذلك المشاعر الانسانية الرقيقة والخلق الطيب الرضى ، لا يمكن أن يكون للمرء الا عن طريق التضحية ونسيان الاساءة ، ودفع الكراهية بالحب .

وزكريا يؤمن حق الايمان بأن الدواء السحرى لكل ما يعترضنا فى الحياة من عقبات ونكبات هو الحب ، تحب الناس جميعا ، من أحسن اليك ومن أساء اليك .. بل من لم يحسن ، ومن لم يسىء اليـك .

ولقد سئل زكريا ذات مرة عن رأيه فى الحب بالنسبة للفنان ، فقال : ان الحب فى الحقيقة بالنسبة للفنان هو حب الذات ، فأنا عندما أحب الزهرة أحبها لأنها تسعدنى والمرأة كالزهرة ، تلهم

الفنان وتسعده ، ولكنها قد تجرحه بأشواكها وهذه الجروح هى المحك الذى يصهر روح الفنان ويصقلها .

ويسأله أحدهم : لماذا قبلت الصلح مع الاذاعة بمثل هـذه السرعة ، وبالرغم من أن الصلح لم يحقق لك الا جزءا ضئيلا ، مما أنفقته على القضية من مال ، فيقول لأن الاذاعة أرضت كبريائى ، تلك التى أراد لها بعضهم أن تجرح وتذل والتى أحمد الله ، على صيانة كبريائى ، وغناى عن الناس » ..

وزكريا الى جانب هذه النواحى يمتاز بقدرته العجيبة على اختيار الأصدقاء والمعارف ، تراه يقابل أحدا من الناس لم يره الا مرة واحدة فسرعان ما يتجه اليه بكل قلبه ويفضى اليه بكل مشاعره ، وتسأله : هل تعرفه معرفة أكيدة فيقول لك : كلا .. ولكن قلبى انفتح له على مصراعيه » وتراه يقابل واحدا من الناس يعرفه حق المعرفة منذ سنوات عديدة ولكنه يجفل منه ، ويزور عنه ولا يبادله الا الكلمات الروتينية ، وتسأله هل بينك وبين هذا الشخص خصومة ، فيقول لك : كلا ولكن قلبى مغلق دونه .. وتمضى السنوات تلو السنوات لتؤكد وجهة نظر زكريا ويؤكد هو لك والزهو يكاد يسيطر على كلماته : ألم أقل لك ان قلبى لا يكذبنى !

ولهذا فان أصدقاء زكريا الذين تعرف بهم على اختلاف أدوار حياته ، لم يخدع فى واحد منهم ، ومنهم من ظالت صداقته بزكريا وصداقة زكريا له ، أكثر من خمسة وأربعين عاما لم تتخللها غضبة ، أو مشاجرة ، أو حتى مجرد سوء تفاهم ، ومنهم من

لم يتعرف به الا قبل وفاته بشهور ، ولكن صداقته به تكون قوية متينة كتلك التى امتدت خمسا وأربعين سنة كاملة .

ان زكريا يحكم قلبه فى صداقاته ولم يكذب عليه قلبه مرة واحدة ، لقد كانت صداقات زكريا من أروع الأعمال فى حياة زكريا ، ويكفى أن شلة تجتمع سبعة أيام وسبع ليال بدون انقطاع ، لا يمل واحد منها الصحبة ، بل يتمنى كل فرد فى هذه الشلة أن تدوم هذه الأيام والليالى الى سنوات وقرون ..

وزكريا يبش دائما فى وجه أصحابه حتى ليعد بيرم التونسى ، تلك البشاشة من عيوبه ، ونقائصه ، فيقول :

— ان كنت أعيب على زكريا شيئا فهو بشاشته لأصدقائه ، الذين لا فائدة من ورائهم سوى اضاعة وقته ، أكثر من بشاشته لأصحاب العمل ، فانه يستقبلك ويجلس معك حتى الصباح بينما المخرج الذى يكلفه بعدة ألحان يحسم زيارته فى دقائق معدودات وبكلمات جافة ..

ومن خلال رسائل أهل الهوى من أصدقاء زكريا ، ومن خلال رسائل معارفه اليه ، ومن خلال رسائل زكريا الى هؤلاء الأصدقاء والمعارف ، تستطيع أن ترى صورة طبيعية لزكريا وأصدقائه ، وصورة صادقة للجو الذى أنتج فيه زكريا روائعه — ولرأى أصدقاء زكريا فيه ، وفى فنه :

ومن القصائد التى أهديت اليه .. ووجدت ضمن أوراقه ، واحدة أهداها حسين شفيق المصرى « الى سيد الموسيقى » ، جاء فيها :

آمنت بالسحر تحكي عنه عيناها
وكنت أنكره استغفر الله
نشوى شباب سقتني من بشاشتها
خمرا فلست مفيقا من حمياها
أما الحديث فأنغام طربت لها
يشيع ملهم فى أثناء نجواها
فخلتنى من بني العباس تسمعنى
لثغاء رائقة اسحق غناها
فى روضة كلما مر النسيم بها
يراقص الظل مزهوا وتياها
والزهر تهدى به أنغامه فاذا
فوق البساط بساط من هداياها
هذا هو الحب الا أنه صور
من الأمانى أو رؤيا رأيناها
يا ليت أيامنا دامت بروعتها
بين الخمائل انى لست أنساها
بالله ربكما قولا لساحرتى
انى وان أسرفت فى الهجر أهواها
وما سلوت . ولكنى فتى كرمت
نفسى فما أعرف الشكوى ولا الآها..

وكتب اليه محمد على أحمد يصف لقاءه له على شاطئ البحر ، وأحاديثه معه عن الأدب والفن وأهلهما :

وقفنا على الشط نبكى الطلول
وتذكر عهــــــدا مضى وانصرم
ومرنا لصــــدد ذكر الرجــــال
وطعم الحيـــــاة ولـــون الألم
فحدثتنى عن رجال الفنــــون
وعن صـــولات الحجى والقلم
وعن عـــلم طاردته الديـــــار
غريب المقــام نزيل العــــدم
وعن جاهل يحتمى بالغبـــــاء
فيحيا ويحظى بكل النعـــــم
وعن عبقرى طـــواه الوجـــود
وما حطمته قيـــود الهـــرم

ومن رسائل بيرم التونسى لختار هذه الرسالة ، وقد كتبها عام ١٩٤٢ .

« منذ ثلاثة أيام وأنا فى الاسكندرية استنشق الهواء الخالى من الغبار وأشعر والحمد لله بنشاط بدنى وعقلى وأنا الآن أكتب الفصل الثانى من رواية عزيزة ويونس ، وسأمكث نحو أسبوعين على الأكثر .. ليس فى القاهرة ، أصدقاء غيرك ، أكتب اليهم ، فانك صديقنا ومركز عملنا وعمدة فننا ، فاذا علمت ان أحدا يبحث عنى فى عمل ، فلا تتحير فى البحث عنى » .. (ويذكر بيرم فى نهاية الخطاب العنوان ٦ شارع حلاوة قسم الجمرك) ..

— خطاب من ابراهيم حسنى نجل الموسيقار المرحوم الأستاذ

داوود حسنى يشكر الشيخ زكريا على اشتراكه فى احياء حفلة ذكرى والده فى ١١ فبراير ١٩٥٦ فى دار جمعية الشبان المسيحية ، وذلك بغناء دور « حبك يا سلام » وكتابة حديث عنه فى الصحف :

سيدى الفاضل الأستاذ الموسيقار زكريا أحمد

أدام الله عزه

« تحية مباركة طيبة ..

أرى من نفسى العجز عن شكرك ، أيها الفنان الصادق المخلص ، فلا يمر يوم من أيام الحياة الا وتثبت اصالتك كفنان وعبقريتك كموسيقار ، وعواطفك وشعورك قبل كل شيء كانسان فوق كل اعتبار .

وتكريمك لزملائك الفنانين فى حياتهم ومماتهم فيه كل ما فى كلمة الانسانية من المعانى .

ويسعدنى أن أرى صديق والدى رحمه الله ، وزميله فى الفن ، يتحدث بعد مرور عشرين عاما عن آثاره فى الموسيقى المصرية ، وان حديث زكريا أحمد أعزه الله عن داود حسنى هو حديث الفنان للفنان ، أو صديق الحق للفن والتاريخ ، والحق الى مشوق دائما الى ذكرياتك الحلوة تتجدد على مرور الأيام ، وما أحلى ما تستوعبه ذكرياتك ، وما أجمل فكاهتك ، فقد سمعت منها الكثير ، وطربت منها ، كما أطرب لموسيقاك وألحانك .

وكم هو جميل أن يسمع الناس منك ذكرياتك الفنية الحلوة عن داود حسنى وعن بعثه لتراث الأقدمين : عبده الحامولى ،

محمد عثمان .. ومن التطور الذى أحدثه فى الموسيقى المصرية من ادخال المقامات المهملة غير المطروقة على هذه الموسيقى مثل :

١ — الحجازكار كردى ، فى دور « القلب فى حب الهوى » .
٢ — الزنجران أو الزاويل فى دور « أسير العشق ياما يشوف هوان » .
٣ — العجم عسيران فى دور « الحب سلطان آسى » .
٤ — الباستنكار فى دور « قلبى بحبك ولكن » .
٥ — دلتشيمة فى دور « يا قلب حبك من سنين » .
٦ — طرز جديد فى دور « روحى وروحك فى امتزاج من قبل الوجود » .

وكم أود أن يسمع الناس كثيرا الى كفاحك وكفاحه فى سبيل وقف تيار الموسيقى الهزيلة العرجاء التى تدفقت فى هذه الأيام ، لا هى شرقية ولا هى غربية ولقد أعجبنى تصويرك لهذه الأغانى الحديثة بأنها دمية لا روح فيها ، وازهار صناعية لا رائحة لها .

ان القومية فى الموسيقى هى التى تميزها عن سائر الموسيقات . وان الطابع الخاص لها هو رونقها وجمالها ، وكنت أود أن ألقاك يا سيدى العزيز فأنت فى منزلة الوالد ، ولكن الظروف ومشاغل الحياة ، وليكن كتابى هذا عنوان الشعور بالاعتراف بالجميل ، والشكر على الانسانية والفن الأصيل » .

— خطاب تهنئة بالصلح مع أم كلثوم أرسله من طرابلس الغرب الأستاذ محمود على فضلى المستشار والخبير السابق فى قضية زكريا والاذاعة وأم كلثوم :

عزيزى الأستاذ زكريا

ما قرأت خبر زوال الخلاف بينكم وبين أم كلثوم حتى رفعت يدى الى الله شاكرا ، فانى كنت أعدها نكبة على الموسيقى الشرقية أن يظل الخلاف قائما بين قطبين من أقطابها — ولم أملك نفسى من فرط سرورى من ارسال هذا الخطاب اليك ، متضمنا أطيب تمنياتى لكم بالصحة والتوفيق » .

خطاب من الأستاذ بديع خيرى يشكره فيه على مشاركته فى حفل زفاف السباحة ايناس حقى الى ابنه عادل خيرى وفى الخطاب الزجل التالى :

يا محامى يا جـوز المحامية ... ايناس فى نظرى أنا قضـية
وانت كـبتها ميـه الميـه ... مونش كده برضه والا انا كداب ؟
جمرت وشمرت دراعـك ... هوشت القاضى بدفاعـك
والحظ شاورت له بصـباعك ... قام فط ونط لحـد البـاب
محـكمة التفـريح العليـا ... حكمت لك بعروسـة وغاليه
تسعد بها وتغش الدنيـا ... والحكم له فرحت له الأحباب
مشـول بنفاذ وتفاذ عاجـل ... بس انا باستعجب يا سى عادل
ليه المعارف تيجى عالراجل ... والدك من غير ذكر الأسباب

وانت يا متر تهف الأتعـاب

يا عروسة البحـر يا عوامة ... ياللى ماغلبتكيش دوامـة
وغطـتى وقبتى بـسلامة ... م النيل للمانش لنهر لـوار
أنا أخـشى عليكى وارقيكى ... من عين سـمك الاتلانتيكى
وكمان عين حوت الباسفيكى ... اللى سبقتيهم بالمشـوار

أنا خايف وقوليـــلى لمــاذا لا المولود ده حايجى طــازه
يغوى العوم ما هو يا أستاذه ابن الوز ويطلـــع فى الكار
يتمرجح فى كاليه وفى دوفــر ويسابق لدوارد وهوفـــر
وانا جـده بقا اسرح أوفــر سيزع الولد اللعبى الهنــكار
بعـد مؤلف أصـــبح بحار
دى ايناس حقى وشنب والدك موش بس ايناسك انت لوحدك
دى ايناسنا الكل..وكل بعضك ان كنت تغير من حبنا غير
هو انت حاتكتم عواطفنـــا من فضــلك سيبنا على كيفنا
الليلة نمـد روحك ضــيفنا موش احنا ضيوفك لا ده كتير
أنا أنوب فى الشكر لمعازيمكم ويديمهم ربنــا ويديمكم
ويتمم بالوفق نعيمـــكم ياولاد الايه اتــو يا نواوير
عقبــال عنـد اللى جاملوكم تـــلم رجليهم أنــوكم
وختـاما تقبـلوا من أخوكم بوســة حب وبوســة تقدير
واتسمروا فى الدنيــا بسامير

• • •

فاذا انتقلنا بعد ذلك كله الى ما بعثه الى زكريا صديق عمره عبد السلام شهاب من أزجال ، وجدنا صورة جميلة ورائعة للجو الذى أنتج فيه زكريا روائعه ، فما عبد السلام شهاب الا واحد من أهل الهوى ، الذين رافقوا زكريا — وأخلصوا له الود طوال ثلاثين عاما وأكثر ، لم تشبها شائبة من جفوة أو من سوء تفاهم — يصف عبد السلام زكريا الراوية بقوله :

حكايات أبو الزكران حكايات لها العجب
متعرفش يجيبها بفنه منـــــــين
روح ألف ليلة وليلة فين بس جنبهـــــا
خصـــوصا اذا كان فيها ليـــل يا عين
وفيها مـــع التمثيـــل تواريخ وفرزة
وفيها — أقله — من النكتة كتـــايين
وتسمع غنـــا من عهـد آدم لعهـــدنا
ومن كل شيخ قارى ولو آيتـــين

ويقول عبد السلام وهو يتمنى عودة ليالى الصفا بعد أن فرق الزمن — لفترة قصيرة — أهل الهوى :

وبالاختصار نرجع جميعا لأصــلنا
لجنــــة أبونا وأمنا العزيـــزين
ويستجرى ابليس بس يظهر وانا اخنقه
واحاسـبه كما لو كان حساب ملكين
ويكفانا كل اللى حصل من أذيتــــه
ويكفاه يعود منها بخف حنـــين
وبرضـــه على فكرة — نصلى ع النبى
صلاة النبى خـير والزيادة خيرين
وارجع اقول لك كل شىء فى الحياة قسم
وكل اللى مكتوب لك تشوفه العين

ورسائل زكريا الى أصدقائه ومحبيه لا تخلو أبدا من طرافة ،

انه يكتب الى صديق العمر — بديع خيرى — عندما كان يصدر صحيفة ألف صنف سنة ١٩٢٦ :

الزجـــالين فى بلدنا كتــير حدش على وحصل سى بديع
أزجاله حـــلوة ونظيفـــة لا فيها تلطيش ولا تبقيــــع
ألفـــاظ وأوزان ومعـــانى تصـــبح البلبل ســـميع
تضـــحك لمـــا تسورق ويعطيك من معنــــاها
وتنبهك لحقــــوق وطنك بذوق ورقة ونباهـــــة
وتعرفك أحـــوال بلدك واللى بيجرى جـــــواها
أحسن مراية لأخلاقنــــــا تورى عللنا ودواهــــــا

فألف صـــنف النبى أحسن ما فيش مجــلة فى حلاوتها
لهـــا كل يوم أفكار طــــازة علشان ترقى أمتهــــــا
وان كنت عاوز تتنــــــور تبقى فاهم لبتهـــــــا
وانت وعيلتك وجــيرانك وقول لمصر برمتهـــــا ..

واذا كانت خطابات أصدقاء زكريا ومعارفه ، اليه ، وخطاباته الى أصدقائه تعطى صورة كاملة لزكريا أحمد ، ولأصــدقائه ومعارفه ، فان أحاديث زكريا الى الصحافة والصحفيين تكمل هذه الصورة ، ولقد اطلعت على عشرات من هذه الأحاديث التى أدلى بها زكريا أحمد طوال ثلاثين عاما كانت بحق دليلا قاطعا على أن زكريا لم يتبدل ولم يتغير .

وها هى ذى بعض النماذج لأحاديثه الصحافية :

— فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ يقول لمجلة الاذاعة اللبنانية عندما

سأله مندوبها عن رأيه فى هذه الموجة من الألحان الغربية التى تخرج الى السوق على أنها تجديد فى التلحين :

« ان هذا الذى يسمونه تجديدا فى الموسيقى هو فى الواقع قضاء على روحنا الشرقية الأصلية . ان الموسيقى لم تعد فى هذه الأيام الا متاجرة بعواطف المستمعين . والألحان التى يقال انها مجددة هى التى تهدم الذوق الفنى فى الشرق ، أما أنا فإن أهبط بفنى الى مستوى المتاجرة ، سأظل على ما أنا عليه .. أعطى لحنا واحدا قويا فى العام وأصبه فى حنجرة صافية تحسن تأديته ثم آوى الى نفسى وأنا فى اطمئنان الى أننى أديت واجبى ، وليس أكره عندى من أن يمر الناس على لحن لى مرورا عابرا فلا يحسون به .. ان حياة الفنان ألم وتضحية يحترق فى بوتقة نفسه ليضىء نفوس السامعين .. » .

ويقول زكريا أيضا « ان الألحان المصرية والتونسية واللبنانية والعراقية وغيرها من الألحان العربية هى فروع لعائلة واحدة لا جدل ان بينها بعض الفوارق ولكن الفنان اليقظ يقدر بسرعة أن يلمس هذه القربى الشديدة بين الألحان .. ولهذه العائلة النغمية ، أنسباء وأقرباء فى الأقطار الشرقية المجاورة هى الألحان الفارسية والتركية وبعض البلدان البلقانية غير أن هناك ضابطا واحدا يجمعها كلها جميعا هو الوحدة الموسيقية التى يتوقف عليها ضبط الألحان وموازينها .. » .

وتنشر جريدة الجمهورية ، رأيا لزكريا أحمد فى الموسيقى ، جاء فيه :

« ان بعض الألحان عندنا شرقية ولكنها لا تؤدى الأداء الصحيح . انهم يقرأون الأغنيــة كالكمبيالات وأغلبهم يجهز الموسيقى ، ويكلف المؤلف بوضع كلمات لها « هل سمعت عن الغراب الذى أراد أن يقلد الطاووس فلا أصبح طاووسا ولا عاد غرابا ، كما كان ، حتى لقد نسى مشيته ! » ذلك المثل ينطبق على ملحنينا الذين لخبطوا الموسيقى الشرقية على الافرنجية .

ان موسيقانا أغنى من الموسيقى الغربية لأننا نمتلك النغمات الشرقية مثل السيكا والبياتى والصبا وفيهم ربع المقام غير الموجود فى موسيقاهم وأغلب العلماء الموسيقيين الذين قدموا الى القاهرة وسمعوا موسيقانا امتدحوها جدا ودهشوا للصوت المصرى كيف يؤدى هذا الربع مع عدم وجوده بموسيقاهم فى الوقت الذى يقدم فيه الملحنون الموسيقى الغربية لأغانينا المصرية ويبتعدون عن الربع الشرقى ليستعملوا الآلات الافرنجية بدلا من الآلات الشرقية مثل السيكا والبياتى والصبا وفيها ربع المقام غير الموجود .

من العار على كل موسيقى مصرى أن يقول ان موسيقانا محلية ، وعبد الوهاب له قطع موسيقية كثيرة تصلح لأن تكون موسيقى عالمية .. واللحن الشرقى الأصيل مهما مر عليه الزمن ممكن تداوله عالميا بدليل ان أغنية « زورونى فى السنة مرة » موزعة توزيعا عظيما ولحنها شرقى صميم وهى من ألحان المرحوم سيد درويش وعمر لحنها الذى يذاع اليوم ٤٠ عاما !

وسكت زكريا قليلا ثم قال :

« اننا لم ندرس الموسيقى فى الخارج وقليل منا الذى يحمل

شهادات موسيقية .. والذى درس الموسيقى الغربية بالخارج لا يستطيع أن يغنى عربى أو يلحن عربى صميم ، والدليل ان رابعة العدوية ، جميع ألحانها ليس بها لحن عربى كألحان سلامة وقد أرسلت لى الاذاعة كى انقذ الموقف واعيد تلحينها بسبب جهل الملحنين عن تصوير اللحن بالطابع الذى يتطلبه الموقف لأنهم وضعوا لحنا لواحدة عربية متصوفة هى رابعة يصلح لواحدة افرنجية اسمها زيزى فى جاردن سيتى !! » .

• • •

وتنشر « الأهرام » فى آخر أيامه حديثا يستغرق نصف صفحة اجراه معه جلال الجويلى ، يستفتحه بآخر أغنياته :

هو صحيح الهـوى غلاب	ما اعرفش انـــا
الهجـر قالوا مـرار وعذاب	واليـوم بسنـه
جانى الهوى من غير مواعيـد	وكلما دا حـلاوته تزيد
ما احسبش يوم ح ياخـد	نى بعيـد
منى قلبى بالأفـراح	وارجع وقلبى كله جـراح
ازاى يا تــرى	أهو ده اللى جـرى
شبكت قلبى بنظرة عـين	ما اعرفش منها اروح على فين

ثم يقول كاتب المقال :

بعد أيام ستغنى أم كلثوم للملايين من ألحان زكريا أحمد ، كتب الأغنية بيرم التونسى ، اسمها أغنية « المرارة والعذاب » ، ان اليوم فيها بسنة .. ان عمر زكريا أحمد ٦٥ سنة و ٤٢ يوما ،

ان كل يوم من عمر زكريا احمد هو أيضا سنة » ويقول زكريا في حديثه :

أنا اتربيت بالكرباج ، واعتقدت ان كل أولادى لازم يتربوا بالكرباج ، لكن ده غلط ، غيرت طريقى فى التربية ، سيب ابنك للزمن يربيه ، سيدنا على قال : « لا تكرهوا أولادكم على أخلاقكم فانهم مخلوقون لزمن غير زمنكم » الكلمة دى تساوى عندى مليون جنيه .

وتذكر الشيخ زكريا ابنه المرحوم يعقوب الذى انتحر ، وكتب يقول لوكيل النيابة : « انتحرت . لأن أبى مظلوم فى الحياة ! » وصمت شيخ الملحنين : صمت أحسن ملحن لنغمة « الصبا » الحزينة .

ان له فلسفة ..

انه يستقبل الأحزان بالرضا والصبر ، ودار الحوار :

● ● ●

= اللى يشتمنى زى اللى يدينى فلوس . لا الشتيمة لازقة ولا الفلوس قاعدة . كله ضايع !

= . . . . . .

— مثلت فى أول فيلم أنتجته مصر ، كان اسمه « أنشودة الفؤاد » قمت فيه بدور حرامى ، الفيلم مثلناه فى باريس . كانت أيام حلوة ، كان معايا جورج أبيض ونادرة وعبد الرحمن رشدى ، وكان عبد الرحمن أحسن ممثل فى الدنيا ، يقدر يعيط لما يطلب منه المخرج يعيط ، عرضت

عليه فرنسا ٥٠٠ جنيه فى الشهر وعقد خمس سنين عشان يمثل كل سنة فيلم ورفض .

= . . . . . .

— الأغنية بتاعة النهارده زى الوردة اللى من غير ريحة ، عندنا مؤلفين كويسين جدا ومؤلفين عاوزين يتحرقوا بنار ، بديع خيرى وبيرم التونسى أحسن مؤلفين .

= . . . . . .

— الأغنية القديمة ممتعة والجديدة كويسة لأن فيها صنعة .

= . . . . . .

— أنا لحنت لحد النهارده ٥٦ أوبريت و ١٠٧٠ أغنية منها ٤٥ أغنية لأم كلثوم ، والسنة دى اتفقت معاها على تلحين ٣ أغانى ، كل أغنية بسبعميت جنيه . أول أغنية انتهيت من تلحينها كتبها بيرم .

= . . . . . .

— أنا أحب جارى كوبر ، أحسن ممثل عندى يعرف يضرب كورس ، لكن أحسن فيلم شفته السنة دى هو « الملاك الأزرق » يا سلام على (الخواجة) كيرث جيرنس !

= . . . . . .

— أيوه أبويا بيغنى وأمى كمان ، أبويا كان يغنى بشكل عنيف ، اللى يسمعه شعر راسه يقف ! يغنى تراجيدى ، وأمى كانت تغنى دراما ، أسمعها اتأثر قوى . أقول لها

بتقولى ايه ؟ تقــولى اخرس ، أصــلها كانت زركية « قوقازسيت » من القوقاز ؟ ..

= ....

— كان الخلعى يسمينى الملقاط كل (لحن اسمه أحفظه) !

= ....

— أحسن كتاب قرأته فى حياتى كتاب أبو حيان التوحيدى ، وآخر كتاب هو البخلاء للجاحظ » .

●●●

وميزة أحاديث زكريا أحمد الصحفية ، وغير الصحفية ، انها ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، تستطيع قبل أن تقرأها ، أو تسمعها أن تعرف - اذا كنت من المتصلين بزكريا أحمد — ماذا سيقوله الرجل . ان آراءه فى الناس والأحداث والأعمال ، لا تتبدل ، ولا تتغير مهما مضت السنون وتعاقبت الأحداث . وبمقارنة بسيطة بين آخر حديث صحفى له ، ذلك الذى أشرنا اليه من قبل ، وبين آخر نشرته مجلة الراديو فى مارس ١٩٤٨ تجد أن أربعة عشر عاما مرت بين الحديثين ، لم تستطع أن تبدل أو تغير شيئا ما من آراء زكريا ومعتقداته فى الناس والأحداث والأعمال ..

قالت مجلة الراديو :

« الأستاذ زكريا أحمد من أئمة التلحين فى مصر ، له انتاج فنى رفيع ، وهو صاحب المدرســة القــديمة ، يمتاز بشخصية قوية واضحة المعالم . وأسلوب خاص فى التلحين . لحن لكبار المطربين والمطربات ، وكانت الحانه سببا فى شهرة الكثيرين منهم .

وهو من الفنانين القلائل الذين يعتزون بأنفسهم ويحافظون على كرامتهم رغم تواضعه الجم ، كريم الى أبعد حد ومحب للخير ، ومعروف بصراحته المتناهية فهو يقول للأعور أعور فى عينه ..

وليس الشيخ زكريا بحاجة الى مزيد من الشهرة وهو أول من عمل فى الميدان الفنى من ملحنى هذا الجيل ، كما أنه صاحب العبقرى النابغة سيد درويش فى جل حياته الفنية وفى أواخر أيام حياة الشيخ سلامة حجازى بدا زكريا أحمد يلحن الروايات المسرحية فضلا عن الأدوار والأغانى التى ملئت بها المئات من اسطوانات الجراموفون .

وقد لا يوجد مطرب واحد من القدماء أو المحدثين لم ينشد ألحان الأستاذ زكريا وقد لا يوجد مؤلف واحد من القدامى لم يلحن له زكريا ، ولا يوجد لون من ألوان الغناء لم يشترك فيه زكريا بنصيب واف وجهد جبار . ومن منا لم يردد « امتى الهوى يجى سوا » ، « اوعى تكلمنى بابا جاى وراى » ، « اللى حبك يا هناه » ، « الآهات » ، « الانتظار » ، « كل الأحبة اتنين اتنين » — الى آخر ما عالجته قريحة الفنان زكريا أحمد ..

وقد التقينا معه بمقهى البوسفور بميدان باب الحديد على مقربة من الدار التى يسكنها فى شارع الفجالة والتى يلازمها زكريا وهو فى أوج الشهرة والنجاح ، كما لازمها وهو فى أوائل حياته الفنية فان الوفاء احدى المزايا الكثيرة التى يتحلى بها ملحننا الكبير .

وفى ركن منعزل من أركان البوسفور — تحدثنا فى الفن وغيره من الشئون حديثا ذا شجون ، سألناه :

— قالوا ان الشروط الأساسية فى اللحن الفنى هى تصوير الجو والموضوع والطرب والجمال وتوفر أصول التلحين من نغمات وموازين وسلامة عدد الموازير التى يجب أن تكون — بالجوز — فى الموازير الكبيرة . وأربعات فى الموازير الصغيرة . فهل تتوافر هذه الشروط فى ألحان ملحنى هذا العصر الذين يعرفهم الجمهور ؟

= يؤسفنى أن أقرر لك ان ألحان اليوم لا تتوافر فيها هذه الشروط . لأن أغلب الملحنين يلحنون أغانيهم على الواحدة ، الصغيرة ، وهم يتهربون بذلك من الواحده الكبيرة ، ويرجع هذا اما لاهمالهم أو عدم درايتهم بهذه الأصول . ولا أكون مغاليا لو قلت اننى الوحيد الذى أراعى هذه الشروط . ولذا فانهم يتهموننى بالرجعية والتأخر . ولكن هذا لا يعنينى ما دمت أرضى ضميرى وأؤدى واجبى ولا أخرج عن قواعد العلم والفن الذى انتسب اليه .

— اذن ما هو اللحن الفنى فى نظرك ؟

= هو الذى تتوافر فيه الشروط التى وردت فى السؤال الأول .

— ما هو أحسن لحن لك ؟

— قد لا تصدق أن اللحن الذى اعتز به لم يلق من الرواج

والانتشار ما كنت أتوقعه له ، بينما يروج وينتشر لحن لم يقتض منى أى جهد . مثال ذلك اللحن — قولى لطيفك يثنى — من فيلم دنانير ، لقد لحنت هذا اللحن من ثلاث نغمات بياتى ، سيكاه ، صبا ، ولا يخفى عليك ما يتطلبه هذا العمل من مجهود مضن . ولكنه لم ينجح بالقدر الذى أصابه — بكره السفر — واذكر ان الأستاذ فكرى أباظه كتب عن هذا اللحن عامودا طويلا كله ثناء علىّ ولم يقل أحد عن اللحن الذى حرقت فيه قلبى كلمة واحدة !! وأحسب ان التاريخ سينصفه ويقول عنه كثيرا .

— من أحسن ملحن من الذين انتقلوا الى رحمة الله .

= سيد درويش .

— ومن أحسن مطرب منهم ؟

= محمد سالم العجوز والشيخ أبو العلا محمد .

— ما رأيك فى الاقتباس من الموسيقى الغربية ؟

= اننى ضد هذه الفكرة على طول الخط ، وخاصة فى الألحان الغنائية العادية ، أما الألحان المسرحية فلا بأس من ان ينوع الانسان فيها بشرط أن يحتفظ اللحن بالطابع الشرقى وهو ما أوصى به أعضاء مؤتمر الموسيقى الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٣٢ .

— وهل عالجت هذا النوع الأخير ؟

= لحنت الكثير منه فى روايات نجيب الريحانى

الفرانكواراب ، وبعض الاسكتشات للسيدة بديعة مصابنى ، كما لحنت من الفالس ألحانا شرقية صميمة مثل : « طال على البعد » لأحمد عبد القادر ، « ويا بشير الأنس غنى » ، وأخيرا أغنية الورد .

— ما السبب فى قلة انتاجك بالسينما ؟

= الواقع اننى لا اشترك فى كل عمل يطلب الى الاشتراك فيه ، وذلك لأننى لا اشترك فى أى عمل الا اذا أعجبنى شخصيا وكنت مرتاحا لأدائه ، وأذكر ان أحد الاستوديوهات الكبيرة طلب منى مرة أن ألحن بعض الأغانى لأحد الأفلام ، ولكنى عندما قابلت المدير المسئول وهو شخص ذو مركز محترم كبير ، لم أرتح الى مقابلته ، فلم أقبل التعاون معه ، ولما سألنى عن الأجر الذى أطلبه فى اللحن الواحد قلت له رقما خياليا لا اتصوره أنا شخصيا فاندهش ، وكان هذا هو ردى على مقابلته غير اللائقة وتخلصت منه بذوق وبصنعة لطافة .

— ولماذا تطلب أجرا مرتفعا دائما ؟

= لأننى صادق فى احساسى ، ولذلك أبذل مجهودا مضنيا فى كل لحن وقد لا تصدقنى ان قلت لك اننى ألحن الأغنية أكثر من مرتين وبعد أن أفرغ من تلحينها أنتقى أحسن هذه الألحان ، وقد لحنت لأم كلثوم أغنية « القطن » فى فيلم دنانير ، وحفظتها فعلا وسافرت الى

راس البر لكى تقضى الصيف هناك . ولكن خيل لى ان اللحن لا يعجبنى فاتصلت بها فى الحال وقلت لها انى اللحن الذى حفظتيه وسأقدم اليك لحنا آخر ، وقد كان ، وحفظتها اللحن الجديد » .

وسأله ذات مرة الاذاعى على فايق زغلول أحد عشر سؤالا ، أجاب عليها كلها زكريا ، وسجلت الأسئلة ، والاجابة فى برنامج اخترت لكم ، وكانت الأسئلة والأجوبة على هذا النحو :

— ليه سموك الشيخ زكريا ؟

= علشان أعيش ، لأن أبويا خلف ٢٠ بنت ولا فيش فيهم ولا ولد يوحد الله سبحانه وتعالى .

— متى بدأت تحترف التلحين ؟

= سنة ١٩١٧ .

— مين من المطربين غنى أول ألحانك ؟

= صالح عبد الحى ، وعبد اللطيف البنا ، منيرة المهدية ، نعيمة المصرية ، وفتحية أحمد .

— تفتكر اى لحن من الحانك ، لفت أسماع الناس اليك ؟

= هو أول لحن عملته « ارخى الستارة » ليونس القاضى .

— ما هو شعورك وانت تسمع الحانك ؟

= أدعو الله دائما أن يوفق المغنى ، ليؤديه ، كما لحنته .

— مافيش لحن بعد ما قدمته للناس أدخلت عليه تعديلات ؟

= مافيش لحن بعد ما قدمته ، اذا حصل يكون أثناء البروفات فقط .

— تفتكر ان الفضل فى نجاح الأغنية للمؤلف ولا للملحن ولا للمطرب ؟

= للثلاثة معا ، ولكن مهمة الملحن أشقهم عناء .

— ظهرت فى أفلام أو على مسارح .. متى ؟ وما ذكرياتك ؟

= فى فيلم أنشودة الفؤاد ظهرت فى ثلاث شخصيات ، عربى بعقال ، وكاتب محلج قطن ، وعاشق صبابة . وفى فيلم ليلى بنت الفقراء قرأت مولد فى منظر « مولد السيدة زينب » سنة ١٩٤٧ ، وفى فيلم سلامة — دوبلاج لأغنية « قوللى ولا تخبيش يا زين » ..

— كانت ايه الظروف التى تعرفت فيها بالسيدة أم كلثوم ؟

= كنت سهران شهر رمضان بالسنبلاوين .

— أول مرة سمعتها كنت تعتقد انها ستحتل المكانة دى فى عالم الغناء ؟

= طبعا لأن صوتها من أحسن الأصوات .

— ألحانك التى عملتها فى فترات مختلفة من العمر ، متباعدة أو متقاربة ضرورى سماعك لا يخليك تعيش فى الجو اللى عملتها فيه . يا ترى ايه هى الأغنية أو الأغانى اللى لما بتسمعها تثير فى نفسك ذكريات جميلة ؟

= كل الألحان اللى فيه مثل الاستغاثات التى عملتها للمرحوم الشيخ على محمود ، وكل الكلام اللى يحث على الفضيلة مثل « خللى السيف يجول » و « يا صلاة الزين » .

● ● ●

فاذا انتقلنا بعد ذلك كله الى الحديث عن زكريا أحمد المحدث الساحر ، وجدنا أننا بحاجة ماسة الى كتاب جديد ، لا يقل حجمه بأية حال من الأحوال -- ان لم يزد — عن حجم هذا الكتاب .. ان موهبة زكريا فى الحديث موهبة نادرة ، وان له القدرة على الاستمرار فى الحديث ساعات وساعات ، دون أن يمل هو : أو دون أن يمل سامعه ، وأصدقاؤه يروون عنه ، فى هذا المجال ، أحاديث تشبه الأساطير ، يلقاك فى الشارع ، فيسلم عليك مسرعا قائلا انه يأسف لأن الحديث لن يستغرق دقيقة أو دقيقتين لأنه على موعد هام مع احدى الشخصيات ويستمر زكريا وهو على قارعة الطريق يتحدث ويتحدث ساعة ، وأكثر من ساعة وأنت غارق الى أذنيك فى الحديث ، وهو نفسه غارق فى الحديث . وقد تنقضى ثلاث ساعات هكذا فى الطريق ، يمر بكما بعض الأصدقاء ، الذاهب الى الطبيب يعود ، والذاهب الى السينما يخرج من السينما ، والذى توجه ليلقى محاضرة قد ألقى المحاضرة وأنهى التعقيب على أسئلة الجمهور و .. و .. و .. وزكريا يتحدث ، وأنت تستمع .. وقد يروى لك أشياء كثيرة تسمعها للمرة الأولى أو تسمعها للمرة العشرين مع اختلاف فى طريقة الرواية وتغيير فى بعض الألفاظ ، ولكنك تجد نفسك مشدودا بقوة الى هذه الأحاديث ، وكأنك تستمع الى أغنية جديدة حلوة وجذابة ، فاذا ما أصاب زكريا التعب وتوقف عن الكلام — وهو لا يتوقف عن الكلام الا عندما يتعب — أحسست بأنك قد استيقظت فعلا من حلم ساحر ، خلاب .

سمعته ذات مرة يروى قصة صديق له سافر الى قنا فلم يجد مكانا فى الفندق الذى تعود النزول فيه ، فاضطر الى النزول فى آخر ، من فنادق الدرجة الثالثة والأخيرة ، وفى حجرة شاركه فيها احد تجار المواشى وحتى الفجر ، لم يكن صاحب الشيخ — واسمه عصاعيصو — قد طرق النوم جفنه ، الى أن استيقظ التاجر ، وراح يعبث بأمتعة عصاعيصو وأعجبه منها معجون الأسنان ، فاستخدمه أكثر من مرة ، وراح يتطلع الى المرآة ، ليرى آثار المعجون فى نيض أسنانه ، كل ذلك ظنا منه ان رفيقه فى الحجرة مستغرق فى النوم . وجاءت النكتة طائعة مختارة لعصاعيصو فقام من سريره وطلب من زميله فى الحجرة أن يناوله أنبوبة أشار اليها دون أن يذكر له اسمها . وقال له جاره متباهيا بمعلوماته الوفيرة : « قصدك أنبوبة معجون الأسنان ؟ » فقال عصاعيصو : لا يا عمدة دى مش للأسنان دى دواء للبواسير .. وأغمى على التاجر بضع دقائق أفاق بعدها ليجرى نحو الخارج باحثا عن طبيب وخلا الجو لعصاعيصو فنام نوما هنيئا بعد أن تخلص من شريكه فى الحجرة .. وخلال سماعى القصة للمرة الثانية بدأت أتضايق ولكننى لاحظت أنه يغير ويبدل من وقائع القصة ، وأنه يضيف اليها قصصا جديدة مشوقة لم أسمعها من قبل . وسمعتها مرة ثالثة ورابعة وخامسة ، وعاشرة خلال ثلاث سنوات ، وفى كل مرة كنت أجد نفسى مشدودا الى هذه القصة ، وكأننى أسمعها للمرة الأولى . وقد قال لى واحد من أهل الهوى — من خاصة زكريا — انه سمع هذه القصة من زكريا أكثر من مائة مرة .

ولم يمل الاستماع اليها دقيقة واحدة ؛ بل على العكس ، كان يحاول أن يتتبع الجديد فى القصة ، وقدرة زكريا فى الافلات من مداعبات الأصدقاء عندما يقول أحدهم قديمة يا سيدنا الشيخ . وكيف كان زكريا يعمد الى الابتكار فى خلق أحداث جديدة وفى ادخال عشرات من القصص الجديدة والقديمة داخل القصة الأصلية ، بحيث تشعر انك فعلا فى جو خيالى ، خلقه وأبدع فى خلقه زكريا أحمد ..

وقصص زكريا ورواياته وشعره وفكاهاته ، وأحاديثه الدينية أشبه بالفواكه المختلفة يقدم لك دواما الألوان التى تعجبك والتى لا تعجبك ، ولكنه لن يتركك أبدا بدون شىء يعجبك ويسيطر عليك .. وهو شديد الاعجاب بظرف محمد البابلى وكثيرا ما كان يروى فى مجالسه ما يحفظه من فكاهاته ونوادره : سمع مغنيا يغنى دور « أهل السماح والملاح دون فين راضيهم » : فصاح قائلا : « مرهونة فى البنك العقارى » وقال أحد محدثيه وكان معروفا بكثرة الاستدانة والمماطلة : القطب الشمالى فيه ٦ أشهر نهار وستة أشهر ليل . فقال له :

— احسن لك تسكن هناك عشان لما حد يجى يطالبك تقول له تعالى بكره .

= كان له صديق أحيل الى المعاش فاكثر التردد عليه ليعاونه حتى ضايقه ، فقال له :

— يا أخى هما حالوك على المعاش و لاحالوك علىّ انا ؟

= دخل مجلسه أحد الثقلاء وأراد الجلوس والباب مفتوح فقال له :

— قبل ما تقعد اقفل لنا الباب بس من بره من فضلك .

= رأى معه صديق طماع عصا عليها الحرفان الأولان من اسمه « م . ب » فأخذ يمدحها طامعا فى أن يهديها اليه ، فقال له لو كانت لى لأهديتها اليك ، فقال الصديق الطماع : أمال الحرفين دول معناهم ايه ؟

— فقال له : معناهم انها « مش بتاعتى » .

= رأى فتاة جميلة تصعد سلم المحطة وهو يصعده مع صديق ليلحقا القطار ، فوقف ينظر اليها ، ولما استعجله صديقه رد قائلا :

— مش قادر .. روحى طالعة !

= ذهب ليعزى فى الريف وجلس على حصيرة ، فلما تعب قال لمن حوله :

— هو المرحوم فاتهم ع الحصيرة ؟

= سار فى جنازة مسافة طويلة فتعب جدا، ثم سأله أحدهم : اتو دفنتم المرحوم فين ؟ فقال له ، فى الآخرة !

وتسمعه مرة يقول :

— فريد عصره المرحوم الشيخ أمين حسنين المطرب و (الصييت) المعروف كان الله يرحمه جميل الوجه والصوت .. وكان جسمه فارعا متين التركيب .. وحصل أنه دعى ذات ليلة الى احياء ليلة زفاف ابن حاج فى حى الأزهر .. وكان بين الحاج

صاحب الفرح وأحد (فتوات) الحى ضغائن قديمة .. وأقسم (الفتوة) على (تبويظ) الليلة .. ودخل الشيخ أمين حسنين وتربع على (الدكة) الخضراء العالية وبدا وصلته .. وهنا اقتحم (الفتوة) وأصحابه الحفل .. وصاح مستهزئا :

— الله الله .. اطربنا يا مغنى المياتم .. !!

.. والجم صاحب الفرح .. وانتظر الجميع بدء المأساة .. وفجأة انتفض الشيخ أمين حسنين من فوق الدكة .. وامسك بها بيد واحدة وطوح بها فى الهواء .. واتجه نحو (الفتوة) وأصحابه وبدأ (يدعك) فيهم .. وبدأوا يهربون وهو يتتبعهم . وعاد الشيخ أمين كأنه لم يفعل شيئا .. فوقف الحاج صاحب الفرح يهلل ويصفق قائلا :

— صلاة النبى .. صلاة النبى .. شبيع .. وسبع .. !

وكثيرا ما كان يقرأ مجلدات حمارة منيتى ، والسيف والمسامير ، وغيرها من المجلات الفكاهية ، وينقل منها بعض ما يعجبه لينقله الى أصدقائه ومعارفه ، وكثيرا ما كان يهوى الألغاز والأشياء الغامضة ، والوصفات البلدية ، سألنى مرة هل تعرف سورة الفدان ؟ قلت : لا : لقد حفظت القرآن فى الحادية عشرة من عمرى ولم تمر علىّ سورة اسمها الفدان . فضحك حتى اغرورقت عيناه من الضحك ، وقال : لا دى سورة ثانية اللى ما يعرفهاش يبقى جاهل فى الحساب ، وقلت له بالعكس ، لقد كنت ممتازا فى الحساب ، بخلاف الجبر والهندسة ، ولم تمر علىّ سورة الفدان ، وأخرج لى ورقة طويلة عريضة ، كتب عليها

ســورة الفدان . وفيها كلام كثير من مساحة الفدان والربع ، ونصف الربع . والثمن ، وثلاثة أرباع السدس ، والدانق ، وغيره وغيره ، وراح يشرح لى وكأنه يشرح عملية عسكرية هامة .

ومن الأوراق التى وجدتها ضمن أوراقه الهامة « لغز وحله » :

= رجل معه ١٠٠ جنيه يريد شراء مائة بقرة من ثلاثة أثمار مختلفة : سعر البقرة الصغيرة جنيهان ، وسعر البقرة المتوسطة ٥ جنيهات والعجوزة عشرة قروش ، فكم بقرة يشتريها من كل صنف ؟

الحل : ١٩ صغيرة و ١١ متوسطة و ٧٠ كبيرة (٣٨ + ٥٥ + ٧ = ١٠٠ جنيه .

ومن أغانى الألغاز التى كان يحفظها عن ظهر قلب ويرددها فى بعض الأحيان هذا الموال :

« والله زمان يا قلبى أحبابك عليك سالم
ولما سألم سلم جم سالم سالم
وده مثل سمعناه من اللى قبلنا قالم
شرط الفتى الحر ، لا قلنا ولا قالم » .

أما الوصفات البلدية ، ففى مذكراته ، ويومياته ، وفى أوراقه التى يحملها نجد وصفات كثيرة وهو حريص على أن يرسل هذه الوصفات الى أصدقائه ، وحريص على أن يتتبع نتائجها فى المرضى الذين عولجوا بها ، فمن وصفة طويلة عريضة تتكون من خشب الكينا ، والجنزبيل ، والحلب ، وحب الرشاد ، وجوز الطيب ، وحبة البركة ، والخشب المر ، والحلبة الناشفة ، والشيح

الخراسانى والصبر واللبان الدكر ، والمسكة وكربونات الصودا ، وهى دواء لمرض السكر .

ووصفة أخرى قيلت لتقوية الجسم : من الفلفل الأبيض وبذر أبو النوم ، وبذر الفجل ، وعرق الذهب والحبهان والجنزبيل ، والعسل الأبيض .

أما الثالثة ، فهى لحصوة الكلى من بذور الفجل والكرفس والجزر ، والخلة والبقدونس .

وكثيرا ما كان يحلو لزكريا أن يعرض الفوازير وأمثالها على أصحابه ، فان عجزوا عن حلها تولى هو الشرح بنفسه ، وكثيرا ما كان يلقى هذه الفوازير على أولاده ويطلب منهم حلها باعتبار أن هذه الفوازير تنشط العقل وتهيىء للانسان فرص التفكير المنظم السليم ، أما الوصفات البلدية فقد كان مؤمنا بها . وكانت السعادة تملأ قلبه عندما كان يسمع أن أحد أصدقائه المرضى قد شفى من مرضه بعد أن جرب احدى هذه الوصفات التى شرحها له .

• • •

وفى حياة زكريا أحمد قصص كثيرة تلقى أضواء على شخصيته الطيبة الصافية المنطلقة التى لا تعرف حقدا ، ولا مكرا ، ولا تعقيدا ..

جلس ذات مرة مع بعض أصدقائه فى جروبى وطلب الشيخ فنجانا من القهوة ، وقبل أن يرشف من الفنجان رشفة واحدة قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، فنظر اليه أحد الأصدقاء -- وكان

من أولئك الذين اغتنوا بعد فقر ، وركبوا العربات المجنحة ، بعد السير بلا حذاء — مستنكرا وقال له : انت برضه لسه فقى يا شيخ زكريا .. وغضب زكريا وقال له محتدا : يعنى علشان ربنا ما سهلهالك كتير حتنسى اللى خلقك ، وتربع زكريا على الكرسى وبدأ يقرأ القرآن فى جروبى بصوت مرتفع جدا ، ليثبت لصاحبه انه « لسه فقى بحق وحقيق » .. وهرب صاحبه وتجمع الناس حول زكريا يسألونه ماذا حدث فروى لهم القصة .. وقضى وبقية الشلة ست ساعات فى جروبى ، كلما دخل على الشلة صديق جديد راح زكريا يروى القصة من زاوية جديدة .

وسافر زكريا ذات مرة هو واهل الهوى من اصدقائه الى بلدة ميت دمسيس دقهلية ، لحضور مولد مارى جرجس . وكان حسن لاشين أحد أفراد الشلة ، قد قال لهم ان بلدته لركة كعب من ميت دمسيس ، وأظلم عليهم الليل ، ورفض زكريا فكرة الذهاب الى منزل أحد الأصدقاء فى ميت دمسيس ، لأنه لا يليق أن نضايق الناس فى مثل هذه الظروف ، وعقابا لحسن لاشين الذى ضحك عليهم حيث ظهر ان بلدته تبعد عن ميت دمسيس ٤٠ كيلو مترا وليس لركة كعب ، طلب منه زكريا أن يجلس على الأرض متربعا ونام هو على رجله حتى الصباح .. وبدأ أهل الهوى يسيرون على أرجلهم مدة قال عنها زكريا انها سنة ، الى أن مرت بهم سيارة فأوقفوها وركبوا فيها جميعا عدا حسن لاشين الذى كانت العقوبة مفروضة عليه حتى هذه اللحظة . وبعد أن سارت السيارة مسافة بدون حسن لاشين، تأكدوا من ضرورة وجود حسن لكى يدلهم على

بلده ، فانتظروا الى أن اجتمع الشمل وساروا الى البلدة وقضوا هناك سبعة أيام بلياليهن يأكلون ويشربون ويغنون ، فلما حاولوا العودة الى القاهرة وجدوا أن ملابسهم قد ضاقت عليهم لما حملته أجسامهم من زيادات وقال زكريا ضاحكا : « بعد ساعتين تفتكر في الدنيا وبلاويها حنخس النص .. » !

وكان من عادة زكريا أن يتمشى في أغلب الأحيان مع صديقه حسن لاشين عند كبابجي في شارع خيرت ، حيث تعود كلب هزيل الجسم ، كبير السن أن يأتي المحل ، عندما يجيء زكريا ، فكان زكريا يشترى لهذا الكلب ، رغيفاً ونصف رطل من الكباب ويقدمه اليه كل مرة ، بينما كان يطلب لنفسه ، ولصديقه نصف رطل ، وذات مرة رفض صاحب المحل أن يأخذ مليما واحدا قائلا لزكريا : « الكلب ده ابن حتتنا وواجب عليّ أن أوكله » ورفض زكريا وطلب منه أن يؤكله ، عندما لا يجيء هو ، أما عندما يحضر الى المحل فلابد أن يتمشى على حسابه . وعندما كان حسن لاشين يقول : « يا هوه داتا اللى بنى آدم وعاشرته ما يقرب من نصفقرن مايوكليش قد الكلب » وكان زكريا يقول له جادا : « عشان ياسى حسن انت لك لسان تتكلم به ، وتقول أنت عاوز ايه ، انما ده كلب مالوش لسان ، وخلاص كبر وعجز وزمان الكلاب الصغيرين مش سايبين له حاجة » .

وقص عليّ أولاد زكريا أحمد ، ان والدهم كثيرا ما كان يذهب الى حديقة الحيوان للعمل هناك . ويصطحبهم معه جميعا . وما من مرة ذهب الىحديقة الحيوان الا وكانمعه أكثر من «دستين

أو ثلاث دست جانوه » ، لا ليأكلها أولاده فى الحديقة ، بل ليوزعها على القردة ، والأسماك ، وغيرها وغيرها من نزلاء الحديقة وكان زكريا يحس بسعادة وغبطة . وهو يرى هذه الحيوانات تاكل الحلوى . لقد كان يحس بحاسة غريبة نحو الحيوان ، وكانت الليلة التي يرى في بدايتها منظرا مؤلما لقطة ضالة ، أو كلبا جريحا لا يمكن أن تمر دون أن «ينكد» على نفسه ، وعلى الأصدقاء بالرغم مما يبذله من مجهود لتهيئة المكان المريح ، لهذه القطة الضالة أو ذلك الكلب الجريح ، وما من مرة بلغت فيها ثورة زكريا أحمد مداها ، الا عندما يجد أحدا يهين حيوانا أو يضربه أو يقسو عليه ، أو يطرده من المنزل . ولهذا كان يشجع أولاده دواما على تربية الحيوانات . والعناية بها واطعامها مما تأكل الأسرة منه فى وقت واحد . وعندما مات الكلب « لكى » وكان أثيرا عند الأسرة ، وكان قسم من الأسرة يقيم فى الاسكندرية والقسم الآخر يقيم فى القاهرة تبادل الجميع برقيات التعازى .. وأصدقاء زكريا يعرفون أسهل الطرق للوصول الى قلبه ، فبكلمة صغيرة ، ينفتح هذا القلب — اذا كان الاحساس الداخلى يؤيده — ويأخذ منه القادم الجديد كل ما يريد وأكثر مما يريد ، وعندما ينفتح قلب زكريا أحمد لانسان على مصراعيه فانه لن يغلق أبدا ، كتب الى الأستاذ عبد السلام شهاب صديق زكريا قصة لقائه بزكريا أحمد عام ١٩٢٣ : وكيف التقى به لأول مرة .. فى جو شعبى فنى جميل ، لم يستطع زكريا أحمد ، فى سهرة واحدة ، أن يأسر قلب الفتى الشيخ عبد السلام فحسب ، وانما استطاع ان يأسر كل من

كان فى السهرة ، بل كل انسان استطاع صوت الشيخ كصيت ومطرب — أن يصل اليه .. وكذلك كان زكريا دائما . له قدرة عجيبة على أن يأسر الناس ببساطته ، وطيبته وشعبيته ، وحبه الزائد للناس جميعا : قال عبد السلام شهاب :

« لم يكن قد مضى غير أشهر معدودة على وفاة الفنان المصرى الأكبر سيد درويش فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٣ ، وقد رأيته للمرة الأولى والأخيرة قبل ذلك بحوالى عام . وفى طنطا أيضا ، حيث كان يستمع لبعض أدواره الغنائية الخالدة ، فى صالة الغناء الوحيدة بالمدينة حينذاك . وكانت تعرف باسم « تخت حليم » .

ان ألحان سيد درويش ، كان الكثير منها على أفواه الشعب فى مختلف أنحاء البلاد ، منذ انتقاله من الاسكندرية للقاهرة ، قبل ذلك بسنوات .

ولكن أدواره الغنائية بالذات . لم يكن يستطيع أداءها غير قلة من الفنانين وكانت نجمة الغناء الأولى فى تخت حليم واسمها سيدة بهجت — قد تخصصت فى تلك الأدوار ، وصارت أقدر من يؤديها .. بشهادة ملحنها العبقرى العظيم . ومن أجل ذلك كان يحرص على انتهاز كل فرصة تسنح له لزيارة طنطا ، ليستمع لأدواره من تلك الفنانة القديرة المتواضعة ، وليلقنها مزيدا من ألحانه وتوجيهاته الفنية .

ومن أجل ذلك أيضا ، كانت المكانة الكبرى التى تحتلها فى نفوس رواد الصالة تلك الفنانة النحيلة السمراء ، التى لم تمنحها الأقدار نصيبا ملحوظا من بهاء الطلعة أو جمال القوام ، لكنها ..

عوضتها خيرا من ذلك ، صوتا رخيما حنونا ، حلو النبرات ، ساحر الرنين . وبراعة نادرة فى حسن الأداء ، وفى قوة التعبير والتأثير .

وكنت من رواد الصالة كل ليلة تقريبا ، رغم ان هذا كان يعد بالنسبة لأمثالى من رابع المستحيلات ، ولا مجال هنا لتفصيل الأسباب ، ويكفى أن أذكر بعد الاشارة الى هوايتى الشديدة للأدب والفن ، ان تلك الفنانة المتخصصة فى ألحان سيد درويش ، كانت تعيش فى كنف قريب لى ، هو الخفير الرسمى المكلف بحراسة الصالة . ومن هنا كان لى أن أدخل الصالة كما شئت ، فاسمع حتى أشبع من تلك الألحان ، واشرب القهوة والشاى ، وربما شربتهما معا وفوقهما ما تيسر من السجاير .. كل ذلك اكراما لخاطر قريبى الخفير الخطير ، ودون دفع أى مليم !

على أن صلتى بالفنانة سيدة بهجت لم تنقطع ، حتى بعد أن انقطعت كل صلة بينها وبين ملاكها الحارس المذكور ، منذ أن قبض عليه ضمن عصابة لقتل النسوة المنحرفات والاستيلاء على ما يحملن من جواهر ومصوغات ، وكان نصيبه الاعدام شنقا مع ثلاثة أو أربعة آخرين !

كان الاعجاب المشترك بألحان سيد درويش قد ربط تلميذته النجيبة بمجموعة من « السميعة » الدائمين ، بعضهم من المغنيين الهواة والمحترفين .. وبقيتهم خليط من التجار والموظفين والأعيان ، ومن الطلبة والعمال ، ومع توالى الأيام أصبحنا نحن أفراد هذه المجموعة بمثابة أسرة واحدة ، ولم نعد نكتفى باجتماعنا فى الصالة

لسماع مطربتنا المفضلة ، بل كثيرا ما نجتمع فى مسكنها ، او فى حفلات يقيمها القادرون منا للسمر ، والاستمتاع بسماع المزيد من ألحان سيد درويش .

وعلى قدر اغتباطى وسعادتى بازدياد ما كنت أسمعه من تلك الألحان . وعن شخصية صاحبها العبقرى الذى ودع الحياة فجأة وهو فى قمة مجده الفنى وريعان الشباب .. كان الأسى والأسف يملآن نفسى ، لأنى لم أظفر بسماع ألحانه الا فى « الاسطوانات » ، بل اننى فى المرة الواحدة التى رأيته فيها بالصالة ، لم أعرف انه سيد درويش الا بعد أن انصرف بعد ساعة ، ليواصل سفره عائدا للقاهرة بالقطار .

ثم كان الحدث الفنى التاريخى الذى كان له أكبر الأثر فى حياتى كلها بعد تلك الحين :

كان أحد المطربين الهواة من « شلة السبعة » قد أعد حفلة خاصة فى منزله لاحدى المناسبات ، وتم فيما بيننا على أن نلتقى جميعا عنده حوالى الساعة الحادية عشرة مساء ، عقب انتهاء سيدة بهجت من عملها فى الصالة ، لنواصل سماعها الى ما شاء الله .

وآثر أكثر أفراد الشلة ألا يذهبوا الى الصالة فى تلك الليلة ، وذهبوا رأسا الى منزل المطرب الصديق منذ العشاء .

وكنت أحد هؤلاء .. ولكننى ما كدت أمضى معهم ساعة أو نحوها ، حتى تركتهم وذهبت الى الصالة ، يدفعنى شعور غريب ، لم أتبين كنهه تماما ، لكنه كان من القوة والسيطرة على نفسى بحيث أنسانى أن أستأذن فى الانصراف .

ودخلت الصالة وسيدة بهجت تغنى آخر مقطع فى دور « أنا عشقت » لسيد درويش . واكتفيت بالوقوف فى آخر الصالة ريثما تنتهى الدقائق القليلة الباقية .

ولكن وقفتى طالت كثيرا عما قدرت ، ورأيتنى مضطرا الى الجلوس وأنا أرجو فى قرارة نفسى أن تستمر سيدة بهجت فى الغناء الى ما لا نهاية . ولا شك ان الحاضرين جميعا كانوا يشاركوننى فى ذلك ، فقد تجلى هذا فى استماعهم ذاهلين مشدوهين لما كانت تردده من حركات الدور ، فى افتنان عجيب ، وبراعة بلغت حد الاعجاز !

ومضت ساعة أو أكثر ، نسيت خلالها نفسى ، ونسيت الصديق المطرب وحفلته والزملاء المنتظرين فى منزله . حتى اذا انتهى الدور ، وسكتت ضجة التصفيق وهتافات التقدير والاستحسان ، تبينت والدهشة تغمرنى ان أكثر الزملاء الذين تركتهم فى منزل المطرب الصديق ، قد توافدوا الى الصالة لاحقين بى : وكان كل منهم قد حضر ليتعجل حضور المطربة وبقية أفراد الشلة الى الحفلة التى تنتظرهم .. ولكن ابداعها غير العادى فى الغناء سحرهم كما سحرنى ، فظلوا يستمعون لغنائها حتى أنمته ، ناسين كل شىء سواه !

وكانت مفاجأة لنا جميعا ، حينما أسرعت سيدة بهجت فور انتهائها من الدور فغادرت مكانها على المنصة وسط أفراد الفرقة الموسيقية . واتجهت مهرولة الى شخص غريب لم نره فى الصالة

قبل تلك الليلة ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه ، وراحا يتبادلان العناق والقبلات على مرأى ومسمع من جميع الحاضرين .

ولم تطل دهشتنا ، فقد دعتنا السيدة عقب ذلك ، وقدمت لنا ذلك الشخص الغريب قائلة :

— تعالوا وحيوا معى أكبر ملحن فى مصر .. الشيخ زكريا أحمد !

ولم نكن نجهل اسم زكريا أحمد ، فقد كانت له ألحان مشهورة ، يرددها كثير من المطربين والمطربات ، وتظفر بالتقدير والاعجاب من جميع المستمعين .

ولكن الصورة التى انطبعت له فى أذهاننا حتى ذلك الحين كانت تقف بعبقريته فى دائرة محدودة لا تتعدى تلحين القصائد والموشحات الدينية ، التى اختص بها زميله القديم الشيخ على محمود . وعنه تناقلها كثير من المنشدين المشهورين .. وكان أشهر تلك الموشحات هى الموشحة التى مطلعها « مولاى كتبت رحمة الناس عليك » . والتى كانت بعد ذلك أول لحن اشتهرت باذاعته مطربة الشرق أم كلثوم فى بداية عهدها بالغناء .

كذلك كان المطرب الأول فى ذلك الحين عبد اللطيف البنا يردد من تلحين زكريا أحمد أغنيات عدة خفيفة من نوع « الطقاطيق » وقد راجت رواجا عظيما بين الجماهير مثل :

— ارخى الستارة اللى فى ريحنا .

— حزر فزر راح أقول لك ايه ؟

— كله الا كده لا بس ارجع .

— يا حليله يا حليله أهو وحده جالى الليلة .
— ودا كان لى فين ياناس مخبى ! ؟
ولكن هذه الطقاطيق التى لحنها زكريا أول ما لحن ، كانت ألحانها تضيع فى الهواء ، ولا يستسيغها أمثالنا من « السميعة » . بسبب ما كان يغلب على أدائها من طابع الميوعة والطراوة واللين .
وأيا ما كان الأمر ، فقد انضممنا جميعا الى مطربتنا المفضلة فى الترحيب بالملحن القاهرى الضيف . ورحب هو فى ظرف وبساطة بمصاحبتنا الى الحفلة التى تنتظرنا ، وبسببه تأخرنا عن موعدنا مع صاحبها .
وكان الوقت قد جاوز منتصف الليل بساعتين حينما وصلنا ، ولم ينتظر زكريا حتى تقدمه للمطرب صاحب الحفلة ، بل سارع هو نفسه الى القيام بهذه المهمة فى بساطة محببة ، واعتذارات لطيفة مقبولة ، ثم اقترح حتى لا يضيع وقت آخر أن تسمعنا سيدة بهجت نفس دور « أنا عشقت » الذى غنته فى الصالة .
وتجلت بساطته أكثر حينما اتخذ مجلسه الى جانب المطربة وأمسك عودا آخر كان فى يد المطرب صاحب الحفلة ، ثم أصلحه فى سرعة ملحوظة حتى انسجم مع بقية الآلات ، وأعطى فور ذلك اشارة البدء ، متوليا قيادة التخت فى براعة وأستاذية زادهما التواضع وعدم التكلف سيطرة على الأسماع والقلوب .
وكانت المفاجأة الأولى فى الحفلة ، حينما أخذ زكريا يؤدى مذاهب الدور مع المجموعة ، فاذا صوته الأجش العريض العميق ، يتخذ لنفسه مكانة بارزة خاصة بين مختلف الأصوات التى

تصاحبه ، واذا به يؤدى النغمات المختلفة فى الدور فى دقة بالغة وتمكن بلغ منتهاه ..

ولم تتمالك الفنانة الحساسة سيدة بهجت نفسها من شدة التأثر ، فأطلقت لدموعها العنان ، وكلما أبدع زكريا فى حركة صعبة من حركات الدور ، نهضت من مجلسها ومالت عليه تقبله وتدعو له بطول العمر والعافية . مؤكدة ان أحدا غير سيد درويش نفسه لا يمكن أن يؤدى هذه الحركات بمثل هذا الاتقان والابداع !

وكانت المفاجأة الثانية فى الحفلة ، بعد أن انتهى زكريا من أدائه العجيب لدور سيد درويش ، انه أخذ يسمعنا بعض ألحانه الفكهة ، مقلدا فيها مشاهير المنشدين والمطربين والمطربات ، فاذا بالمنزل كله يضج بالضحكات والتصفيق والاعجاب بما أوتيه زكريا احمد من مقدرة فائقة على التمثيل ، والتقليد والمحاكاة !

ثم كانت المفاجأة الثالثة والأخيرة ، حينما انتقل صاحبنا من تلك الألحان الفكهة ، الى أسماعنا مقتطفات من ألحانه التى يغنيها الشيخ على محمود وعبد اللطيف البنا ونعيمة المصرية وصالح عبد الحى وغيرهم من المطربين والمطربات .

لقد كان سماعنا لهذه المقتطفات من ألحان زكريا أحمد ، يؤديها بنفسه ، كفيلا بتغيير رأينا فيها من النقيض الى النقيض . وتبين لنا بوضوح أن هذه الألحان من القوة والجمال الفنى والتجديد السليم فى الموسيقى العربية بحيث تقف جنبا الى جنب مع ألحان الشيخ سيد درويش .

واستمدت السهرة الى قرب ظهر اليوم التالى ، ثم سافر الشيخ زكريا عائدا للقاهرة ، تاركا فى طنطا جمهورا يزداد عدده يوما بعد يوم بما ينتجه من الحان .

وفى السنوات الثلاث التاليات ، كانت طنطا كلها تغنى مع أفراد شلتنا ألحان زكريا أحمد : أبوها راضى وانا راضى — اوعى تكلمنى — اللى يعشق يوم ، يا سباتيك خالص يا معندم — لـه بره والأدان قرب يدن .. الخ .

وفى سنة ١٩٢٦ انتقلت الى القاهرة لاتمام الدراسة ، ولم يسعدني الحظ بلقاء زكريا منذ لقائنا الأول فى طنطا الا سنة ١٩٢٧ .

ومنذ ذلك الحين ، أصبحنا صديقين متلازمين . وصرنا نلتقى كل يوم تقريبا .

وكان لزكريا أصدقاء خلصاء فى كل بلد فى مصر . وقد عرفتهم منه وصادقتهم مثله . وكثيرا ما اصطحبنى لزيارتهم أو اصطحبهم لزيارتى .

وهكذا قدر لى أن أحضر مولد أكثر الألحان التى ابدعها منذ ذلك الحين الى أن اختاره الله الى جواره » .

• • •

وبمثل هذه الطريقة البسيطة تعرف زكريا أحمد ، الى بقية الشلة من أهل الفن ، الذين ظلت صداقتهم عشرات السنين : لا تشوبها أية شائبة من خلاف أو شبه خلاف . يلتقون ، ومحور اللقاء زكريا ويفترقون لساعات ، على أن يكون اللقاء فيما بعد

عند زكريا وظلت هذه الشلة هي المجتمع الصغير الذى يعيش فيه زكريا أحمد معظم أوقاته .. لم يحاول — ولو مرة واحدة — أن يتقرب الى صاحب سلطان أو جاه مهما يكن صاحب هذا الجاه أو السلطان يتحكم في مصير لقمة العيش ، كان يعلم أن الاذاعة والتليفزيون فيما بعد قد أصبحا بالنسبة للفنان كل شيء في مجال نشاطه ولكن زكريا كان يهرب منهما . ويبتعد دواما عن الأجواء الخاصة التي يعيش فيها بعض الفنانين والفنانين البارزين بالذات ، وكذلك كان الحال بالنسبة لرجال الصحافة مع زكريا ، كان أصدقاؤه من الصحفيين هم من قدامى الأصدقاء ، الذين ليس من عملهم نشر الأخبار التافهة ، أو الدعايات الرخيصة ، وعندما كان أحدهم يرغب في عمل حديث صحفي مع زكريا كان يهرب منه الا ان سمع عنه انه أقلع عن فكرة الحديث هذه .. وأنا شخصيا حاولت في الأعوام الثلاثة الأخيرة أن أكتب عن زكريا والححت عليه ووسطت عنده بعض أهل الفن ولكنه كان يروغ باستمرار .. ولم يكن زكريا يسمح لأحد بأن يزوره في بيته الا اذا كان واثقا تمام الثقة من هذا الشخص ، وعندما يبدو من هذا الشخص ما يضايقه أو عندما لا يستظرفه أحد من أفراد الشلة يمتنع زكريا عن مقابلته ، كما يمتنع عن الرد على تليفونه ، ليشعره بأنه قد ضاق به — وقلما كان يحدث ذلك . والشيء الذى كان يرفع زكريا في نظرى الى مستوى الخالدين ، ايمانه الذى لم يتزعزع بكرامته ، وكرامة كل فنان ، كان يقول ان الكرامة بالنسبة للفنان — بل وبالنسبة لكل انسان — تعادل العرض بالنسبة لأية فتاة

وأى انسان ، وأى فنان يفرط فى كرامته يكون كالفتاة التى تفرط فى عرضها وكان يقول : ان كرامة الفنان بل الانسان تساوى كرامته والانسان بلا كرامة كالانسان بلا حياة ..

كان يثق دواما فى نفسه ، وفى فنه ، وفى شخصيته ؛ وكان لا يحاول أبدا أن ينزل من عليائه ولو كان هذا النزول سيدر عليه الوف الجنيهات ، وكان يأسف بمرارة عندما يسمع ان هذا الفنان أو ذاك ، قد ذهب الى أحد مقدمى البرامج فى الاذاعة ؛ ليرجوه أن يذيع له أغنية من أغانيه الجديدة ؛ وكان يبدو عليه الأسف والحزن عندما يسمع ان فنانا أو فنانة ؛ يرجو صحفيا ما ، لكى ينشر خبرا عنه ، أو عنها ، أو عن أغنية له ، أولها .. وكان يقول دائما : ان أم كلثوم تربعت على عرش الغناء ؛ لأنها فنانة أصيلة ولأنها حفيظة على كرامتها وعلى شخصيتها وهذا سر اعجاب الناس بها ، وسر بقائها على عرشها طوال هذه الفترة الطويلة .

●●●

وفى كثير من الحالات كان يروى قصصا عديدة عن احتفاظ الفنان بكرامته ، سمعت منه مرة قصة عن عبده الحمولى — وكنت سمعتها من قبل من الأستاذ راشد رستم — أراد أحدهم وكان من أصدقاء عبده الحمولى مداعبته ، فتظاهر أثناء غناء الحمولى بقراءة صحيفة كانت فى يده ، وترك عبده الحمولى المنصة واتجه الى هذا الشخص وأزاح الجريدة بيده ، وهو يقول له أمام الناس : « اذا غنى عبده الحمولى أنصت الكون .. » ثم عاد الى

مكانه . وابتسم بعد أن فهم ان القصد لم يكن اهانته ، بل كان مداعبته ..

وبالرغم من اختلافه مع ماركونى منذ عام ١٩٣٦ ، ورفعه الخلاف الى المحاكم المختلطة ، وبالرغم من مساعى الأستاذ محمد فتحى وغيره من أقطاب الاذاعة ، فقد ظل زكريا عند موقفه . الى أن اعترفت له الاذاعة بحقه وكرامته ، وبالرغم من أن اختلافه مع أم كلثوم سنوات طويلة لا نستطيع أن نقول عنها الا انها كانت سنوات عجاف مجدبة للفن ولأهله حاول الكثيرون معرفة سر هذا الخلاف فلم يستطيعوا الوصول الى هذا السر ، وذات يوم ولم أكن سألت زكريا شيئا عن ذلك الخلاف قال لى : بالرغم من ان أم كلثوم من خيرة من عرفت ذكاء ومقدرة وفهما للناس ، الا أنها تغيرت بالنسبة لى ، نسيت زكريا أحمد ، الذى رافقها بايمان واخلاص ، وتفانى فى الطريق الطويل الى المجد ، ولم تفهم أخلاقى وكبريائى .. وسكت زكريا برهة ثم قال : « وبذلك أجبرتنى أم كلثوم — الأخت والصديقة والزميلة — وأنا الفنان المسالم ، الذى لم يذهب الى المحاكم ولو شاهدا ، أن أترك عملى وأتفرغ لخدمة القضايا بدلا من التفرغ لخدمة الفن » .

●●●

وكان زكريا يقول ان أهل الفن يجب أن يتعارفوا ويجب أن يتصادقوا ويحس كل واحد تجاه الآخر ، بالحب والود لأنهم جميعا أسرة واحدة ، مهما اختلف أفرادها وتباينت اتجاهاتهم ، وقال ذات مرة : لقد قضيت أياما قاسية مريرة ، عندما أصر كامل

الخلعى وهو من خيرة موسيقيينا ومن خيرة مؤلفينا ، وشعرائنا ، بعدما كره الفن : على أن يمتهن مسح الأحذية ، فاشترى صندوقا صغيرا ملأه بالورنيش وأربطة الأحذية وراح يسرح به على المقاهى فى شارع عماد الدين الذى كان من نجومه اللامعة ، وذات يوم أعطاه أحدهم خمسة قروش فتناولها كامل الخلعى فى دهشة وسأل صاحب هذه القطعة : «هل هذه القطعة لى كلها» فقال الرجل نعم ، فقال : كامل : يعنى على كده ، انت عارف أنا مين ؟ وقال الشخص : طبعا يا أستاذ . وقال كامل . اخص عليك ، يعنى عارفنى وتهنى .. تعرف ان كامل الخلعى لو اراد أن يكسب ألوف الجنيهات يقدر يشغل مزيكة . لكن أنا مش عاوز كده .. أنا عاوز اشتغل بمزاجى ، مش بمزاج الناس .. استنى لما اجيب لك اربعة قروش ونص..» .. « وظل كامل الخلعى يمارس مهنة مسح الأحذية ونحن أصدقاؤه — هكذا قال زكريا — نلتقى به كل ليلة لنحاول اقناعه بالعودة الى الموسيقى حتى أثرنا فيه حنانه للموسيقى فترك صندوق الورنيش وعاد الى السكا والجركا » .

وكان زكريا يقارن بين ما حدث لكامل الخلعى وما حدث له وبين ما كان يحدث للفنانين فى الخارج . ذكر لى ان الموسيقار الايطالى — توسكانينى العظيم — أقام حفلة لتقديم النشيد القومى الأمريكى « علم النجمة المذهب » بلغ ايرادها مليون دولار ، فى ليلة واحدة ، وكتب له بعدها روزفلت وكان رئيسا للولايات المتحدة قائلا : « ان مساهمتك الرقيقة لاعلاء شأن الموسيقى العالمية قد لاقت تقديرا مشرفا وولاء مخلصا لدى محبى الحرية ،

والمكافحين من أجل قضيتها ، ولقد برهنت خلال حياتك على أن الفن العظيم لا يزدهر الا بين الأحرار » .

وقد نزل مرة روزفلت من مقصورة الرئاسة فى قاعة الدستور بواشنطن يؤدى تحية اجلال الى توسكانينى قبل افتتاح البرنامج ..

وذكر لى زكريا ما قاله الرئيس الأمريكى السابق ايزنهاور عندما مات توسكانينى : « لقد علمت ببالغ الألم والأسى نبأ وفاة ارتورو توسكانينى ، وكانسان وموسيقار كسب توسكانينى تقدير العالم واعجابه فكان يتكلم بلغة الانسان العالمية ، الموسيقى ، كما كان ينطق بالحرية فى كل مكان ، فالموسيقى التى خلقها وكراهيته للاضطهاد تعد من تراث عصرنا هذا .. » .

واشهد أننى طوال معرفتى بزكريا أحمد لم أجده سعيدا فى يوم من الأيام مثل سعادته فى يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٦٠ عندما انعم عليه الرئيس جمال عبد الناصر بوسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى فى عيد العلم .

• - •

وكان يضحك من كل قلبه ، عندما يروى لى قصة رواها من قبل الدكتور فؤاد رشيد « انه فى عام ١٩١٦ أقامت جمعية أنصار التمثيل حفلة لحساب الجمعية الخيرية الاسلامية مثلت فيها رواية عزة بنت الخليفة تأليف ابراهيم رمزى ، وحضر هذه الحفلة السلطان السابق حسين كامل وبصحبته أحمد تيمور باشا ، وقام بالدور الأول فيها محمد تيمور . وقابل الجمهور الرواية باستحسان بالغ حتى ان الستار الأخير رفع عدة مرات اجابة

لتصفيق الجمهور وهتافه ، ولكن السلطان لم يرقه شيء من هذا والتفت الى تيمور الأب غاضبا وقال : جرى ايه يا باشا يصح ابنك يعمل أراجوز جرى ايه لأولاد الذوات .. فارتبك تيمور ولم يسعفه النطق ولا البيان ، فقال السلطان اذا كنت مش قادر عليه فأنا أقدر عليه ، ولا يمكن أسمح لأولاد الباشوات بمثل هذا العبث ، وفي صباح اليوم التالي أصدر السلطان مرسوما بتعيين محمد تيمور تشريفاتيا بالقصر السلطاني ولم يسع محمد تيمور الا قبول المنصب والاستقالة من جمعية أنصار التمثيل ورياستها » .

وكان زكريا يروى هذه القصة ويقول : انه نموذج لتفكير الناس اللى كانوا بيحكمونا ويتصرفوا فى كل أمورنا ..

ويبتسم قائلا : « الحمد لله ، اللى شجرتهم ماعدش لها وجود فى بلدنا .. » .

• • •

وليس صحيحا أبدا ما يقال من أن زكريا أحمد ، كان متزمتا فى فنه ، لقد روى لى الأستاذ حبيب جاماتى قصة محاولة بدأها هو وزكريا وكاد يكتب لها النجاح لولا أن تدخلت العوامل الشخصية عند بعض المموّلين — قال حبيب جاماتى : « عندما انفصلت فاطمة رشدى عن يوسف وهبى ، كوّنت فرقة خاصة بها تعمل فى تياترو دار التمثيل العربى ، وقد ترجمت لها كثيرا من روايات الأوبرا الى دراما باللغة العربية مثل سلامبو ومانون ، وعايدة ، كما ترجمت لها كثيرا من روايات الأوبرا « غادة الكاميليا » ، وفكرت أنا وزكريا فى أن نترجم الموسيقى ، الأوربية

الى موسيقى عربية ، أنا أعرب الكلام وهو يعرب الموسيقى .. ورحب عزيز عيد بالفكرة ، ورحب أيضا — عمر سرى — من أبناء الذوات الذين نزلوا الى ميدان التمثيل وأعلن استعداده لوضع رأس مال قدره عشرة آلاف جنيه ، لتنفيذ الفكرة ، وبدأنا تعريب أربعة ألحان ونظمنا اجتماعا فى منزل عمر سرى حضره طلعت حرب وكان يبدى اهتماما كبيرا بالمسرح . وتدخل أولاد عكاشة فى الموضوع وأصروا فيما بعد على الاشتراك فيه وأيدهم طلعت حرب . وكانت النية متجهة نحو منيرة المهدية لتمثل عايدة ، واقترح طلعت حرب أن يقوم بالدور الأول أمام منيرة أحد أولاد عكاشة ولم تقبل منيرة ولم يرض زكريا ..وفاتح زكريا أم كلثوم فى هذه الفترة ، وكانت قد اقتنعت بالعمل فى السينما ، لكى تنزل الى المسرح وقال ان أم كلثوم لو كسبها المسرح لحقق أعظم انتصار له ، وترددت أم كلثوم ، وكنا قد انتهينا من تعريب موسيقى عايده ، وسلامبو وقام منصور عوض بكتابة النوتات الموسيقية ومات المشروع ، وقبل وفاة زكريا بأسابيع فاتحته من جديد فى الموضوع فقال انه سيبحث عن الأوراق التى يحتمل أن تكون ضمن أوراق المرحوم طلعت حرب » ..

ثم مات المشروع نهائيا بوفاة زكريا أحمد .

وزاوية أخرى من زوايا شخصية زكريا أحمد نحب ان نشير اليها — باختصار — فى هذا المجال ، لقد كان زكريا يعلم حق العلم ان حياته قد مرت بدون طفولة ، لذلك كان يبذل المستحيل من أجل أولاده ، ليطيل فترة طفولتهم وليمتعهم بما شاء لهم ان

يتمتعوا به ، وبما حرم هو منه فى طفولته ، ولذلك كان طلب أى ابن من أبنائه يعتبر أمرا لابد من تنفيذه على وجه السرعة ، وبمنتهى الدقة . ولما كان زكريا فى طفولته قد كره الكذب ، وتعود دائما الا يكذب لأنه يرى ان الكذاب دائما جبان ، وهو لم يرد أن يكون فى لحظة ما جبانا ، فقد كان أكره ما يكرهه الكذب ، الكذب على النفس، وعلى الناس ، وكان دائما يستعجب من أن بعض الناس يكذبون ويسرفون فى الكذب ، وكان يقول ان هؤلاء مرضى ، وكما يوجد مرضى بحب السرقة فكذلك يوجد مرضى بحب الكذب ، وكان لا يمتنع أبدا عن أن يقول كلمة الحق حتى ولو كانت هذه الكلمة ستجعله يتضور من الجوع .. وكان يكره دائما الرجل الملتوى كما كان يكره الطرق الملتوية ، وكان يرى هؤلاء الذين يرتفعون بسبب التوائهم وقدرتهم على التملق والكذب فيبتسم فى سخرية : ويقول : « دى أمجاد من القش ولا أقولك خسارة عليها تبقى قش لأن القش ممكن يستمر شوية ، انما الحقيقة دى أمجاد من الرمل ، وبتنهدم بسرعة » ثم يقول : « أنا لا أحب الا الطريق المستقيم ولا أقبل الا الطريق المستقيم ، ولو كان الطريق المستقيم حيموت أولادى من الجوع وحيموتنى أنا أيضا ، لا يمكن أن أترك هذا الطريق » .

ولم يقبل زكريا أحمد طيلة حياته أن يكون له شلة من المرتزقة ، تطبل وتزمر له بالحق ، أو بالباطل ، ولم يقبل هو نفسه الانضمام الى شلة من الشلل . ذهب اليه أحدهم ليقول له ناصحا : « لماذا لا تسهر مع فلان ؟ لقد أقبلت عليه الدنيا وأصبحت

فى يديه أبواب كذا وكذا وهو يستطيع أن يسهل لك كل أمورك ؟
وقال زكريا لمحدثه وهو يكاد يخنقه : قل لسيدك ان زكريا لا يشترى أحدا ، ولا يمكن لأحد أن يشتريه ولا يمكن أن يكون «دلدولا» لأحد .. ولا يقبل لأحد من الناس أن يكون دلدوله » .
وقال له صديق : يا زكريا ، لقد بلغت من العمر ما يجعلك تفكر فى أولادك ، يجب أن تقلع عن طريقتك فى الحديث مع أولئك الذين ارتفعوا ، وآلت اليهم مصائر الفنون انك تعاملهم كأنهم أولاد الأمس وتنسى حاضرهم ؟ وقال زكريا : « أولا أريد أن أسألك هل وكلك أولادى فى المطالبة بحقوقهم بعد مماتى ، أنا لا أريد أن أشترى ثروة لأولادى من النفاق .. اننى لو فعلت ذلك لمت غيظا وكمدا » .

وقال له ثالث : — وكان الحديث أمامى — : يا زكريا تأكد ان الحرب ضدك ستستمر بعد وفاتك . ان كثيرا من الناس ذوى القلوب السوداء لا ينهون خصوماتهم بالموت ، بل يتناسونها بعد موت خصومهم ، وأنا أخشى على تراثك الفنى الضخم أن يضيع متأثرا بهذه الخصومات ؟ وقال زكريا : « ثق وتأكد اننى لا أحمل لانسان ما — وخاصة اذا كان فنانا — الا كل حب وتقدير ومودة ، واختلاف مع البعض فى مسائل فنية لا يمكن أن يتطرق الى أشخاصهم ، لقد كنت على خلاف مثلا مع أم كلثوم وكنت أنتقدها لأنها بالنسبة لى أكثر من أخت وأكثر من زميلة ، ولكنى لم أبغضها وما كان لى أن أفعل ذلك فى يوم من الأيام . انها سيدة من غنى فى هذا العصر وانها حامية حمى

الموسيقى العربية ، بموهبتها وشخصيتها واصرارها على الا تغنى الا اللون العربى » وسكت زكريا برهة ثم قال : « ماذا يستطيع هؤلاء أن يفعلوا بى بعد موتى ، يمنعون اذاعة الأغانى والأوبريتات التى لحنتها .. يمتنعون عن السير فى جنازتى . لا يكلفون أنفسهم عناء ارسال تلغراف تعزية الى أسرتى .. كل ذلك مسائل صغيرة لا يمكن أن تجعلنى أغير الخط ، الذى اختططته لنفسى فى الحياة : حب الناس جميعا وكلمة الحق فى كل الظروف والأحوال .. » .

لقد كان زكريا يحب الناس جميعا ، ولكنه كان دواما يحرص على استقلال ذاته ، حرصا شديدا ، وكان يغار عليها من تطفل الآخرين . وكان يحمل لغيره من الاحترام ما هو جدير به . كما يحمل لنفسه أيضا من الاحترام ما هى جديرة به ، وكان يفرق بين التواضع والشعور بالتفاهة ، وبين محبة الناس ، والتهافت على الناس .. كان زكريا بحق مزيجا من التسامح ، والتواضع والكبرياء .. والطموح .

تصور الضجة التى أقامتها الصحافة حول آخر أغنيات زكريا لأم كلثوم « هو صحيح الهوى غلاب » وتصور زكريا وهو يتأهب لسماع الأغنية من أم كلثوم بعد مدة طويلة هل ذهب الى مسرح حديقة الأزبكية واحتل كرسيا فى الصف الأول أو راح يتباهى بفنه ؟ لا : لم يفعل شيئا من ذلك ، ترك الملايين التى تهتف باسمه والأذهان التى تهفو لسماع ألحانه .. وذهب الى درب المسمط ليسمع أم كلثوم من هناك وأدع للفنان كمال الجويلى يصف هذه الليلة التى رافقه فيها فيقول :

« استمع زكريا أحمد الى أغنيته الجديدة التي لحنها لأم كلثوم وهو في فرح الفرح كان في درب المسمط . كان فرح نبوية قطة بنت صديق عمره عبد العزيز قطة أشهر كاتب دوبيا في بلادنا .

قبل أن تغني ام كلثوم في حفلتها غنى زكريا أحمد في الفرح ، لم يغن « ما اعرفش انا » التي لحنها لأم كلثوم بعد طول غياب ، غنى للعروسين على الكوشة « ليليتنا نادية » و « صلاة الزين على العروسين » .

بعد أن غنى زكريا أحمد انتهى الفرح . خرج المدعوون وبقى زكريا أحمد والعريس والعروس . كانت الساعة ١٢ .. وكان معنى ذلك ان الوصلة الأولى لأم كلثوم قد انتهت . لم يهتم أحد في الفرح بسماعها . كانوا مشغولين عن سماعها بفرحهم .. وكانوا قد عرفوا كلهم ان الأغنية قديمة .. « هجرتك يمكن انسى هواك » .. وجاء موعد الأغنية الثانية . كانت « حب ايه اللى انت جاي تقول عليه » كانت أول اغنية يلحنها بليغ حمدى لأم كلثوم ، وبدأ الشيخ زكريا يهتم . كان يضع الكوفية التقليدية حول رقبته .. وفي عنقه بيبون بنى أنيق .. وكان يجلس على « كنبة استامبولي » .. كان زكريا أحمد يسمع بكل حواسه ، كان كمن يريد أن يستوعب كل اللحن . عبر عن رأيه في بساطة .. قال ان الأوركسترا كانت تأكل كل شيء .. طغت على كل شيء .

وفي الواحدة انتهت الوصلة الثانية وسمع زكريا احمد آخر نشرة للأخبار كان الشيخ يعرف ان الوصلة الثالثة « ما اعرفش انا » .. كان واضحا انه قلق . أصابع يديه تتحرك .. كان

يمسك بعلبة الكبريت ليشعل أعوادها واحدا وراء الآخر دون مناسبة .. ولا سيجارة واحدة عرفت طريقها الى شفتيه فى لحظة الانتظار .

باختصار كان الملحن الشيخ صاحب التجارب الطويلة والألحان الناجحة كالزوج الذى يقف خارج غرفة الولادة فى انتظار مولوده الجديد ، وبدأت الاذاعة الخارجية مرة ثالثة وانتهت علبة الكبريت . فى هذه اللحظة اعتدل زكريا أحمد فوق الكنبة .. وفى حركة لاشعورية مد يده الى جيبه ليخرج سيجارة ..لم يجدها فطلبها من العريس .

وجاء صوت المذيع يعلن الأغنية الثالثة .. من كلمات بيرم .. وتلحين زكريا أحمد .. واشعل الشيخ زكريا السيجارة واحنى رأسه كفتى خجول .. واللحظة التى كان يرتفع فيها تصفيق الجمهور وهو يستقبل أم كلثوم .. وبدأ لحن زكريا احمد ينساب فى سكون الليل .. بصوت أم كلثوم : « هو صحيح الهوى غلاب .. ما اعرفش انا والهجر قالوا مرار وعذاب .. واليوم بسنة » .

ورأيت زكريا أحمد سعيدا .. كانت ترتسم على وجهه ابتسامات متواضعة .. بلا غرور .. وتحمس الجماهير .. وتحمس أم كلثوم .. وتعيد مرة ومرة .. « ازاى يا ترى .. أهو ده اللى جرى .. ما اعرفش انا » .. وفى هذه اللحظة تتغير الصورة . قام العريس والعروس من الكوشة . وقام زكريا أحمد فى هدوء وفى خجل من فوق الكنبة . وذهب الى الكوشة .. جلس عليها

فعلا . كان كأنه يمشى وهو نائم . وأصبح العريس والعروس والأهل مدعوين .. والشيخ زكريا هو العريس ..

وتردد أم كلثوم « ازاى يا ترى ، أهو ده اللى جرى »

وتنتهى حفلة أم كلثوم .

وتضج الجماهير بالتصفيق ..

ويقوم العريس والعروس ، ليهنئا زكريا أحمد .

وينزل الشيخ زكريا من الكوشة ..

ويخرج ليشق طريقه خارج درب المسمط ، الذى شهد فرحين .

فرح نبوية قطة .

وفرح « أهو ده اللى جرى .. » .

وينتهى الفرح وتنتهى الأغنية وتنتهى حياة زكريا أحمد بعد فترة قصيرة ، تلك الحياة التى كانت أشبه بأغنية حلوة فى فم القدر، أسعد ويسعد بها الملايين من المعجبين بالموسيقى العربية الصادقة..

ولا تنتهى موسيقى زكريا بل ستبقى الى الأبد ، متمثلة فى هذه الثروة الفنية العربية الصادقة ، التى نرجو أن تنال ما تستحق من عناية ودراسة ، وتمجيد . فانها من الثروات الموسيقية العالمية ، التى ينبغى أن تفاخر بها الدنيا .

رحم الله زكريا أحمد رحمة واسعة ، فلقد كان فنانا ، شعبيا صادقا ، أحب كل الناس ، وأخلص للفن وأهله وحافظ على كرامته ، وقدم لوطنه العربى ثروة موسيقية جديرة بكل تقدير واجلال .

مراجع البحث

١ ـ مجموعات الصحف العربية الصادرة فى القاهرة (١٩١٩ ـ ١٩٦١) ٠

٢ ـ تراثنا الموسيقى ، اصدرته اللجنة الموسيقية العليا ، للدكتور محمود الحفنى والأستاذ ابراهيم شفيق ٠

٣ ـ تاريخ الموسيقى العربية : هـ٠ج٠فارمر ٠

٤ ـ تاريخ الموسيقى : برنار شامبنيول ٠

٥ ـ تاريخ اعلام الموسيقى الشرقية الأستاذ عبد المنعم عرفة ٠

٦ ـ المقام العراقى : هاشم محمد الرجب : طبعة بغداد ٠

٧ ـ مفرح الجنس اللطيف محمود حمدى البولاقى ٠

٨ ـ يوميات زكريا احمد ٠٠

٩ ـ اصول الروايات المسرحيه التى لحنها زكريا احمد ٠

١٠ ـ ذكريات : السيدة فاطمة اليوسف ٠

١١ ـ الصحفى الثائر : دكتور ابراهيم عبده ٠٠

١٢ ـ محمد فريد : رمز الاخلاص والتضحية : للاستاذ عبد الرحمن الرافعى ٠

١٣ ـ مجلة الموسيقى : سنة ١٩٣٥ ٠

١٤ ـ وصف مصر : كلوت بك ٠

١٥ ـ الرسالة الرشادية : الشيخ اسماعيل سكر ٠

فهـــرس

